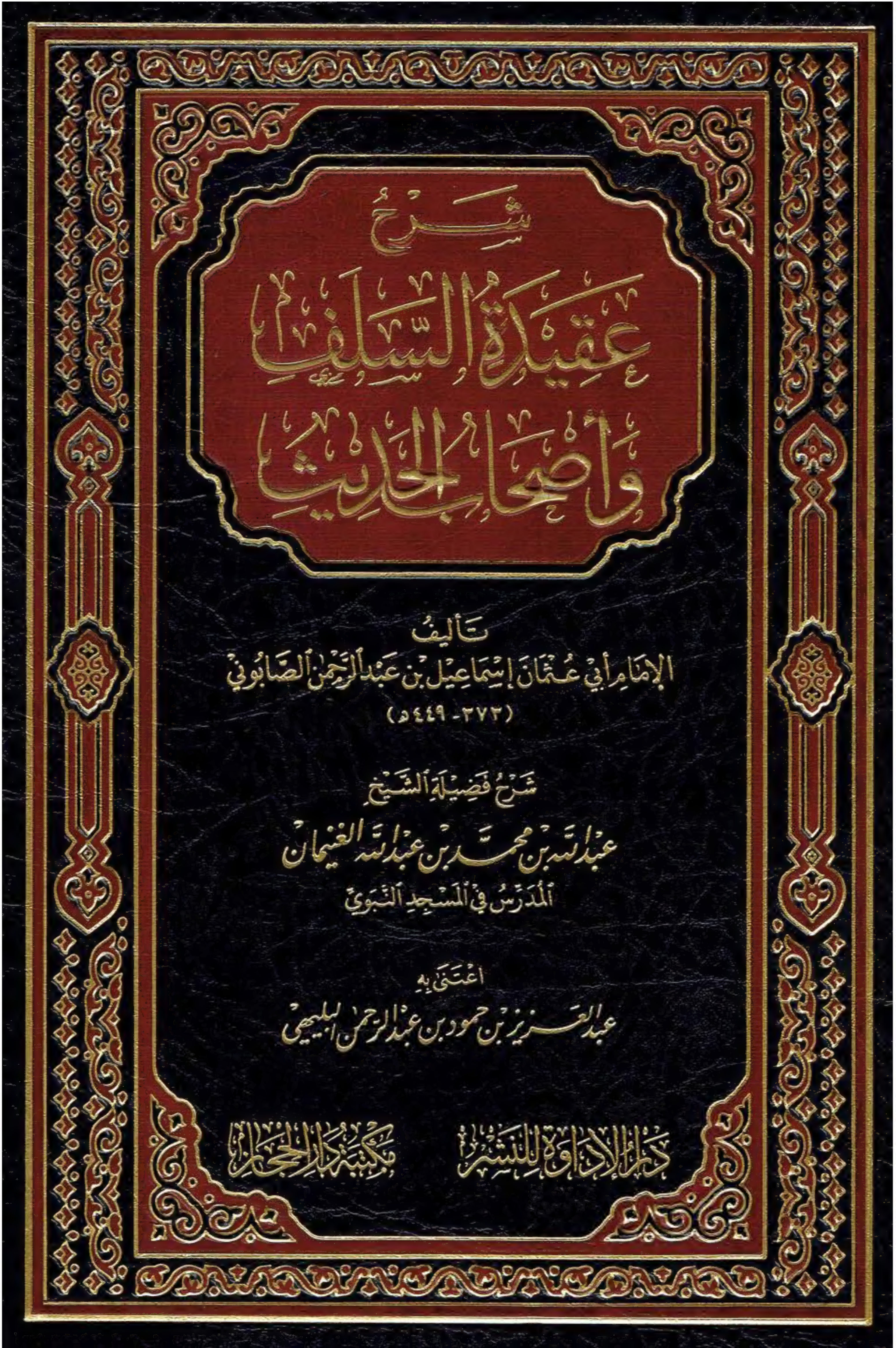


شرح
عقيدة السلف وأصحاب الحديث
تأليف
الإمام أبي عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني
(٣٧٣ - ٤٤٩هـ)
شرح فضيلة الشيخ
عبد الله بن محمد بن عبد الله الغنيمان
المدرس في المسجد النبوي
اعتنى به
عبد العزيز بن حمود بن عبد الرحمن البليهي
دار الإداوة للنشر
مكتبة دار الحجاز

شرح
عقيدة السلف وأصحاب الحديث

ح دار الإداوة للنشر، ١٤٤٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الغنيمان، عبدالله بن محمد بن عبدالله

شرح عقيدة السلف للصابوني . / عبدالله بن محمد بن عبدالله الغنيمان – الرياض، ١٤٤٣هـ

٢٨٠ص ، ١٧ x ٢٤ سم

ردمك ٢-٧-٨٣٦٧-٠٣-٦٠٣-٩٧٨

١- العقيدة الإسلامية   أ- العنوان

ديوي ٢٤٠   ١٤٤٣/١٠٨

رقم الإيداع: ١٤٤٣/١٠٨

ردمك: ٢-٧-٨٣٦٧-٠٣-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٤٣ هـ - ٢٠٢٢م

مكتبة دار الحجاز للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض - شارع السويدي العام - شرق النفق

الإدارة والمبيعات جوال - ٠٠٩٦٦٥٦٧٣٣٣٤١٧ - ٠٠٩٦٦٥٦٥١١٥٠٥٨ - ٠٠٢٠١١١٦٨٩٩١٠٠ - ٠٠٢٠١٠٦٩٠٥٧٥٧٣

الإسكندرية - ١٧٥ ش طيبة سبورتنج بجوار مسجد الصديق هاتف: ٠٣/٥٤٦١٥٨٣ - جوال: ٠١١١٦٨٣٣٥٥١

القاهرة - ٦ ش الدرسة متفرع من ش البطار - خلف الجامع الأزهر الشريف - هاتف: ٠٢/٢٥١٠٧٤٧٢

جوال: ٠١١١٦٨٣٣٥٥٠ - ٠٠٢٠١٠٦٩٠٥٧٥٧٣ - فاكس: ٠٣٤٣٨١٥٠٩

البريد الإلكتروني: d.alhijaz@gmail.com





00966540040650

@ALEDAWAH

ALEDAWAH@GMAIL.COM

الرياض - حي الشفا - شارع ابن طولون

شرح

عقيدة السلف وأصحاب الحديث

تأليف

الإمام أبي عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني

(٣٧٣ - ٤٤٩هـ)

شرح فضيلة الشيخ

عبد الله بن محمد بن عبد الله الغنيمان

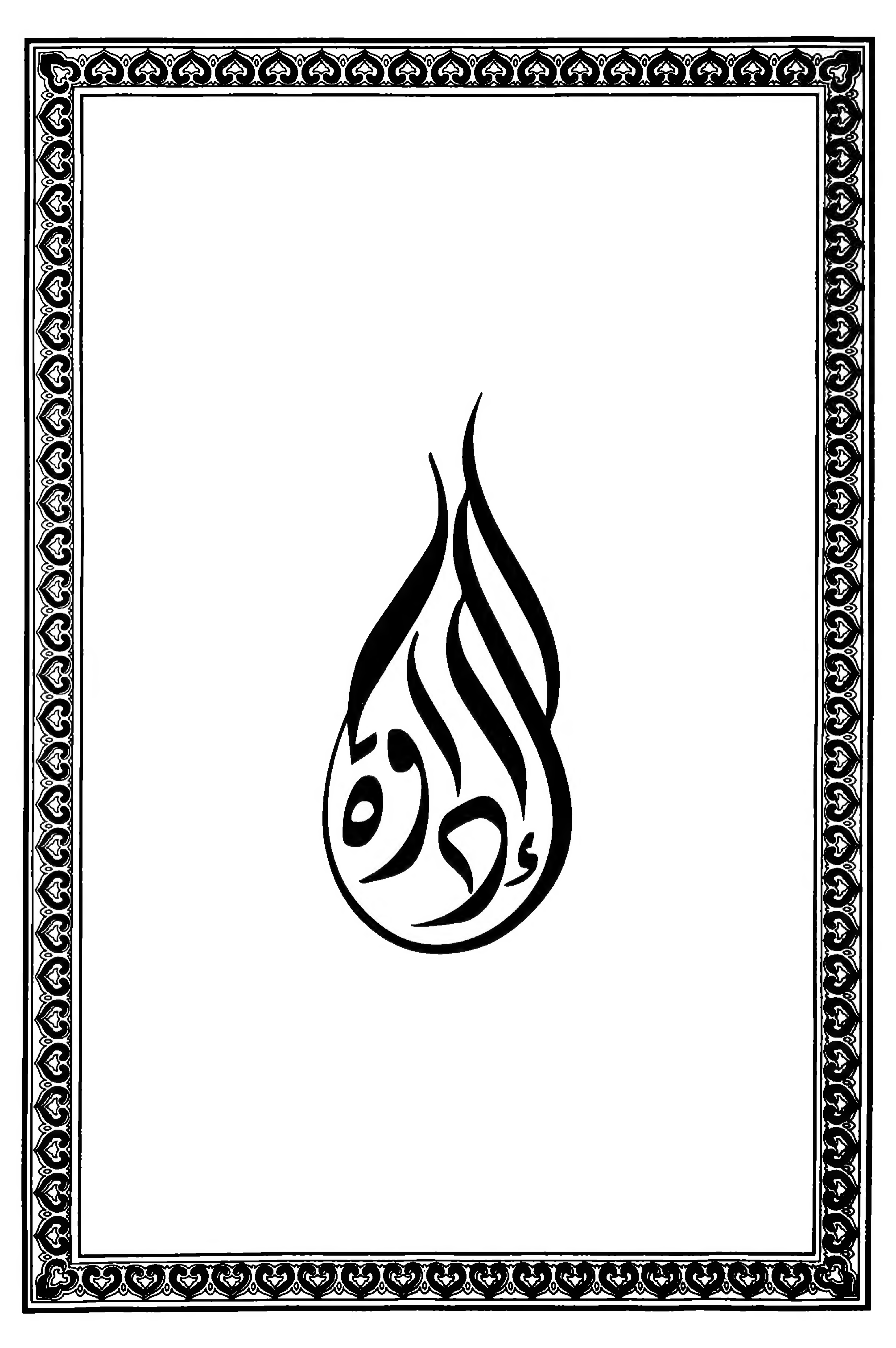
المدرس في المسجد النبوي

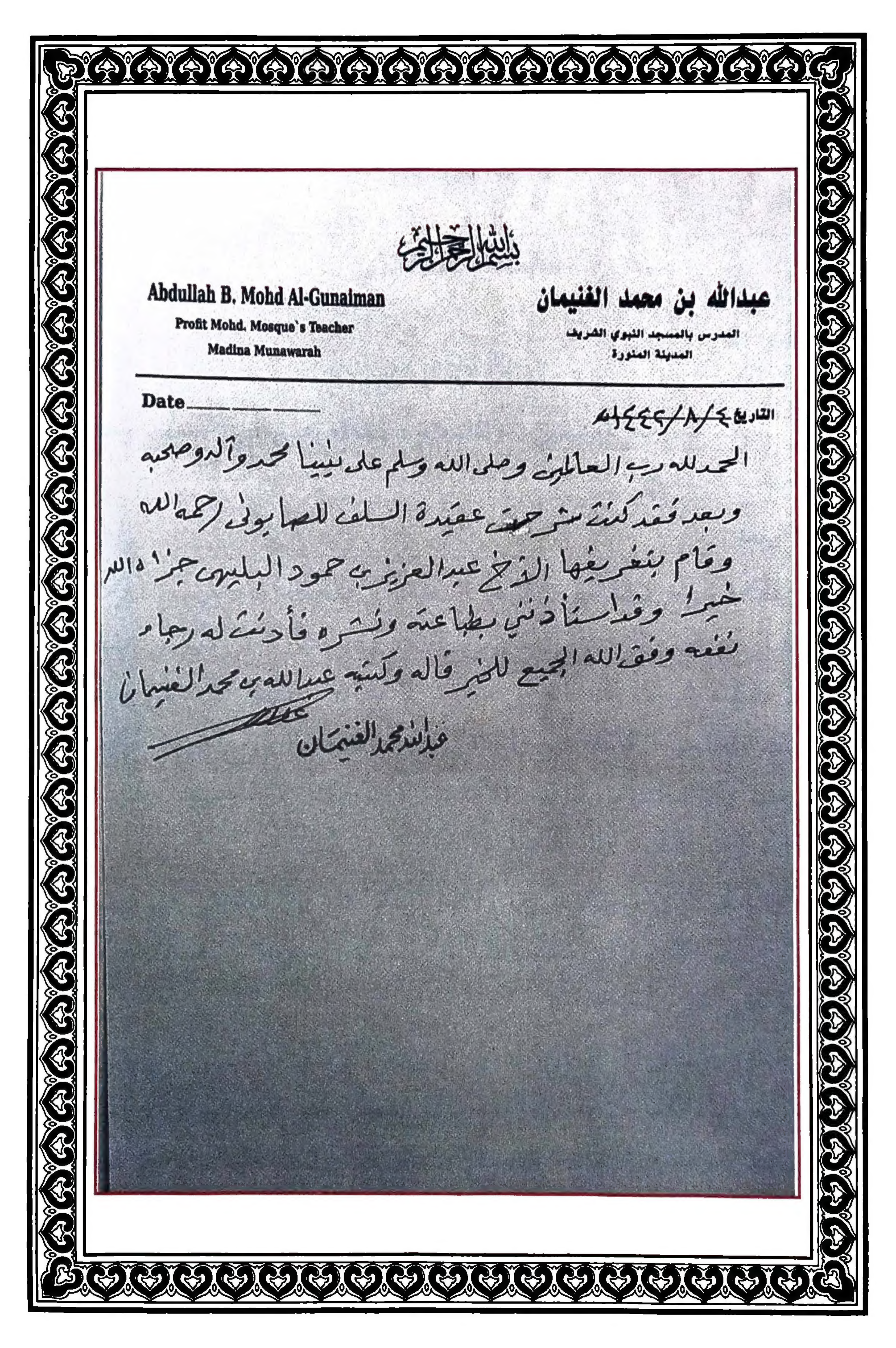
اعتنى به

عبد العزيز بن حمود بن عبد الرحمن البليهي

دار الإداوة للنشر

مكتبة دار الحجاز


الإهداء



بسم الله الرحمن الرحيم

عبدالله بن محمد الغنيمان
المدرس بالمسجد النبوي الشريف
المدينة المنورة

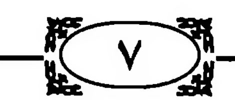
Abdullah B. Mohd Al-Gunaiman
Profit Mohd. Mosque`s Teacher
Madina Munawarah

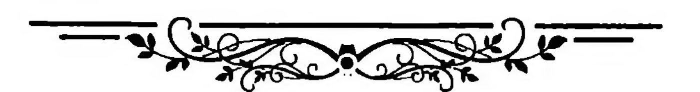
التاريخ ٤/٨/١٤٤٢هـ

Date ____________

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه
وبعد فقد كنت شرحت عقيدة السلف للصابوني رحمه الله
وقام بتفريغها الأخ عبد العزيز بن حمود البليهي جزاه الله
خيراً وقد استأذنني بطباعته ونشره فأذنت له رجاء
نفعه وفق الله الجميع للخير قاله وكتبه عبد الله بن محمد الغنيمان

عبد الله محمد الغنيمان





مُقَدِّمةُ المُعتَني

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فهذا شرح لكتاب «**عقيدةُ السَّلف وأصحابِ الحديثِ**» للإمام إسماعيل بن عبد الرحمن الصَّابوني رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو عبارة عن دروس علمية ألقاها فضيلة شيخنا عبد الله بن محمد الغُنَيمان ـ حفظه الله ـ في بعض الدورات العلمية، فأفاد فيه وأجاد ـ جزاه الله خيرًا ونفع به ـ، فُرِّغت وجُمِعت ورُوجِعَت، وعُزِيَت الآيات، وخُرِّجت الأحاديث، وعُزِيَت الأقوال، وغير ذلك، فللَّه الحمد والمنَّة.

والشكر أولًا وآخرًا لله ربي، كما أشكر كل من ساعدني في ذلك، وأخصُّ منهم الإخوةَ في مكتب الشيخ بالمدينة النبوية(١)، أسأل الله أن يجزيهم عني خير الجزاء.

هذا، ونسأل اللهَ العليَّ القدير أن يغفرَ للإمام الصابوني، ويتغمَّدَه بواسع رحمته، كما نسأله جَلَّ وَعَلَا أن يجزيَ شيخنا خير الجزاء، وأن يبارك له في عمره وعلمه وعمله، ويصلح له ذريته، وأن يجعلنا وإياهم هُداةً مُهتدين؛ إنه سميعٌ قريبٌ مجيبٌ.

---

(١) hhks1999@gmail.com.

وإنْ تَجِدْ عَيبًا فَسُدَّ الخَلَلَا ... فَجَلَّ مَنْ لا عَيبَ فِيهِ وَعَلا

والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات، وصلَّى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه
عبدالعزيز بن حمود بن عبدالرحمن البليهي
a.h.albalhe@gmail.com

[قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ربِّ يسِّرْ وأعِنْ بِفضلِك ورَحْمتِك

أخبرنا قاضي القضَاة بِدمشق: نظامُ الدين عمر بن إبراهيم بن محمد بن مُفلِح الصَّالحي الحَنْبَلي، إجازةً مشافهةً، قال: أخبرنا الحافظ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد بن المحبِّ المَقْدِسِي إجازةً، إن لم يكن سماعًا، قال: أخبرنا الشيخان: جمال الدِّين عبد الرَّحمن بن أحمد بن عمر بن شكر، وأبو عبد الله محمد بن المحب عبد الله بن أحمد بن محمد المَقدِسيَّين؛ قال الأول: أخبرنا إسماعيل بن أحمد بن الحسين بن محمد العراقي سماعًا، أخبرنا إسماعيل بن أحمد الخرقي إجازةً، وقال الثاني: أنا أحمد بن عبد الدائم (ح).

وأخبرنا المحدِّث تاج الدين محمد بن الحافظ عماد الدين إسماعيل بن محمد بن بردس البعلي في كتابه، أنا أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن الخباز شفاهًا، أخبرنا أحمد بن عبد الدائم إجازةً، إن لم يكن سماعًا، أنا الحافظ عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي، أنا الخِرقِيُّ سماعًا، أنا أبو بكر عبد الرحمن بن إسماعيل الصَّابُونِي، ثنا والدي شيخ الإسلام أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن، فذكَرَه.

وأخبرنا قاضي القضاة عِزُّ الدين عبد الرحيم بن محمد بن الفرات الحنفي إجازةً مشافهةً، أنا محمود بن خليفة بن محمد بن خلف المنبجي إجازةً، أنا الجَمَّال عبد الرحمن بن أحمد بن عمر بن شكر بسنده قال:

الحمدُ للهِ رب العالمين، والعاقبةُ للمتقين، وصلَّى الله على محمد، وآله وصحبه أجمعين، أمَّا بعد:

فإنِّي لمَّا وردْتُ آمدَ طبرستان وبلاد جَيلان مُتوجهًا إلى بيت الله الحرام وزيارةِ قبرِ نبيِّه محمدٍ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الكرام؛ سألَني إخواني في الدِّين أن أجمعَ لهم فصولًا في أصولِ الدين التي استمسكَ بها الذين مضَوا من أئمةِ الدِّين، وعلماءِ المسلمين، والسَّلفِ الصَّالحين، وهدَوا ودَعوا النَّاس إليها في كلِّ حينٍ، ونهوا عما يُضادُّها ويُنافيها جملة المؤمنين المصدِّقين المتَّقين، ووالَوا في اتباعها وعادَوا فيها، وبدَّعوا وكفَّروا مَن اعتقدَ غيرها، وأحرزوا لأنفسهم ولِمَن دعَوهُم إليها بركتَها وخيرَها، وأفضَوا إلى ما قدَّمُوه من ثوابِ اعتقادِهم لها، واستمساكِهم بها، وإرشادِ العبادِ إليها، وحَمْلِهم إيَّاهم عليها.

الشَّرح

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد، وعلى آله وصحابته وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المقدمة سبب تأليف هذا الكتاب، وهو أنه لسؤال سُئِل إياه؛ أن يجمع شيئًا من صفات الله جَلَّ وَعَلَا، واعتقاد أهل الحديث.

والمقصود بأهل الحديث: مَن يتَّبع رسول الله ﷺ.

أي: يعمل بالحديث، ولا يلزم أن يكون حافظًا للأحاديث، ولكن الغالب أنهم يُطلِقون هذا على من كان اتجاهُه واشتغالُه بتحصيل الحديث.

وينقسم أهل الحديث إلى قسمين:

القسم الأول: حُفَّاظ مهمَّتهم الحفظ.

القسم الثاني: من كان عنده مَلَكة الحفظ ومَلَكة الفكر. وقد جاء ذكر هؤلاء في حديث أبي موسى الأشعري، أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِيَ اللهُ بِهِ ﷻ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا؛ فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ، قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَرَعَوْا، وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِيَ اللهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ**»[(١)].

قسَّم ﷺ الذين قَبِلوا عنه ثلاثةَ أقسام:

القسم الأول: من حَفِظ وأدى ما حفظه إلى من هو أعلم وأفقه منه.

وهو مثل: الأرض التي أمسكت الماء وحفظَته.

القسم الثاني: مَن فَقُه واستنتج الأحكام من النصوص، مثل: الفقهاء الذين يستنتجون الأحكام الكثيرة من النص.

الذين يوردون ما حفظوه، فيَرُدُّه من يرُدُّه، وينتفع به من ينتفع به؛ فربما حامل فقه إلى من هو أفقه منه.

القسم الثالث: لا خير فيه؛ فهو مثل السَّبِخة، وهؤلاء هم الهالكون.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب العلم، باب فضل من علم وعلم (١/ ٢٧) برقم (٧٩)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الفضائل، باب بيان مثل ما بعث به النبي ﷺ من الهدى والعلم (٤/ ١٧٨٧) برقم (٢٢٨٢) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

القسمان الأول والثاني كلاهما ناجٍ، ولكنْ هناك فرقٌ بين الفقيه وبين الحافظ.

وكذلك قوله ﷺ «**نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَبَلَّغَهَا؛ فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرُ فَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ**»(١).

وإن كان الحديث فيه مقال، ولكن معناه صحيح، ويدل على هذا الآياتُ والآثار.

وقد أمر ﷺ بإبلاغ ما جاء به؛ قال ﷺ: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً**»(٢).

قوله: «**وزيارةِ قبرِ نبيِّه**» لا ينبغي أن يكون هذا هو المقصود؛ فزيارة قبر النبي ﷺ لا يسافَرُ من أجْلها؛ لأن السفر من أجلها بدعة من البِدَع؛ لقوله ﷺ «**لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ**»(٣).

أي: في العبادة. فلو قال: إلى مسجد رسول الله ﷺ لكان أولى وأصوب، مع أن الزيارة لم يأتِ فيها حديث صحيح، وقد فهم الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ قول رسول الله ﷺ: «**لَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا،**

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، في كتاب العلم، باب فضل نشر العلم (٣/ ٣٢٢) برقم (٣٦٦٠)، والترمذي في سننه، في كتاب العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع (٥/ ٣٣) برقم (٢٦٥٦)، وابن ماجه في سننه، في كتاب الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب من بلغ علمًا
(١/ ٨٤) برقم (٢٣٠) من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه، قال الترمذي: حديث حسن.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٤/ ١٧٠) برقم (٣٤٦١) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب مسجد بيت المقدس (٢/ ٦١) برقم (١١٩٧) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. وفي باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة (٢/ ٦٠) برقم (١١٨٩)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الحج، باب لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد (٢/ ١٠١٤) برقم (١٣٩٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وَصَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ»[١].

فلم يكن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يقصدون القبر، سواءٌ مَن كان منهم في المدينة، أو من كان خارجها، فكان أحدهم إذا أتى المسجد وأراد الدخول، صلَّى على النبي ﷺ، ثم يكون في المسجد إما في صلاة وإما في غيرها.

وقد جاء عن ابن عمر فقط أنه كان إذا أراد أن يُسافر؛ أتى القبر فقال: «السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أبا بكر، السلام عليك يا أبتاه»، فإذا عاد فعل ذلك، قال سالم: فلم أرَ أحدًا يفعله غير ابن عمر[٢].

ولهذا كره الإمام مالك رحمه الله زيارة قبر الرسول ﷺ[٣]؛ لأنه لم يأتِ فيه حديث صحيح، وما ذكره الشوكاني رحمه الله في «نيل الأوطار»[٤] خطأ ظاهر؛ لأنه ذكر أحاديث ضعيفة، وبعضها موضوع، وقال: إن هذا يدل على مشروعية زيارة قبر النبي ﷺ بمجموعه!

نقول: لا يدل الضعيف بمجموعه وأفراده على حكم من أحكام الله جل جلاله.

وقوله: «سَأَلَنِي إخوانِي في الدِّين أنْ أجمع لهم فصولًا في أصول الدِّين».

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، في كتاب المناسك، باب زيارة القبور (٢/ ٢١٨) برقم (٢٠٤٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٣/ ٥٧٦) برقم (٦٧٢٤)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣/ ٢٨) برقم (١١٧٩٣)، والبيهقي في السنن الكبرى (٥/ ٤٠٢) برقم (١٠٢٧١).

(٣) التهذيب في اختصار المدونة (١/ ٥٣٠).

(٤) نيل الأوطار (٥/ ١١٢ ـ ١١٦).

هذا يدل على الاهتمام بالأخبار والآثار، وما عليه صحابة الرسول ﷺ ومن سلك طريقهم، وهؤلاء هم الفرقة الناجية، وقد أخبر الرسول ﷺ بأنهم يكونون على الحق متمسكين به، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم.



❁ [قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «فاستخرتُ الله تعالى وأثبتُّ في هذا الجزء ما تيسر منها على سبيلِ الاختِصار؛ رجاءَ أن ينتفعَ به أُولُو الألباب والأبصار، والله سبحانــه يُحقق الظَّنَّ، ويُجزِلُ علينا المنَّ، بالتوفيقِ والاستقامةِ على سبيلِ الرشدِ والحقِّ بِمَنِّهِ وفَضله.

قُلتُ: وباللهِ التوفيق:

أصحاب الحديث...».

الشَّرْح

أكثر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أن يكونوا أصحاب حديث، وهذا هو الصواب؛ إذ لا يجوز التعصب لطائفة بعينها، وإنما يجب أن نكون مع الكتاب والسنة.

ولكن يجب أن نحمل كلامه هذا على أصحاب السنة، أي: الذين يتَّبعون الرسول ﷺ وليس الذين اختصوا بحفظ الحديث وروايته فقط؛ لأن الأمة المتمسكة بالكتاب والسنة هي الناجية.



[قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «حَفِظَ اللّهُ أحياءهم وَرَحِم أمواتهم»



يجب أن يشمل الدعاءُ المسلمين عمومًا؛ سواء كانوا مِن حَفَظة الحديث، أو من حَفَظة كتاب الله، أو الذين لا يحفظون ولكنهم يعملون ويتَّبعون؛ فكلهم من الذين قَبِلوا عن رسول الله ﷺ واتَّبعوه.

❁ ❁ ❁

[قال رَحِمَهُ اللَّهُ]: «ويشهدونَ للهِ تعالى بالوَحدَانِيَّة»

الشَرح

أي: بأنه واحد في ذاته ليس له نظير أو شبيه، تعالى الله وتقدَّس، وهذا أمر لا ينكره أحد؛ فكل الطوائف الذين آمنوا بالرسالة يؤمنون به ولا يخالفون فيه، ولا يخالف فيه إلا ملحِدٌ كافرٌ قد ترك ما جاءت به الرسل.

فوحدانية الله جَلَّ وَعَلَا في ذاته لا خلاف فيها؛ ولهذا يجب أن يكون هذا أصلًا نَرجِعُ إليه مسائلَ الخلاف.

نقول: إذا كنا قد اتفقنا جميعًا على أن الله واحد ليس له نظير ولا مثيل، فإنه يجب أن نتَّفق على أن صفاته تخصه، لا يشاركه فيها أحد ولا يماثله فيها أحد.

يقول الخطَّابي رَحِمَهُ اللَّهُ: «القول في الصفات كالقول في الذات»[(١)]، يُحتذى حَذْوُه.

ولما قلنا في ذات الله جَلَّ وَعَلَا أنه فرد صمد واحد، فكذلك يجب أن نقول: إن صفاته تخصه ولا يشاركه فيها أحد، تعالى الله وتقدس.

هذا هو الحق الذي دل عليه كتاب الله وسنة رسوله، ودل عليه القياس العقلي الصحيح الذي يوافق كتاب الله جَلَّ وَعَلَا.

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «الفتوى الحموية الكبرى ص٥٤٣»: «وهذا هو المذهب الذي حكاه «الخطابي» وغيره من السلف، وعليه يدل كلام جمهورهم، وكلام الباقين لا يخالفه، وهو أمر واضح؛ فإن الصفات كالذات، فكما أن ذات الله ثابتة حقيقة من غير أن تكون من جنس المخلوقات، فصفاته ثابتة حقيقة من غير أن تكون من جنس صفات المخلوقات» اهـ.

والوحدانية تكون في صفاته وأسمائه التي اختص بها، والتي وقع فيها الخلاف الذي حدث في هذه الأمة، مع أن هذا الخلاف لم يكن معروفًا في الأمم السابقة.

وإنما الخلاف وقع في وحدانيته في العبادة، وقد ذكر الله ﷻ عن الرسل أن كل رسول يأتي قومه ويقول: ﴿أَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، فيردون عليه بأنهم يتمسكون بما وجدوا عليه آباءهم! وهم وجدوا آباءهم على الشرك؛ في عبادة الله وعبادة غيره معه، وهذا تشبيه للمخلوق بالله ـ تعالى الله وتقدس ـ.



﴿ [قال رَحِمَهُ اللَّهُ]: «ولِلرَّسُولِ ﷺ بالرِّسالَةِ والنُّبُوةِ».

الشَّرح

هذا أصل يضاف إلى الأصل الأول، بل هما أصل واحد.

الشهادة لله بالوحدانية في أوصافه وأسمائه، وفي حقه الذي أوجبه على خلقه، وكذلك في أفعاله؛ فإنه واحد فيها لا يشاركه أحد؛ فهو المتصرف، الخالق، الرازق، المحيي، المميت، المدبِّر.

وهذا أمر واضح في كتاب الله ﷻ، وفي سيرة رسول الله ﷺ، وفي دعوته، وكذلك في سيرة إخوانه من المرسلين، لا خلاف فيه، وإنما الخلاف في الذين لم يَقبَلوا عن الرسل.

فهما أصل واحد؛ شهادة أنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله، لا يُقبل أحدهما دون الآخر؛ فمن شهد أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولم يشرك بالله شيئًا، ولم يشهد للرسول ﷺ بالرسالة؛ فإنه كافر خالد في النار.

فلا بد أن يشهد للرسول ﷺ بالرسالة.

وهذا يَدُلُّنا على أنه لا بد لنا من وساطة بيننا وبين ربنا ﷻ في تبليغ أمره، وهو الرسول ﷺ.

أما الوساطة في الدعاء والعبادة، فهي غير جائزة، بل هي شرك بالله ﷻ.

وعلى هذا **تنقسم الوساطة إلى قسمين**:

القسم الأول: وساطةٌ حقٌّ: لا بد منها، وهي وساطة الرسل بين الأمم وبين ربهم في تبليغ أمره ونهيه.

القسم الثاني: وساطةٌ باطلةٌ: يتخذها أهل الإلحاد والكفر والشرك بالله ﷻ؛ في العبادة، والتوجُّه، والدعاء، والطلب، والإنابة.

وهذا هو الشرك بالله ﷻ، وهو الذي أخبر الله ﷻ أنه لا يغفر لمن مات عليه، وأن مأواه النار.

عطف النبوة على الرسالة يدل على المغايرة، وأن النبوة قد تكون غير الرسالة.

والرسالة مأخوذة من الأمر والتكليف بشيء معين، وهو الأمر والنهي، والوعد والوعيد، والخبر الذي يأتي من الله ﷻ.

وتقتضي الرسالة أربعة أمور، هي: أن يكون هناك مُرسِل، ورسالة من المرسِل، وحامل للرسالة وهو الرسول، ومُرسَل إليه.

أما النبوة فلا يلزم منها هذا؛ لأنها مأخوذة من الإنباء ـ على القول الصحيح ـ وليس من النَّبْوة؛ الرِّفْعةِ؛ لأن هذا لازمٌ؛ مَن أنبأه الله ﷻ فهو رفيع في خلق الله ﷻ، عالي في هذه الرتبة.

فكونها من الإنباء أولى وأصوب.

ولا يلزم أن يكون الإنباء برسالة يُكَلَّف بإبلاغها؛ لأن النبي قد يكون في أمة مسلمة، ولكنه يخبر بأشياءَ خاصةٍ به أو بغيره، أو بأمورٍ تتفق مع الشرع قبله.

والأنبياء في بني إسرائيل كثيرون، أما الرسل إلى بني إسرائيل فأولهم موسى عليه السلام، وآخرهم عيسى عليه السلام، وهما اللذان جاءا بالتوراة والإنجيل، وإن كان الإنجيل مكمِّلًا ومخفِّفًا لِما في التوراة. وقد جاء بين موسى وعيسى عليهما السلام رسلٌ وأنبياءُ.

وقد جاء يوسف عليه السلام قبل موسى عليه السلام، وهو رسول أيضًا، لكن لم يُذكَر أنه أُنزِلَ عليه كتاب. والله أعلم.

وقد ذكر الله ﷻ في كتابه خمسةً وعشرين رسولًا، وقد أوجب بعض العلماء معرفة أسمائهم؛ لأنهم سُمُّوا في كتاب الله ﷻ، إضافة إلى رسل كثيرين لم يُذكَروا. والله أعلم.

أما حديث أبي ذر رضي الله عنه، الذي جاء فيه عدد الرسل وعدد الأنبياء؛ فهو ضعيف[1]، وقد صححه ابن حبان رحمه الله تعالى.

يقول الله ﷻ: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤]، ولما ذكر الأمم قال: وأُمَمٌ بين ذلك لا يعلمهم إلا الله؛ فدل على أن هناك أممًا لم يذكرهم لنا ولا نعرفهم.

وقد مثَّل شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله للفرق بين الرسالة والنبوة بحالة نبينا ﷺ في أول الأمر، وهي واضحة، وقال: «إنه نُبِّئَ بـ«اقرأ»، وأُرسِل بـ«المُدَّثِّر»»[2].

وسورة العَلَق ﴿اقْرَأْ﴾ هي أول ما نزل عليه، وليس فيها أمر ولا نهي، وإنما فيها أمرُه هو بالقراءة، فجاءه جبريل عليه السلام وهو في غار حراء، فضمَّه ثم أرسله بعد ما قال له: «اقْرَأ». قال له: «**مَا أنا بِقَارِئ**». أي: لا أُحسِن القراءة؛ لأنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أُمِّي لا يقرأ ولا يكتب، ثم ضمه ثانيةً ضمَّةً أشد من الأولى ثم أرسله، قال له: «اقْرَأ». فقال: «**مَا أنا بِقَارِئ**». أي: لا أُحسِن القراءة، كيف أقرأ وأنا لا أعرف القراءة ولا الكتابة؟! ثم ضمَّه الثالثة، وقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ

---

(١) إشارة إلى ما أخرجه الحاكم في المستدرك: ٢/٦٥٢ برقم (٤١٦٦) أن أبا ذر قال للنبي ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَم النَّبِيُّونَ؟ قَالَ: «**مِائَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ نَبِيٍّ**» **قُلْتُ: كَمِ الْمُرْسَلُونَ مِنْهُمْ؟ قَالَ: «ثَلَاثُمِائَةٍ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ»**. والحديث ضعَّفه الذهبي في التلخيص بقوله: فيه يحيى بن سعيد السعدي، ليس بثقة.

(٢) أصول الدين الإسلامي مع قواعده الأربع (ص: ١٧).

يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ١ ـ ٥]. هذه الآيات أول ما نزل، ثم فتر الوحي[(١)].

أي: توقف فترة، فمن العلماء من يقول: ستة شهور، ومنهم من يقول: سنتان[(٢)]. ففي هذا الوقت كان نبيًّا ولم يكن رسولًا.

ولما جاءه جبريل عليه السلام في المرة الثانية وصار يناديه: يا محمد. فالتفت يمينًا وشمالًا فلم يرَ أحدًا، ثم رفع رأسه فرآه فوقه قد سَدَّ الأفق، على صورته التي خلقه الله عليها! فجاء إلى أهله ترتعد فرائصُه فقال: «**دَثِّرُونِي دَثِّرُونِي!**»؛ لأن الخائف إذا دُثِّر هدأ. فجاءه فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾ [المدثر: ١ ـ ٣] إلى آخره[(٣)].

فأُرسِل بهذه؛ وهي الإنذار من الشرك والمخالفات لله جل وعلا.

فهذا مثال واضح، ولكن بعض الناس ينكرون ذلك ويقولون: كيف يكون نبيًّا، ولا يأتي بأمر ولا نهي، ما الفائدة من كونه يُنبَّأ؟

وهذا الإنكار غير صحيح.

فهذا هو الصواب من أقوال العلماء، والفرق بين النبوة والرسالة: أن الرسول لا بد أن يُرسَل إلى قوم كافرين، وأما النبي فيُنبَّأ في أمة مسلمة.

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في بدء الوحي، كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ؟ (١/ ٧) برقم (٣)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١/ ١٣٩) برقم (١٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (٣/ ٢٣ ـ ٢٤).

(٣) أخرجه بنحوه البخاري في صحيحه، في كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾ [المدثر: ٣] (٦/ ١٦٢) برقم (٤٩٢٤)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١/ ١٤٣) برقم (١٦١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.



[قال رَحِمَهُ اللهُ]: «ويَعرِفونَ ربَّهُم عَزَّ وَجَلَّ بِصِفَاتِه الَّتي نَطَقَ بها وَحيُهُ وتَنزيلُه».

الشَّرح

أي: الكِتابُ والسُّنَّة.

❁ ❁ ❁

[قال رَحِمَهُ اللَّهُ]: «أو شَهِدَ لَهُ بِهَا رَسُولُه ﷺ».

الشَّرح

هذا شِبه تَكرار؛ لأن الرسول ﷺ لا ينطق عن الهوى، وإذا تكلم بشيء فهو وحي من عند الله جَلَّ وَعَلَا.

ومعرفة الله لا تقتصر على صفاته فقط، بل بأفعاله ومخلوقاته.

فالمخلوقات التي يشاهدها من له عقل تدل على أن لها خالقًا مصرِّفًا مدبِّرًا.

وهذا أمر واضح لا يُنكَر؛ فالحَدَث لا بد له من مُحدِث، وهذا أمر جُبِل عليه كل مخلوق؛ فتجد الطفل الصغير لو ضربه إنسان فبكى، وقلت له: اسكت، لم يضربك أحد! لا يقتنع؛ فالحدث لا بد له من مُحدِث، فإذا قلتَ له: سوف أضرب من ضربَك، تجده يقتنع بهذا؛ فالخلق يدل على أن له خالقًا.

هل يمكن أن نقول: إننا وجدنا سيارة خرجت من الجبل؟ هل هذا صحيح؟!

هذا لا يمكن أبدًا، وهو أمر لا يُقبَل؛ ولهذا يذكر الله جَلَّ وَعَلَا ـ عند احتجاجه على عباده بوجوب عبادته ـ إقرارهم بخلق السموات والأرض؛ لأن السموات والأرض هي أكبر المخلوقات المشاهَدة.

قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ﴾ [البقرة: ٢١ ـ ٢٢]. ولهذا السبب قال كثير من العلماء: لا عذر لأحد في الشرك، سواء أتى رسولٌ أو لم يأتِ؛ لأن المخلوقاتِ المشاهَدةَ، وخَلْقَ الأنفُس وغيرها: يدل على وجوب عبادة الله جَلَّ وَعَلَا؛ ولهذا صار الشرك من أسوأ

الأعمال، وصاحبُه مخلَّد في جهنم إذا مات عليه. نعوذ بالله من ذلك.

وكما قالوا: إنه لا يلزم أن يكون الإنسان عارفًا بالأمور الضرورية.

فلا حجة لأحد في عبادة الشجر والحَجَر والبَشَر، وغير ذلك؛ ولهذا إذا قالت لهم الرسل: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٢ ـ ٥٣] هذه هي حجتهم!

وكذلك قَتْلُ النفوس بلا حق، وأخذ أموال الناس بلا حق، وانتهاك أعراض الناس، وغير ذلك من الأمور الظاهرة التي لا عذر لأحد فيها؛ فلا يُقبَل من أحد أن يقول: لم يبلُغْني الأمر والنهي؛ فهذا يُدرَك بالعقل، وبالوضع، وبالإجماع على ذلك، وبالفطرة على تحريم هذا؛ فهو أمر ظاهر جدًّا.

يقول العلماء: كل ما عُرِف من دين الإسلام بالضرورة، فإنه لا عذر لأحد في مخالفته.

فالمقصود: أن معرفة الله ﷻ تكون بمخلوقاته وبآياته؛ مثل: الليل والنهار، والرياح، والأمطار والسحاب، والخلق والإماتة، وغير ذلك. هذه كلها تصرفات لله ﷻ.

ولكن قد يألفون شيئًا فلا يفكِّرون فيه؛ قال الله ﷻ: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]. فهل يمكن إحصاء عدد بني آدم منذ أن أنزل الله آدم إلى الأرض إلى الآن؟!

هذا غير ممكن.

ولو جُمع بنو آدم كلهم فلن تجد منهم اثنين يتماثلان تمامًا في الصورة، والصوت، والتصرفات، والاتجاهات، والاعتقادات، وغير ذلك.

أليست هذه آيةً عظيمة؟!

[قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «على مَا وَرَدَتِ الأخبَارُ الصِّحاحُ بِه، وَنَقَلتِ العُدُولُ الثِّقاتُ عَنه».

الشَّرح

أعظم ما ثبت في هذا: كتاب الله، وهو الحُجَّة القائمة على الخلق كله، ولا يشك أحد في ثبوته، ومن شك فيه فهو غير مسلم، وثبوته قطعي متواتر، وهذا هو معنى حفظ الله له؛ فإن الله تولى حفظه، فكتبه الصحابة وحفظوه، ولما أرادوا أن يسجِّلوه في المصاحف لم يكتبوا إلا ما كان مكتوبًا في العَرْضة الأخيرة؛ لأن جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان يعارض الرسولَ ﷺ القرآنَ في كل سنة في رمضان، وفي السنة التي توفِّي فيها عارضه مرَّتين[(١)].

وكان الرسولُ ﷺ كلما نزلت آية قال: اكتبوها في مكان كذا، فتُكتَب. ولهذا فإن الكتابة ليست واحدة، وإنما هي كتابات كثيرة.

وفي زمن أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كان حَفَظة القرآن يتسابقون إلى الموت؛ فقد قُتِل في وقعة اليمامة ـ التي حدثت بين الصحابة ومُسيلِمةَ ـ سبعون حافظًا، فخَشِيَ الصحابة أن يضيع شيء من كتاب الله؛ فجمعوه في مصحف واحد.

وفي زمن عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كَثُرت الفتوحات، ودخل الناس في الإسلام من الأعجمين وغيرهم، فصار الصحابة يُعلِّمون الناس القرآن، فصار كل

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٤/ ٢٠٤) برقم (٣٦٢٤)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الفضائل، باب فضائل فاطمة بنت النبي عليها الصلاة والسلام (٤/ ١٩٠٤) برقم (٢٤٥٠) من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

من تعلَّم على أحد الصحابة وخالفه الآخر، يقول: أنا حفظت عن فلان، وهو أحفظ من فلان، فوقع خلاف؛ لأنهم حفظوه بالحروف السبعة التي أمر الرسول ﷺ أن يُقرَأ بها؛ ولذلك ذهب حذيفة رضي الله عنه إلى عثمان رضي الله عنه، وقال: أدرِكِ الأمَّةَ قبل أن تختلف في كتاب الله؛ فإني وجدتهم كذا وكذا[(١)].

فأخذ المصاحف وجمعها وأمر أن تُكتَب بلغة قريش، وقال: إذا اختلفتم في شيء فارجعوا إليه. فما اختلفوا إلا في لفظتين فقط، فعند ذلك كتب سبعة مصاحف، وأرسل لكل مصرٍ مُصحفًا، وأبقى لديه واحدًا؛ ولهذا يقال: الرسم العثماني أو المصحف العثماني؛ نسبةً إلى هذه الجَمْعة الأخيرة، وهذا من أفضل أعمال الخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه؛ ولذلك صاروا كلهم يقرؤون بحرف واحد.

أما القراءات السبع، أو العشر، أو الأربعة عشر، أو الأكثر؛ فهذه كلها بحرف واحد.

---

(١) إشارة إلى ما أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن: (٦/ ١٨٣) برقم (٤٩٨٧)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أَنَّ حُذَيْفَةَ بْنَ اليَمَانِ قَدِمَ عَلَى عُثْمَانَ وَكَانَ يُغَازِي أَهْلَ الشَّأْمِ فِي فَتْحِ أَرْمِينِيَةَ وَأَذْرِبِيجَانَ مَعَ أَهْلِ العِرَاقِ، فَأَفْزَعَ حُذَيْفَةَ اخْتِلَافُهُمْ فِي القِرَاءَةِ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ لِعُثْمَانَ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، أَدْرِكْ هَذِهِ الأُمَّةَ قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِفُوا فِي الكِتَابِ اخْتِلَافَ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى. فَأَرْسَلَ عُثْمَانُ إِلَى حَفْصَةَ: أَنْ أَرْسِلِي إِلَيْنَا بِالصُّحُفِ نَنْسَخُهَا فِي المَصَاحِفِ، ثُمَّ نَرُدُّهَا إِلَيْكِ. فَأَرْسَلَتْ بِهَا حَفْصَةُ إِلَى عُثْمَانَ، فَأَمَرَ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ، وَعَبْدَ اللهِ بْنَ الزُّبَيْرِ، وَسَعِيدَ بْنَ العَاصِ، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، فَنَسَخُوهَا فِي المَصَاحِفِ. وَقَالَ عُثْمَانُ لِلرَّهْطِ القُرَشِيِّينَ الثَّلَاثَةِ: إِذَا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فِي شَيْءٍ مِنَ القُرْآنِ فَاكْتُبُوهُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ؛ فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ. فَفَعَلُوا حَتَّى إِذَا نَسَخُوا الصُّحُفَ فِي المَصَاحِفِ رَدَّ عُثْمَانُ الصُّحُفَ إِلَى حَفْصَةَ، وَأَرْسَلَ إِلَى كُلِّ أُفُقٍ بِمُصْحَفٍ مِمَّا نَسَخُوا، وَأَمَرَ بِمَا سِوَاهُ مِنَ القُرْآنِ فِي كُلِّ صَحِيفَةٍ أَوْ مُصْحَفٍ أَنْ يُحْرَقَ.



[قال رَحِمَهُ اللَّهُ]: «وَيُثْبِتُونَ لَهُ جَلَّ جَلَالُهُ منها مَا أَثْبَتَهُ لِنفْسِه في كِتَابِه، وعلى لِسَانِ رَسُولِه، وَلا يَعتَقِدُون تَشْبِيهًا لِصِفَاتِه بِصِفَاتِ خَلْقِه».

الشَّرح

قسَّم العلماء التشبيه إلى قسمين:

القسم الأول: تشبيه قليل، وهو تشبيه الرب جَلَّ جَلَالُهُ بالمخلوق.

ولا توجد طائفة بعينها لها كُتُب وأئمة وعلماء تُسمَّى «المشَبِّهة».

وقد صار التشبيه بهذا المعنى نسبيًّا، والمقصود بكونه نسبيًّا أن كل من أثبت ما نفاه غيره سماه مشبِّهًا؛ فالجهميَّةُ تسمِّي المعتَزِلةَ مُشبِّهةً؛ لأنهم أثبتوا الأسماء، والمعتزلةُ تسمِّي الأشاعرة مُشبِّهة؛ لأنهم أثبتوا بعض الصفات، والأشاعرةُ تسمِّي أهل السُّنَّة مُشبِّهة، وهكذا.

فكل من خالفه فيما يعتقده نسبه إلى التشبيه؛ فكَثُر الاتهام بالتشبيه مع كونه يجب أن يحقَّق؛ لأن كلمة تشبيه فيها إجمال. ولما قيل للإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ في الفتنة: لا نتركك حتى تقول: إن الله لا شبيه له بوجه من الوجوه. أبى أن يقول هذا؛ لأن المعَطِّلة سموا إثباتَ الصفات تشبيهًا، وهذا هو ما قصدوه؛ فهم يسمُّون إثبات اليدين لله، وإثبات الوجه، وإثبات الرِّجلين، وإثبات الاستواء: تشبيهًا[(١)]!

ولم يُذكر التشبيه في كتاب الله؛ فلا توجد آية في كتاب الله فيها كلمة تشبيه.

ولم يذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ التشبيه في كتابه «الواسطية»[(٢)]، لكنه ذكر التمثيل لوروده في القرآن.

---

(١) ينظر: بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٢/ ٣٢٤).

(٢) العقيدة الواسطية لابن تيمية (ص٥٧).

والتشبيه نسبي كما ذكرنا؛ فالجهمية والمعتزلة يسمون من يثبتون الصفات على ظاهرها مشبِّهةً، ويقصدون بذلك أصحاب الحديث وغيرهم ممن يثبت صفات الله، ويرمونهم بالتشبيه!

كما أن بعضهم يرمي بعضًا بالتشبيه؛ الكُلَّابية الذين يثبتون بعض الصفات ويتأوَّلون أكثرها، وقد سماهم المعتزلة مشبِّهة.

وكذلك الأشاعرة الذين أثبتوا سبع صفات، فسماهم المعتزلة مُشبِّهة.

أما الكَرَّامية فهم الذين يُرمَون بالتشبيه، كما يقول أصحاب المقالات.

والكَرَّامية ليس لهم كتب وليس لهم أئمة يوجَّه إليها، فمذهبهم يؤخذ من الذين ردوا عليهم فقط، ومعروفٌ أن هذا فيه ما فيه؛ لأن الردود قد يكون فيها مبالغات؛ ولهذا رُمي مقاتل بن سليمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالتشبيه، وقد طُبع تفسير مقاتل بن سليمان، وليس فيه حرف واحد يدل على التشبيه! ولهذا يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أظن رميه بالتشبيه ليس صحيحًا[1]، وهو مكذوب عليه.

فالمقصود: أن كلمة تشبيه صارت ـ كما يقال ـ تنتشر وفقًا لعقيدة القائل.

القسم الثاني من معاني التشبيه: هو تشبيه المخلوق بالخالق، وهو كثير في الأمة؛ فكثير ممن يدَّعون الإسلام يجعلون المخلوق

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «منهاج السنة النبوية» (٢/٦١٨ ـ ٦١٩): «... والأشعري ينقل هذه المقالات من كتب المعتزلة، وفيهم انحراف على مقاتل بن سليمان؛ فلعلهم زادوا في النقل عنه، أو نقلوا عنه، أو نقلوا عن غير ثقة، وإلا فما أظنه يصل إلى هذا الحد، وقد قال الشافعي: من أراد التفسير فهو عيال على مقاتل، ومن أراد الفقه فهو عيال على أبي حنيفة». اهـ

بمنزلة الله ﷻ، ويَدْعونه، ويسألونه، ويتضرعون إليه في الملِمّات والمهمات والأمور التي يطلبونها منه، ويجعلون له أعمالًا من التي لا يجوز أن تكون إلا لله!

وهذا لا يجوز أن يكون للمخلوق، فهذا تشبيه للمخلوق بالخالق، وهو الشرك في العبادة، وهو الذي كان عليه المشركون القدامى.

وقوله: «وَلا يَعتَقِدُون تَشْبِيهًا لِصِفَاتِه بِصِفَاتِ خَلْقِه».

الاعتقاد: هو علم القلب، وهو أن يَعقِد الإنسانُ عَزْمَه وتصميمه عليه، وقد تكون العقيدة صحيحة، وقد تكون باطلة.

يعني: الذين لا يعقدون قلوبهم وإيمانهم وعزمهم على شيء من الباطل، كتشبيه صفات الله بصفات خلقه.

ومن المعلوم أنه لا يجوز أن يكون هناك مشابهة بين الله ﷻ وبين خلقه، تعالى الله وتقدس؛ فكيف تكون مشابَهةٌ بين القويِّ العزيز الكبير الأعلى الذي لا شيء أكبر منه، وبين المخلوق الضعيف الذي لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا؟! ولكن هؤلاء لا يعقلون، فجعلوا مجرد التسمية مشابَهة، مع أن مجرد التسمية والاشتراك في المعنى العام لا يقتضي تشبيهًا؛ لأننا إذا أضفنا الشبه أو المثل أو المعنى، زال هذا الاشتراك نهائيًّا، وأصبح يخُصُّ المضاف إليه. ولو أمعن الإنسان في هذا لوجد هذا أيضًا في المخلوقين؛ فإذا كانوا يتشابهون في الخلق وفي كثير من الأمور، لكنهم يختلفون فيما يخصهم، فكل من يخصه شيء لا يشاركه الآخر فيه. والفرق بين الخالق والمخلوق من أكبر الأشياء وأوضحها، ومن أعظم الضلال اشتباه الأمر على الإنسان في هذا!



❁ [قال رَحِمَهُ اللَّهُ]: «**فيقولون: إنَّه خلَقَ آدمَ بيَدِهِ، كَمَا نَصَّ سُبْحَانَهُ عليهِ في قوله عزَّ مِن قائِل:** ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: ٧٥]».

❁ الشَّرح ❁

يثبتون لله يدًا حقيقة، يَقبِض بها ويَبسُط، ولليد أصابع كما ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة، والله ﷻ يقول: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

فهذا بيان واضح في أن اليد حقيقية، وأنه يقبض بها ويطوي بها ما يشاء، وأن إحدى يديه يمين، والأخرى شمال، كما ثبت ذلك عن رسول الله ﷺ في «صحيح مسلم» عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ «**يَطْوِي اللهُ ﷻ السَّمَوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ! أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الْأَرَضِينَ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ! أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟**»(١).

أما دعوى من ادعى أن هذا الحديث حسب هذا اللفظ شاذ، فغير صحيح، بل قد ثبت هذا عن رسول الله ﷺ، وثبت عن صحابته رضوان الله عليهم.

أما الاعتلال بقوله ﷺ: «**كِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ**»(٢) فليس معنى ذلك أن

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب صفة القيامة والجنة والنار (٤/٢١٤٨) برقم (٢٧٨٨).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الإمارة، باب فضيلة الأمير العادل وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية، والنهي عن إدخال المشقة عليهم (٣/١٤٥٨) برقم (١٨٢٧) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

كلتا يدي ربي من جهة واحدة، تعالى الله وتقدس؛ فإن هذا شُوهة، تعالى الله عن ذلك، وإنما معناه أن كلتا يدي ربي كاملة تامة، لا يلحقها نقص كما يلحق يد المخلوق؛ إذ الشمال أنقص من اليمين في المخلوق.

فيجب أن ننزه ربنا ﷻ عن الظنون الكاذبة التي تُبنى على عقائد فاسدة.

روى الإمام الطبري في تفسير هذه الآية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إن الله يقبض سمواته وأراضيه بيده اليمنى، وتبقى يده الشمال فارغة، وإنما يستعين بيده الشمال من كانت يمينه مشغولة»[1]. هل يقال هذا بالرأي؟!

لا يمكن أبدًا وقطعًا؛ فإن ابن عباس رضي الله عنهما تلقى ذلك عن رسول الله ﷺ وعن صحابته.

وقد ذكر اليد مُفردةً ومُثنَّاة ومجموعةً في كتاب الله ﷻ: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، وقوله ﷻ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤].

ويقصدون بقولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أنه بخيل! قاتلهم الله ولعنهم! فوصفوا ربهم بما هو من أخلاقهم، فقال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ وهذا جواب لهم، أي: مبسوطتان بالعطاء؛ ولهذا يقول الرسول ﷺ: «**يَدُ اللهِ مَلْأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ، وَقَالَ: عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ، وَبِيَدِهِ الأُخْرَى المِيزَانُ، يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ**»[2].

وذكرت اليد مجموعةً في آيات متعددة، وقد جاء الجمع والإفراد على الأسلوب العربي الرفيع البليغ.

---

(١) تفسير الطبري (٢١/ ٣٢٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾. (٩/ ١٢٢) برقم (٧٤١١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «ولا يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عن مَوَاضِعِه».

الشَرح

ينقسم التحريف إلى قسمين:

القسم الأول: تحريف لفظي.

القسم الثاني: تحريف معنوي.

أما تحريف اللفظ: فهذا ممتنع في كتاب الله، وقد حاول بعضُ الجهمية أن يقرأ قوله عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤] بنصب كلمة «الله»؛ ليكون المتكلم هو موسى، فلما أمر أحد القُراء أن يقرأ به، قال له القارئ: كيف تصنع بقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣]؟! فبُهِتَ[(١)].

وفي زمن المأمون كتبوا على ستار الكعبة (ليس كمثله شيءٌ وهو العزيز الحكيم)[(٢)]، وهذا تحريف لفظي، لكن لا تجد مسلمًا يقرأ بهذا التحريف، فقد حفظ الله كتابه من التحريف.

وأما التحريف المعنوي: وهو صرف اللفظ عن معناه المراد إلى معنًى لم يُرِدْه المتكلم، فهو كثير جدًّا في كتاب الله وفي أحاديث رسوله؛ فقد تسلطوا على المعاني وحرَّفوها.

---

(١) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٣/ ٣٠٣).

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (١١/ ٤٧٩): «وكان أولئك الجهمية المعَطِّلة قد بلغ من تبديلهم للدين أنهم كانوا يكتبون على ستور الكعبة: ليس كمثله شيء وهو العزيز الحكيم! ولا يقولون: وهو السميع البصير. وأنهم كانوا يمتحنون الناس بقوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾، فإذا قالوا: وهو السميع البصير، أنكروا عليهم!» اهـ

ولو تأملت كلام المفسرين الذين يتَّبعون المذاهب الأخرى؛ مثل: الأشاعرة وغيرهم، تجده مملوءًا بالتحريف، فيقولون مثلًا:

اليدان: النعمتان، أو القوتان.

والرحمة: الإحسان، أو إرادة الإحسان.

والغضب: الانتقام، أو إرادة الانتقام.

وهذا تحريف باطل، ولو كُلف إنسان أن يأتيَ بحرف واحد عن الصحابة، فضلًا أن يكون عن الرسول ﷺ؛ لم يجد إلى ذلك سبيلًا؛ وما استطاع أن يجد ولو في الأحاديث الضعيفة؛ ولهذا قال: «**ولا يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عن مَوَاضِعِهِ**»، أي: المواضع التي وضعها المتكلم.



[قال رحمه الله]: «بِحَمْلِ اليَدَيْنِ على النِّعْمَتَيْنِ أو القُوَّتَيْنِ».

الشرح

هذا مثال للتحريف.



[قال رَحِمَهُ اللَّهُ]: «تَحْرِيفَ المُعتَزِلَةِ والجَهْمِيَّةِ أهلَكَهُمُ اللّهُ».

الشَّرح

ومن سلك مسلكهم، كالأشاعرة، وهم أكثر الناس تحريفًا في هذا؛ لأن الأشاعرة انتشروا في البلاد الإسلامية، وزعموا أنهم هم أهل السُّنَّة، وصار لهم مدارس، وصار منهم أئمة، وقضاة، وقادة؛ فامتلأت الأرض بكتبهم المملوءة بالتحريف من هذا النوع.

أما المعتزلة فقد أهلكهم الله ﷻ، وأهلك كتُبَهم، ولكن هؤلاء الكَفَرة ـ الذين يُسَمَّون المستشرقين ـ لما درسوا مذهب المعتزلة عرفوا أنه لا يمكن أن تؤتى الأمة إلا بمثل هذه المذاهب؛ هو الذي يمكن أن يمزِّق الأمة الإسلامية؛ فصاروا يُثنون على المعتزلة ويقولون: هذه هي المدرسة الفكرية الحرة التي ينبغي أن تنتشر! فصار تلاميذُهم من جِلْدتنا وأبنائنا الذين تربوا على أيديهم وأخذوا عنهم، يبحثون عن كتب المعتزلة، فإذا وجدوها حققوها ونشروها؛ فانتشرت الآن، واعتنق هذا المذهبَ من اعتنقه، ولكن بأسماء أخرى؛ مثل: العقلانية، أو العلمانية، أو ما أشبه ذلك. والأسماء لا تغيِّر المعانيَ؛ ولهذا نقول: إنهم موجودون بهذه الأسماء.

وقوله: «تَحْرِيفَ المُعتَزِلَةِ والجَهْمِيَّة...».

المعتزلة: طائفة من المسلمين المنحرفين، وهم أهل الوعيد؛ فقد تُوُعِّدوا بأنهم في النار، وهم أتباع واصل بن عطاء؛ تلميذ الحسن البصري.

وقد جاء في سبب التسمية: أن الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ كان في المسجد؛ في حلقة العلم، فجاءه من يسأله عن حكم من فعل المعاصي كالزنا والسرقة: هل هو مسلم أم كافر؟

وكان واصل بن عطاء في الحلقة فقال: إنه ليس مسلمًا ولا كافرًا، خرج من الإسلام ولم يدخل في الكفر! واعتزل الحسن[١].

وصار يقرر هذا المبدأ، ثم صار له أتباع؛ منهم عمرو بن عبيد الذي كان مشهورًا بالزهد والتقشف، ثم كثروا، وجعلوا لهم خمسة أصول وسمَّوها أصول الإسلام، وهي غير أصول الإسلام التي عليها المسلمون.

أما الجهمية: فقد كانوا قَبْلَهم، وهم نسبة إلى الجهم بن صفوان الترمذي الضال المضِل، وهو تلميذ الجعد بن درهم الذي يُشَكُّ في كونه يهوديًّا؛ إذ يقال: إن شيخه هو أبان بن سمعان، وأبان بن سمعان هو ابن أخت لَبِيد بن الأعصم اليهودي الساحر الذي سحر رسولَ الله ﷺ[٢].

وذلك أن الإسلام لما انتشر وصار له قوة، لم يستطع الكفار من المجوس والروم والهنود وغيرهم الوقوفَ في وجه جيوشه التي تفتح البلاد، وتفتح القلوب؛ فلجؤوا إلى الحِيَل، فدخلوا الإسلام في الظاهر، وهم في الباطن كَفَرة يريدون تمزيق الإسلام، فصاروا يُكَوِّنون مؤسَّسات وجماعات، وينظرون الذي يمكن أن يُضعِف المسلمين، فرأوا أنه يكمن في عقيدتهم في الله، فقال الجعد بن درهم: لا يجوز أن نقول: إن الله يحبُّ أحدًا؛ لأن الحب يدل على الضعف وعلى الحاجة، ولا يجوز أن نقول: إنه يتخذ أحدًا خليلًا؛ لأن الخُلَّةَ غايةُ الحب!

وصار ينشر هذا الكلام، فلما سمع ذلك خالد بن عبد الله القسري رحمه الله، وهو أحد قواد الجيوش في بني أمية، بحث عنه حتى أمسكه فقيَّده، فلما كان يومُ العيد جاء به مقيَّدًا إلى المصلى، ووضعه

---

(١) الملل والنحل (١/ ٤٨).

(٢) الرد على الجهمية والزنادقة (ص: ٩)، مجموع الفتاوى (٥/ ٢٠).

أمام الناس بقيَدْه، وقام يخطب في الناس، وفي النهاية قال: أيها المسلمون، ضَحُّوا، تقَبَّل اللهُ ضحاياكم، فإنِّي مُضَحٍّ بالجعد بن دِرهَم؛ لأنه زعم أن الله لم يكلِّمْ موسى تكليمًا، ولم يتخذ إبراهيم خليلًا(١)!

فذبحه في المصلى؛ فشكره العلماء على هذا وأثنوا عليه.

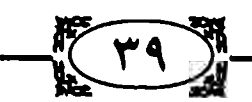
وكان للجعد تلميذ اسمه الجهم بن صفوان، ففر وذهب إلى الشرق، وصار مع الذين خرجوا على الدولة، فظَفِر به أحد قادة الجيوش، وهو سلم بن أحوز، فقيَّده يريد قَتله، وقد حاول كثير من الناس أن يشفعوا له، فلما أكثروا عليه، قال: اسمعوا، والله لو كان هذا الرجل في بطني لشققته حتى أقتله؛ لأني سمعت منه كلامًا لا يمكن أن أتركه في الله ﷻ، فقتله(٢).

ولكن المذهب لم يمُتْ، بل انتشر وكثر، وصار أتباعه فيما بعد مقَرَّبين إلى الخليفة؛ لأنهم تولوا تعلميه وتدريسه؛ مثل: بشر المِرِّيسي، وأحمد بن أبي دؤاد، فتولوا القضاء والمناصب، وأرغموا الناس على القول بخلق القرآن ونفي الصفات، فصارت فتنة عظيمة؛ لأن المأمون اعتنق هذا المذهب، وقد قُتل من العلماء من قُتل، وسُجِن من سُجِن، حتى كشف الله ﷻ هذه البَلِيَّة، ولكن آثارها لا تزال إلى الآن؛ فخرج من هذا المذهب طوائف؛ منهم: الأشاعرة، والماتُريدية، وغيرهم، ولله في ذلك حكمة؛ فأهل السُّنَّة يجتنبون هذه المذاهب الخبيثة، ويرون أنها باطلة، ويحذِّرون منها.



(١) الرد على الجهمية للدارمي (ص: ٢١٠)، البداية والنهاية (١٠/ ٢٢).

(٢) تاريخ الطبري (٧/ ٣٣٥).



[قال رَحِمَهُ اللَّهُ]: «وَلَا يُكَيِّفونهما بِكَيْفٍ»

الشَّرح

المراد بالتكييف: معرفة الكيفية، والكيفية: هي الحالة التي عليها الموصوف، والعلم بها ممتنع بالنسبة للخلق.

وليس معنى ذلك أنه ليس له كيفية، فهذا ليس مرادًا، وإنما المراد بنفي الكيفية: نفي العلم بها؛ لأنها **تتوقف على أمرين**:

أحدهما: المشاهدة، وهذه لا وجود لها؛ لأن الله ﷻ لا يُشاهَد حتى يقال: إنه على كيفية كذا وكذا!، ولا يُحاط به تعالى.

الثاني: أن يكون أقل من المشاهدة، وهي أن يكون له مثيل وشبيه يُقاس عليه. وهذا أيضًا لا وجود له، بل ممتنع.

وبهذا تصبح الكيفية ممتنعة بالنسبة للخلق.

ولا يُقصَد بنفي الكيفية نفيُها عن الله مطلقًا، وإنما علمها؛ نفيُها عن المخلوق.





[قال رَحِمَهُ اللَّهُ]: «أو يُشَبِّهونهما بأيدي المخلُوقِينَ تَشْبيهَ المشبِّهَةِ خَذَلهمُ اللّٰهُ».

الشَّرح

تعالى الله وتقدس.

❁ ❁ ❁

[قال رَحِمَهُ اللَّهُ]: «وَقدْ أعَاذَ اللّهُ تَعَالَى أهْلَ السُّنَّة مِنَ التَّحرِيفِ، والتَّشْبيهِ، والتَّكييفِ».

الشَرح

قد عرفنا التحريف والتكييف، أما التشبيه فظاهر.



۞ [قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «وَمَنَّ عَليهم بالتَّعرِيفِ والتَّفْهِيمِ».



التَّعرِيف يعني: العلم.

أي: منَّ عليهم بالمعرفة، والتفهيم، أي: فهم مراد ربهم جَلَّ وَعَلَا، ومراد رسولهم ﷺ، ووضعوا الكلام في مواضعه.

۞ ۞ ۞

[قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «حَتَّى سَلَكُوا سَبِيلَ التَّوحِيدِ والتَّنزِيهِ».

الشَـرح

أي: أن الله جل وعلا لا يشبهه شيء في ذاته، وأوصافه، وأفعاله، تعالى الله وتقدس.

والمراد بالتنزيه: تنزيه الله جل وعلا عن أن يكون مشابهًا للمخلوقات، أو أن يَلحَقه شيء من الناقصات، تعالى الله وتقدس.



[قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «وتَرَكُوا القَولَ بالتَّعْليلِ والتَّشْبيهِ».



الشَّرح

أما التعليل فالمقصود به التعليل الذي يكون علة للتحريف، وليس المقصود به نفي الحكم؛ فإن أهل السُّنَّة يقولون بأن الله ﷻ يفعل الأفعال لحكمة بالغة، سبحان الله وتعالى.

❁ ❁ ❁

❁ [قال رحمه الله]: «واتبعوا قول الله عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]».

الشرح

قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾ [الشورى: ١١].

نفيٌ لأن يكون له مثيل في ذاته، وأوصافه، وأفعاله.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

إثبات للصفات.

وقد نص على السمع والبصر؛ لأن السمع والبصر موجودان في المخلوقات، وهو جل وعلا يقول: إن سمعي وبصري يخصَّاني، ولا يشاركني من كان له سمع وبصر من المخلوقات، تعالى الله وتقدس.



[قال رَحِمَهُ اللَّهُ]: «وكما ورد القرآن بذكر اليدَيْن في قوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، وقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

ووردت الأخبَار الصِّحاح عن رسُول الله ﷺ بِذِكر اليد؛ كخبر مُحاجَّة موسى آدمَ[١].

وقوله له: «خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته»[٢].

ومثل قوله: «لا أجعَلُ صالحَ ذرية من خلقتُه بيديَّ، كمن قلتُ له: كن؛ فكان»[٣]، وقوله ﷺ «خلق الله الفردوس بيدِه»[٤]

---

(١) إشارة إلى ما أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب القدر، باب تحاج آدم وموسى عند الله (٨/ ١٢٦) برقم (٦٦١٤)، ومسلم في صحيحه، في كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ (٤/ ٢٠٤٣) برقم (٢٦٥٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عِنْدَ رَبِّهِمَا، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، قَالَ مُوسَى: أَنْتَ آدَمُ الَّذِي خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، وَأَسْكَنَكَ فِي جَنَّتِهِ، ثُمَّ أَهْبَطْتَ النَّاسَ بِخَطِيئَتِكَ إِلَى الْأَرْضِ؟! فَقَالَ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ وَأَعْطَاكَ الْأَلْوَاحَ فِيهَا تِبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ وَقَرَّبَكَ نَجِيًّا، فَبِكَمْ وَجَدْتَ اللهَ كَتَبَ التَّوْرَاةَ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ؟! قَالَ مُوسَى: بِأَرْبَعِينَ عَامًا. قَالَ آدَمُ: فَهَلْ وَجَدْتَ فِيهَا: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾؟! قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: أَفَتَلُومُنِي عَلَى أَنْ عَمِلْتُ عَمَلًا كَتَبَهُ اللهُ عَلَيَّ أَنْ أَعْمَلَهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟!».

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٦/ ١٩٦) برقم (٦١٧٣) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (١/ ٨٢): رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه إبراهيم بن عبد الله بن خالد المصيصي، وهو كذاب متروك، وفي سند الأوسط طلحة بن زيد، وهو كذاب أيضًا.

(٤) أخرجه الخرائطي في مساوئ الأخلاق (ص: ١٩٨) برقم (٤١٠)، وأبو الشيخ الأصبهاني في العظمة (٥/ ١٥٥٥)، وأبو نعيم الأصبهاني في صفة الجنة (١/ ٤٨) برقم (٢٣)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ١٢٥) برقم (٦٩٢)، قال البيهقي: حديث مرسل.

الشَّرح

التثنية من أبلغ الأدلة أن لله يدين، وقد جاءت في الأحاديث نصوص أبلغ من هذا، وهي ذكر أصابع رب العالمين، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: جاء حبرٌ من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إنا نجد: «**أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلَائِقِ عَلَى إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا المَلِكُ! فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ؛ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:** ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾»[1].

قال جل وعلا: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

وقوله: «ووردت الأخبَار الصِّحاح عن رسُول الله ﷺ بِذِكر اليد كخبر مُحاجَّة موسى آدَمَ».

قد جاءت أخبار كثيرة جدًّا عن الرسول ﷺ في ذلك.

قوله: «قوله له».

أي: قول موسى عليه السلام لآدم عليه السلام.

وقوله: «خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته».

أي: أنت آدم الذي خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك جنته.

قال رسول الله ﷺ: «**احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى؛ فَقَالَ مُوسَى: يَا آدَمُ أَنْتَ**

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٩١] (٦/١٢٦) برقم (٤٨١١)، ومسلم في صحيحه، في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، (٤/٢١٤٧) برقم (٢٧٨٦).

أَبُونَا خَيَّبْتَنَا وَأَخْرَجْتَنَا مِنَ الْجَنَّةِ! فَقَالَ لَهُ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى، اصْطَفَاكَ اللهُ بِكَلَامِهِ، وَخَطَّ لَكَ التوراة بِيَدِهِ، أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدَّرَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟!» فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى»**(١).

قوله: «وَخَطَّ لَكَ بِيَدِهِ» هذا أيضًا دليل.

قوله: «فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى» أي: غلبه بالحُجَّة.

ومعنى هذا: أن آدم عليه السلام احتج على المصيبة التي وقعت ولا حيلة فيها على أنها مُقَدَّرة مكتوبة لا يمكن الخلاصُ منها، وليس هذا احتجاجًا بالقَدَر على المعاصي؛ لأنه ليس من الممكن أن يكون موسى عليه السلام لامَ آدمَ عليه السلام على الذنب؛ لأن آدم عليه السلام تاب من الذنب، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له؛ فلا يجوز أن يُلامَ على هذا، ولو كان على ذلك لقال آدمُ: أنت قتلتَ نفسًا، لِمَ قتلْتَه؟!

ولكن آدم عليه السلام عرف أن المقصود هو الخروج من الجنة، والخروج من الجنة ترتَّب على المعصية، فموسى عليه السلام لامه على الخروج من الجنة، قال: أخرَجْتَنا ونَفْسَك من الجنة! فقال له: هذه مصيبة كُتِبَت عليَّ ووقعت، ولا حيلة لي فيها، وأنا أؤمن بما كتبه الله وقدَّره عليَّ!

ولهذا يقول العلماء: الاحتجاج بالقدر على المصائب لا على المعائب.

أما المعائب والذنوب فلها مَخرج، وهو التوبة والرجوع.

ولكن لا ينبغي للإنسان أن يعمل الذنب ويقول: هذا قَدَر!

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب القدر، باب تحاج آدم وموسى عند الله (٨/ ١٢٦) برقم (٦٦١٤)، ومسلم في صحيحه، في كتاب القدر، (٤/ ٢٠٤٢) برقم (٢٦٥٢) من حديث أبي هريرة.

فهذا لوم للقدر وتبرير للاستمرار على الذنب، وهو أسوأ مِن فِعْله، كما قال المشركون: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزخرف: ٢٠].

فقد احتجوا بمشيئة الله العامة الشاملة على أنها لا يفوتها شيء، وإنما يقولون: إن شركنا بمشيئة الله، وهو دليل على الرضا، وأنت تأمرنا بخلاف ذلك، فنرُدُّ أمرَك!

فهم عارضوا الأمر الشرعي بالأمر القَدَري حسب زعمهم، وهذا باطل.



﴿ [قال رَحِمَهُ اللَّهُ]: «وكَذَلِكَ يَقُولُونَ في جَمِيعِ الصِّفَاتِ التي نَزَلَ بِذِكْرِهَا القُرآنُ، وَوَرَدَتْ بِهَا الأخبَارُ الصِّحَاحُ؛ مِنَ السَّمْعِ، والبَصَرِ، والعَينِ، والوَجهِ، والعِلمِ، والقُوَّةِ، والقُدرةِ، والعِزَّةِ، والعَظمَةِ، والإرَادَةِ، والمشِيئَةِ، والقَولِ، والكلَامِ، والرِّضَا، والسَّخَطِ، (والحَياةِ، واليقَظةِ)، والحُبِّ، والبُغْضِ، والفَرَحِ، والضَّحِكِ، وغيرِها؛ من غير تَشْبيهٍ لِشَيء مِنْ ذَلِكَ بِصفَاتِ المَرْبُوبِينَ المخلُوقِينَ».

الشَّرح

قوله: «وكَذَلِكَ يَقُولُون في جَمِيع الصِّفَاتِ...».

هذا نهجهم الذي يسلكونه في جميع الصفات؛ لأنها على ظاهرها المفهوم من لغة العرب، ولا يُزيلون الظاهر، وهذا هو مراد المتكلم؛ لأن الكلام الذي يفهمونه بالمخاطبة هو مقصود المتكلم، وهذا شيء اتفقوا عليه.

أما التأويلات والمعاني البعيدة التي عليها أهل الباطل، فهذا حسَب ما أمْلَتْه عليهم عقائدهم، وهم لا يقولون: إن هذا مراد المتكلم، ولكن يقولون: يجوز أن يكون هذا مراده.

أما أهل السُّنَّة وأهل الحديث فيجزمون بأن هذا مراد المتكلم؛ لأن هذا نهج اطَّرَدت عليه النصوص كلها، ولا يمكن أن تَطَّرِدَ النصوص على شيء إلا وهو المقصود؛ إذ لو كان المقصود خلافَ هذا لجاء بعضها على أقل تقدير عَيَّن هذا المراد الذي يقولونه؛ من أنه النعمة أو القوة، وأن الرحمة هي الإحسان أو إرادته، وأن الغضب هو الانتقامُ أو غليانُ القلب، ثم طَلَبُ الانتقامِ، وما أشبه ذلك! فإنه لم يَرِدْ في هذا حديث لا صحيح ولا حتى حديث ضعيف، ولما لم يأتِ شيء في ذلك عُلم أن

المراد هو ظاهر اللفظ بأن اليد حقيقة، والغضب والرضا وسائر الصفات على حقيقة ما يُفهم، ولكننا لا نعلم كيفيته، وإنما هذا يخص ربنا ﷻ.

الغضب المعروف لنا بأنه غليانُ دم القلب ثم طلَبُ الانتقامِ، فهذا هو غضب المخلوق لا غضب الله ﷻ؛ فالله لا يشابه المخلوق في شيء من ذلك، ويزعمون أنهم بهذا ينفون هذه الصفات!

ومثل ذلك الرضا والسخط.

أما الحياة فأمر متفق عليه، ولعله الحياء؛ لأنه جاء أن الله يستَحِي[1]، أما الحياة فلا ينكرها أحد؛ فهي من الأمور الضرورية.

أما اليقظة فلا نعرف أنه جاء وصف الله ﷻ باليقظة، وهذا يجب أن يكون ثابتًا؛ إذ لا يجوز أن يوصف الله ﷻ إلا بما وصف به نفسه، ولعله يقصد باليقظة؛ أنه تعالى لا ينام، فهو ﷻ ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

أما الفرح والضحك فقد كثرت النصوص فيه، والله ﷻ يفرح ويضحك، ولكن ليس كفَرَحِ المخلوق وضَحِكِه، تعالى وتقدس.

قوله: «من غير تَشْبيهٍ لِشَيءٍ مِنْ ذَلِكَ بِصفَاتِ المَرْبُوبِينَ المخلُوقِينَ».

أي: أن هذا يخصه ﷻ.

ويجب أن يكون معلومًا أن ما يخص الرب ﷻ لا يشابهه فيه المخلوق ولا يشاركه فيه.



(١) إشارة إلى ما أخرجه الترمذي في «سننه»، حديث رقم (٣٥٥٦)، عن سلمان الفارسي رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ». وقال: هذا حديث حسن غريب، ورواه بعضهم ولم يرفعه.



[قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «بَلْ يَنْتَهُونَ فِيهَا إلى مَا قَالَهُ اللّٰهُ تَعَالَى وَقَالَهُ رَسُولُهُ ﷺ مِنْ غير زِيَادةٍ عليه ولا إضَافَةٍ إليه».



الشَّرح

يجب أخذ هذا، ولكن بفهم المعنى المراد.

۞ ۞ ۞

❁ [قال رَحِمَهُ اللَّهُ]: «**ولا تَكْييفٍ لَهُ، ولا تَشْبيهٍ ولا تَحْرِيفٍ، ولا تبدِيلٍ ولا تَغييرٍ**».



التَّبدِيل: قريب من التحريف، والمراد به تبديل المعاني بمعانٍ غير مرادة.

وقد يكون المقصود به تبديل حروف بحروف وكلام بكلام.

وكذلك **التَّغيير**، وهو إزالة اللفظ عما تعرفه العرب.

❁ ❁ ❁



﴿ [قال رَحِمَهُ اللَّهُ]: «ولا إزالةٍ لِلَفظِ الخَبَرِ عمَّا تَعْرِفُه العَرَبُ وتَضَعُه عليهِ، بِتَأويلٍ مُنكَرٍ يُسْتَنْكَر، ويُجْرُونه على الظاهر».

الشَّرح



يجب أن نرجع في هذا إلى اللغة التي نزل بها القرآن وتكلم بها المصطفى ﷺ، هي التي يجب أن نرجع إليها في فهم النصوص.

وهم يتكلمون أيضًا اللغة، ولكنهم يتتبَّعون غرائب اللغة.

❁ ❁ ❁

[قال رَحِمَهُ اللَّهُ]: «وَيَكِلُونَ عِلمَه إلى الله تعالى».

الشَّرح

قوله: «وَيَكِلُونَ عِلمَه إلى الله تعالى» المقصود هنا حقيقة العلم لا معنى الصفة؛ فمعنى الغضب والرضا والضحك معلوم، ويجب أن نؤمن به، أما الكيفية والحقيقة فلا نعلمها، ويجب أن تكون من خصائص الله جَلَّ وَعَلَا.



﴿ [قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «ويُقِرُّونَ بِأنَّ تَأوِيلَه لا يَعلمُهُ إلا اللّه».

الشَّرح

المراد تأويل الحقائق وليس التفسير.

ولو كان المعنى الذي خوطبنا به لا يعلمه إلا الله، فما الفائدة من خطابنا؟!

وقد ذم الله ﷻ الذين لا يفهمون القرآن ولا يتدبرونه، كما في قوله ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وقوله سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]؛ لأنه واضح وظاهر، فيتعين أن يكون المقصود بما لا يعلمه إلا الله هو الحقائق التي أخبر عنها، كما قال الله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ...﴾ الآية [الأعراف: ٥٣].



[قال رَحِمَهُ اللَّهُ]: «كَمَا أخبَرَ اللّهُ عن الرَّاسِخِينَ في العِلْمِ أنَّهُم يَقُولُونَهُ، في قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

وآياتُ الكتاب وأخبارُ الرسول ﷺ الصحيحةُ المنيرة الناطقة بهذه الصفات وغيرها: كثيرةٌ، يَطُول الكتاب بإحصائها وذِكر اتفاق أئمة المِلة وعلمائها على صحة تِلكَ الأخبار الواردة بِها، وأكثرُها مُخَرَّج بالأسانيد الصحيحة في كتاب «الانتصار»، وشرطنا في أول هذا الكتاب: الاختِصار والاقتِصار على أدنى المقدار، دون الإكثار برواية الأخبار وذِكر أسانيدها الصحيحة عند نَقَلة الآثار ومصنِّفي المسانيد الصِّحاح الكبار».

الشَّرح

ينقسم التأويل إلى قسمين:

القسم الأول: تأويل بمعنى التفسير، وهذا معلوم للعلماء.

القسم الثاني: تأويل بمعنى حقيقة الشيء، كقوله ﷻ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣] أي: تأتي الحقائق التي أخبر الله عنها. فمعنى التأويل هو الحقائق التي أخبر الله عنها ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ﴾ [الأعراف: ٥٣]. هذا يوم القيامة، فيأتي تأويله عندما يُعاينون الخبر الذي أُخبروا به ويرونه حقيقة؛ فتأويل النار دخولُها، وكذلك الجنة، والميزان، والحوض، وغير ذلك.

فحقائق الأشياء المخبر بها لا يعلمها في هذا الوقت إلا الله، فإذا

جاءت عُلمت، أما بالنسبة لصفات الله فلا يعلم حقائقها أحد، لا الآن ولا في ذلك اليوم.

وقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧] فيها **قراءتان:**

إحداهما: الوقوف عند قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧] ويكون هذا وقفًا لازمًا، ثم يُبتدأ الكلام من جديد ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ...﴾ [آل عمران: ٧]، فيكون كلامًا جديدًا لا يتعلق بالأول.

والأخرى: الوقوف على قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: أنهم يعلمون تأويله؛ أي: العلماء الراسخون في العلم.

وقد جاءت هذه القراءة عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «أَنَا مِنَ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ»(١).

ولكن يجب أن يُقصَد بهذا التفسيرُ لا الحقائق.



(١) تفسير البغوي (٢/ ١٠)، وتفسير الثعلبي (٣/ ١٤).

[قال ﵀]: «وَيَشْهَدُ أصحَابُ الحَدِيثِ ويَعتَقِدُونَ: أنَّ القُرآنَ كَلَامُ اللهِ، وكِتَابُه، ووَحيُهُ، وتَنْزِيلهُ، غيرُ مَخْلُوقٍ، ومَنْ قال بِخَلقِهِ واعتَقَدَهُ فهو كافرٌ عِندهُم.

والقُرآنُ الذِي هو كَلَامُ اللهِ ووَحيُهُ هو الذي نَزَل بِهِ جِبريل على الرَّسولِ ﷺ قرآنًا عَرَبِيًّا لقوم يعلَمُون، بشيرًا ونذيرًا، كما قال ﷻ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٥].

وهو الذي بلَّغه الرَّسولُ ﷺ أُمَّته، كما أُمِرَ به في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، فكان الذي بلغهم ـ بِأمر اللهِ تعالى ـ كَلامَه ﷻ، وفيه قال ﷺ: «أَتَمْنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلامَ رَبِّي»(١).

وهو الذي تَحفظه الصُّدورُ، وتَتْلُوهُ الألسِنةُ، ويُكتبُ في المصَاحِفِ، كيفما تَصَرَّفَ بِقِرَاءةِ قَارئٍ، ولَفْظِ لَافِظٍ، وحِفْظِ حَافِظٍ، وحيثُ تُلِيَ، وفي أيِّ مَوضِعٍ قُرِئَ، وكُتِبَ في مَصَاحِفِ أهلِ الإسلامِ، وألواحِ صِبْيَانهم، وغيرها، كُلُّهُ كَلَامُ اللهِ ﷻ، غيرُ مَخلُوقٍ، فَمَنْ زَعم أنَّه مَخْلُوقٌ، فهو كافرٌ باللهِ العظيمِ.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، في كتاب السنة، باب في القرآن (٤/ ٢٣٤) برقم (٤٧٣٤)، والترمذي في سننه، في كتاب فضائل القرآن عن رسول الله ﷺ، باب (٥/ ١٨٤) برقم (٢٩٢٥)، وابن ماجه في سننه، في كتاب الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فيما أنكرت الجهمية (١/ ٧٣) برقم (٢٠١) من حديث جابر بن عبد الله ﵁ قال: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ يَعْرِضُ نَفْسَهُ بِالْمَوْقِفِ، فَقَالَ: **«أَلَا رَجُلٌ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ؟ فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي»**.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

سمعتُ الحاكمَ أبا عبد الله الحافظَ يقولُ: سمعتُ أبا الوليدِ حسَّان بن محمدٍ يقولُ: سمعتُ الإمام أبا بكرٍ محمد بن إسحاق بن خزيمة يقولُ: «القرآنُ كلامُ اللهِ، غيرُ مَخلُوقٍ، فمن قال: إنَّ القرآنَ مَخلُوق، فهو كافرٌ بالله العظيم، لا تُقبَلُ شَهادتُهُ، ولا يُعادُ إنْ مَرِض، ولا يُصلَّى عليه إنْ ماتَ، ولا يُدفنُ في مَقَابرِ المُسلمِينَ، ويُستَتَابُ؛ فإنْ تَابَ وإلا ضُرِبَتْ عُنُقُهُ»[١].

فأمَّا اللَّفظُ بِالقُرآن، فإنَّ الشَّيخ أبا بكرٍ الإسمَاعِيلي الجرجانيَّ ذَكَرَ في رِسَالَتِهِ التي صَنَّفَهَا لأهلِ جِيْلان: «مَنْ زَعَمَ أنَّ لَفْظَهُ بِالقُرآنِ مَخلُوقٌ ـ يُرِيدُ بِهِ القُرآن ـ فقد قالَ بِخَلق القُرآن»[٢].

وَذَكَرَ ابنُ مهدي الطَّبري في كتابه «الاعتقاد» الذي صنَّفَه لأهلِ هذهِ البِلَادِ أنَّ مَذهَبَ أهلِ السُّنَّةِ والجَمَاعَةِ: القولُ بأنَّ القُرآنَ كلامُ الله سبحانه، ووَحْيُه، وتَنْزِيلُه، وأمْرُه ونَهيُه، غيرُ مَخلُوقٍ، ومن قالَ: مَخْلُوق، فهو كافرٌ باللهِ العظيمِ، وأنَّ القُرآنَ في صُدُورنَا محفوظٌ، بِألسِنَتِنَا مَقرُوءٌ، في مصاحِفِنَا مكتوبٌ، وهو الكلامُ الذي تَكَلَّمَ اللّهُ ﷻ بِهِ، ومن قال: إنَّ القُرآنَ بِلَفْظِي مخلوق، أو: لفظي به مخلوق؛ فهو جاهلٌ، ضالٌّ، كافرٌ باللهِ العظيم[٣].

وإنَّما ذكرتُ هذا الفَصل بِعَيْنِهِ من كتاب ابن مهدي؛ لاستِحْسَانِي ذلك منهُ؛ فإنَّه اتَّبعَ السَّلفَ من أصحابِ الحَدِيثِ فِيمَا ذَكرهُ، مع تَبَحُّرِهِ في عِلْمِ الكلامِ، وتَصَانِيفه الكبيرة فيه، وتَقَدُّمِه وتبرُّزِه عند أهلِه.

أخبرنا أبو عبد الله الحافظُ قال: قَرَأتُ بِخطِّ أبي عمرو المُسْتَمْلِي، قال: سمعتُ أبا عثمان سعيد بن إشكاب يقولُ: سألتُ

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٤/ ٣٧٤).
(٢) اعتقاد أئمة الحديث (ص: ٥٧).
(٣) الاعتقاد الخالص من الشك والانتقاد (ص: ١٥٧).

إسحاق بن إبراهيم عن اللفظ بالقرآن؟ فقال: لا يَنْبَغِي أن يُناظرَ في هذا! القُرآنُ كلامُ اللهِ غير مخلوق[١].

وذَكَرَ محمد بن جرير الطَّبري رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «الاعتقاد» الذي صنَّفه في هذه المسألة، وقال: أمَّا القولُ في ألفاظ العباد بِالقُرآن فلا أثرَ فيه نَعْلَمه عن صحابي، ولا تابعي، إلا عمَّن في قوله الغِنى والشِّفاء، وفي اتِّباعه الرُّشد والهُدى، ومن يقومُ قوله مقام الأئمة الأُولى: أبي عبد الله أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فإنَّ أبا إسماعيل التِّرمذي حدَّثني قال: سمعتُ أبا عبد الله أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: اللَّفظيَّة جَهْمِيَّة[٢]. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] ممَّن يَسْمَعُ؟!

قال: ثمَّ سمعتُ جماعةً من أصحابنا لا أحفظُ أسماءهم يذكرون عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه كان يقول: «من قال: لَفظِي بِالقُرآن مَخلُوق، فهو جَهميٌّ، ومن قالَ: غير مخلوق، فهو مُبْتَدِعٌ»[٣].

وقال محمد بن جرير: «ولا قولَ في ذلك عندنا يجوز أن نَقُولَه، غيرُ قَولِه؛ إذ لم يكن لنا فيه إمام نَأْتَمُّ به سِواه، وفيه الكفايةُ والمقنعُ، وهو الإمام المتَّبعُ رحمة الله عليه ورضوانه»[٤].

هذه ألفاظُ محمد بن جرير، التي نقلتها نفسها إلى ما هاهنا من كتاب «الاعتقاد» الذي صَنَّفه.

قلتُ: وهو ـ أعني محمد بن جرير ـ قد نفى عن نفسه بهذا الفصل الذي ذَكَرَهُ في كتابه كلَّ ما نُسِبَ إليه، وقُذِف به من عُدُولٍ عن سبيلِ السُّنَّة، أو ميلٍ إلى شيءٍ من البِدعَة.

---

(١) الاعتقاد الخالص من الشك والانتقاد (ص: ١٥٧).
(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٢/ ٣٩٢).
(٣) مسائل الإمام أحمد رواية أبي داود السجستاني (ص: ٣٥٦).
(٤) الاعتقاد (ص: ٢٨).

والذي حكاهُ عن أحمد ﷺ وأرضاه أنَّ اللَّفظيَّة جَهْمِيَّة، فصحيحٌ عنه.

وإنَّما قال ذلك؛ لأنَّ جهمًا وأصحابه صرَّحوا بِخلق القُرآن، والذين قالوا باللَّفظ تدرَّجوا به إلى القول بِخَلق القُرآن، وخَافوا أهل السُّنَّة في ذلك الزَّمان من التَّصريحِ بخلق القُرآن؛ فذكروا هذا اللفظ، وأرادوا به أن القرآن بِلَفظِنَا مَخلُوق؛ فلذلك سمَّاهم أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ جَهْمِيَّة، وحكي عنه أيضًا أنَّه قال: «اللَّفظِيَّة شرٌّ مِنَ الجَهمِيَّة»[١].

وأمَّا ما حكاه محمد بن جرير عن أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ من قال: «لفظِي بِالقُرآنِ غيرُ مخلُوقٍ، فهو مُبتَدعٌ»، فإنَّما أراد أنَّ السَّلف من أهلِ السُّنَّة لم يتكلَّموا في بابِ اللَّفظ، ولم يُحْوِجْهُم الحال إليه، وإنَّما حدَث الكلام في اللَّفظ من أهلِ التَّعمُّق، وذوي الحُمق، الذين أتوا بالمُحدَثات، وبحثوا عما نُهُوا عنه من الضَّلالات، وذميمِ المقالات، وخاضوا فيما لم يَخُضْ فيه السَّلف من علماءِ الإسلام، فقال الإمام أحمد: هذا القول في نفسه بدعةٌ، ومِن حَقِّ المتديِّن أن يَدَعَهُ، ولا يتفوَّه به، ولا بِمِثْلِهِ من البِدَع المُبتدَعة، ويقتصر على ما قالهُ السَّلف من الأئمة المُتَّبَعة: أنَّ القرآن كلامُ اللهِ غير مخلُوق، ولا يزيدُ عليه إلا تكفيرَ من يقول بِخَلْقِهِ.

أخبرنا الحاكم أبو عبد الله الحافظ قال: حدثنا أبو بكر محمد بن عبد الله الجراحي بمَرْو، قال: حدثنا يحيى بن ساسويه قال: حدثنا عبد الكريم اليشكري قال: حدثنا وهب بن زمعة قال: أخبرني علي الباساني قال: سمعتُ عبد الله بن المبارك يقولُ: «مَنْ كَفَرَ بِحَرفٍ مِنَ القرآن، فقد كَفَرَ بالقرآن، ومن قال: لا أُؤمِنُ بِهَذِهِ اللَّام، فقد كَفَرَ»[٢].

---

(١) السنة لعبد الله بن أحمد (١/ ١٦٦).

(٢) الاقتصاد في الاعتقاد للمقدسي (ص: ١٤٧).

الشَّرح

إن مسألة الكلام والقرآن مسألة كبيرة، ولها تفريعات تترتب عليها من أمور العقيدة مشهورة ومعروفة عند السلف، وكانت من الفتن التي حدثت بعد مضي القرون الثلاثة المفضَّلة التي أشار الرسول ﷺ إلى تفضيلها.

إن القول بخلق القرآن لم يصدر إلا ممن كان متهمًا في دينه بأنه ليس على دين الإسلام؛ فهو إما يمُتُّ إلى اليهودية أو المجوسية أو غيرها، التي هُزِمت بجيوش الإسلام.

وقد رأى كثير من السلف ـ كابن حزم رحمه الله ـ أن هذه مؤامرات على دين الإسلام؛ فهؤلاء لما عجزوا عن مواجهة جيوش الإسلام بالقوة لجؤوا إلى الحِيَل، وأوجدوا المؤسَّسات الخفية للنظر في حال المسلمين؛ ليوجدوا بينهم التفكك؛ فبدؤوا بالعقائد، وأول من عُرف بهذا القول الجعد بن درهم، وهو مشكوك في كونه من أهل الإسلام، وقد جاء في مسألة القدَر أمور تدل على هذا.

وقد ذكر بعض المؤرخين أن أول من تكلم به رجل من المجوس يقال له سيسويه الإسواري، وذكر بعضهم أنه نصراني، وذكر بعضهم أنه معبد الجُهَني.

ولكن الظاهر أنها كلها مؤسسات تأسست لإفساد المسلمين، كما يفعل الكفار اليوم بما ينتجونه من صنائعهم، حتى استطاعوا إدخال دعواتهم في كل بيت، فأفسدوا كثيرًا من عقائد الأمة، فصار من جرَّاء ذلك هذا القول، ثم تطورت الأمور حتى وصل بعض هؤلاء إلى أئمة المسلمين وقادتهم، وزيَّنوا لهم هذا الشيء، فكانوا عليه، فوصلوا إلى شيء من مراداتهم، فامتحنوا الناس وقتلوا جماعة من كبار العلماء الذين أبوا أن يقولوا: إن القرآن مخلوق.

وقد وافقهم الكثير خوفًا من القتل، وكان ممن ثبت على الإنكار الإمامُ أحمد رَحِمَهُ اللهُ، وهذه المسألة مشهورة جدًّا، ثم وقعت حرب كلامية بين أهل الحق وأهل الباطل مزَّقت الناس، ولا تزال آثارها إلى اليوم؛ فهذا معتزلي، وهذا أشعري، وهذا ماتُريدي. أنواع متعددة، وكل واحد منهم عدو للآخر؛ ولهذا طمِع فيهم العدو وأدرك ما يريد، وقُسِّمت بلادهم إلى أن أصبحنا على هذا الوضع الذي لا نُحسد عليه؛ كل ناحية من نواحي البلاد لها حدود ولها نظام؛ حتى تكون لقمة مستساغة لعدوها، فمَزَّقوهم شرَّ ممزَّق، والمسلمون على هذا الوضع الذي هم فيه، سائرون في ذلك لا يعرفون ماذا يُراد بهم، وهم ينظرون إلى عدوهم ماذا يقول لهم، ويأخذون ما يقترحه أو يأمرهم به على سبيل القَبول والاتِّباع! وقد صدق عليهم قول الرسول ﷺ: «**يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا!**». فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟! قَالَ: «**بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ**». فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: «**حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ**»[(١)].

هذا هو الواقع! حتى اتُّهِم الذي يتكلم في مسائل كبار مقرَّرة في كتاب الله بأنه شاذٌّ أو خارج عن الجماعة!

إن من أغرب الأشياء أن يقول الناس: إن كلام الله غير مخلوق؛ ولهذا قالوا: إن الله لا يتكلم.

وإذا كان لا يتكلم، فكيف يأمر وينهى؟! وكيف يرسِل الرسل؟! وكيف يَشرَع الشرائع؟!

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، في كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم على الإسلام (٤/١١١) برقم (٤٢٩٧) من حديث ثوبان.

ويقول جماعة من المسلمين: إن كلام الله معنًى واحدٌ قائم بنفسه. فهل هذا معقول؟

إن معنى هذا أنه لا يسمع، ولا يرى، ولا يكتب!

فإذا قيل لهم: الكتب المنزَّلة؟ قالوا: هذه عبارة عن كلام الله، وليست هي كلامَ الله!

فجعلوا الله ﷻ بمنزلة الأخرس، تعالى الله وتقدس!

أما الذين قالوا: إنه مخلوق، فهذا صريح ظاهر لا يخفى، ولكن الالتواء والتعمية هي التي قد تنطلي على بعض الجهلة.

ولا تزال هذه المسألة موجودة بين المسلمين؛ فالأشاعرة الآن متَّفقون على هذا الشيء، ويقولون: إن الكلام ينقسم إلى قسمين: كلام لفظي ـ حرفي ـ، وهذا ممتنع أن يكون كلامًا لله ﷻ، كما يمتنع أن يوصف بأنه يأكل ويشرب؛ لأن الكلام يحتاج إلى لهاة، وإلى لسان، وإلى حنجرة، وإلى حبال صوتية. فلو قلنا بكلامه لزم أن نقول بهذه الأشياء!

فهم جعلوا أنفسهم الأصل، وقاسوا رب العالمين على ذلك!

فإذا قيل لهم: هذا من التشبيه، ذهبوا إلى أمر آخر، قالوا: الكلام له حروف مرتَّبة؛ واحد قبل الآخر، إذا قلت ـ مثلًا ـ: بسم الله؛ فإن الباء قبل السين، والسين قبل الميم، وهذه إذا تكلمتَ بها تحتاج إلى وقت، وإذا تكلمتَ بها فمعنى ذلك أن هذا حَدَث، ومن كان محَلًّا للحوادث فهو حادِث!

وهكذا يرمون الذي يُثبِت كلام الله ﷻ بهذه الشُّبَه التي أنتجتها أفكارهم، ويتركون ما هو واضح جلي!

ولهذا ذكر المؤلف هذا الكلام، فقال: «**وَيَشْهَدُ أصحَابُ الحَدِيثِ ويَعتَقِدُونَ...**».

أي: أنهم يُظهرون ما يعتقدون؛ فمعنى يشهد، أي: يُظهِر ما يعتقده.

وقوله: «أنَّ القُرآنَ كَلَامُ اللهِ، وكِتَابُه...».

نص على القرآن؛ لأننا أُمرنا باتباعه، وهو الذي أنزله الله على نبينا ﷺ، فيه أمرُه ونهيُه، وإلا فهذا حكم جميع كتب الله التي أنزلها، فكلها كلامه، تكلم به ﷻ حقيقة، فسمعه جبريل عليه السلام؛ لأن جبريل عليه السلام هو الواسطة بين الله ﷻ وبين الرسل، وبلَّغه الرسل للبشرية.

ويأتي هؤلاء المبتدعة بأشياء؛ لتكون أدلة لهم من كتاب الله، أو من أحاديث الرسول ﷺ، فيقولون: إن الله ﷻ يقول: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤٠].

فجعله قول الرسول، فإذا كان قول الرسول فليس قولًا لله، فيقولون: إن الرسول ﷺ يقول: «**إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَمَّا لَمْ تَتَكَلَّمْ بِهِ، أَوْ تَعْمَلْ بِهِ، وَبِمَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا**»[١].

فجعلوا الذي في النَّفسِ كلامًا، والعجب أنهم يستدلون ببيت الشعر ويتركون الآيات:

إن الكلامَ لفي الفؤاد وإنما ... جُعِلَ اللسانُ عليه دَليلَا

يقولون: هذا دليل على أن الكلام يكون في الفؤاد!

ولو أتيتَهم بآية من كتاب الله ما قبلوا ذلك؛ وذلك لأن الله ﷻ إذا أراد بالإنسان الفتنة فلا حيلة فيه!

فالله ﷻ يتكلم حقيقة، وهو يكلِّم من يشاء، والكلام كلامه ﷻ

(١) أخرجه أبو داود في سننه، في كتاب الطلاق، باب في الوسوسة بالطلاق (٢/ ٢٦٤) برقم (٢٢٠٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يتعلق بمشيئته، كلما شاء أن يتكلم تكلم، فيسمع كلامَه من يشاء من رسله؛ ملائكةً أو بشرًا، فكلَّم آدمَ بدون حجاب، وبدون أن يكون بينه وبينه واسطة، وكلَّم موسى عليه السلام بدون واسطة؛ فموسى عليه السلام سمع كلام ربه، وكلَّم محمدًا ﷺ بلا واسطة لما عُرج به إلى السماء، وسيكلِّم كل واحد من عباده، كما قال صلوات الله وسلامه عليه: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، وَلَا حِجَابٌ يَحْجُبُهُ**»[(١)].

وفي «الصحيحين» قيل لابن عمر: كيف سمعتَ رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ قال: سمعته يقول: «**إِنَّ اللهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ. حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ؛ فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ**»[(٢)]. فيُعطى صحيفتَه بيمينه، فيخرج إلى الناس يمدُّها إليهم ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩ ـ ٢٠] وذلك من شدة الفرح.

فالمقصود: أنه لا حصر للأدلة على كلام الله جل جلاله، وإثبات أنه يكلِّم الرسل، ويكلِّم البشر، ويكلِّم الملائكة، ويكلِّم من يشاء، ولكنَّ هؤلاء الضالين جعلوا بينهم وبين الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة حائلًا يحول بينهم، كعادة أهل البدع، فقالوا: الأحاديث أخبار آحاد لا نقبلها

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب التوحيد، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم (٩/١٤٨) برقم (٧٥١٢)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة، أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار (٢/٧٠٣) برقم (١٠١٦) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب المظالم والغصب، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨] (٣/١٢٨) برقم (٢٤٤١)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الرقاق، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله (٤/٢١٢٠) برقم (٢٧٦٨) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

في العقائد، وأما القرآن وإن كان متواترًا لفظُه، فدلالته مظنونة؛ فلا ننظر إليه!

ماذا بقي إذَنْ؟!

بقيت عقولهم!

نحن لم نكَلَّفْ بالعقول، وإنما كُلِّفْنا بخطاب الله ﷻ، الذي يرسله مع الرسل.

يريدون بذلك الحيلولةَ بين العبد وبين مصدر الهداية؛ فمصدر الهداية هو كتاب الله ﷻ وقول رسوله ﷺ، والله ﷻ يأمر رسوله بقوله: ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ [سبأ: ٥٠]، فالهدى اهتداء الرسول بالوحي، فهل يكون اتباع غيره بغير الوحي؟!

لا يمكن، وهذا هو سبب قولهم: إن القرآن مخلوق.

حتى يحولوا بين الناس وبين طريق الهداية، وحتى يُلبِّسوا عليهم في عقائدهم في الله ﷻ. ولو ـ مثلًا ـ تكلَّف الإنسان وطلب حرفًا واحدًا من كتاب الله أو من أحاديث رسوله ﷺ وفتَّش جميع الدواوين، سواء في التأريخ، أو في الأحاديث والأسانيد، وغيرها؛ لن يجد حرفًا واحدًا يدل على ما يقوله هؤلاء الضُّلَّال، بل يجد آلاف الكلمات التي تُبطِل كلامهم.

وقوله: «ووَحيُهُ، وتَنْزيلهُ...».

أحيانًا المؤلف رحمه الله يأتي بكلام مترادف.

وقوله: «غيرُ مَخْلُوقٍ...».

لأن المخلوق يكون منفصلًا عن الخالق، مفعول له، ليس هو فِعْلَه؛ فيجب أن نفرِّق بين الفعل والمفعول.

وقوله: «ومَنْ قال بِخَلقِهِ واعتَقَدَهُ فهو كافرٌ عِندهُم».

صرَّحوا بالتكفير لمن يقول بخلق القرآن في مواطن كثيرة من كتُبِهم، ولكن هذا من باب العموم، قالوا: من قال: إن القرآن مخلوق، فهو كافر. ولكنهم لم يقولوا: إن فلانًا كافر؛ لأنه يقول بخلق القرآن إلا قليلًا، ومعنى هذا أن الكفر يُطلَق على العموم وليس بالتعيين.

ومعلوم أن القرآن صفة من صفات الله؛ لأن الكلام صفة للمتكلم، والشُّبَه التي يوردونها هذه تلزم لكلام البشر؛ فالإنسان مخلوق، وعمله مخلوق. وكذلك الشُّبه التي يقولون: إن إثباتها يلزم منه الحلول؛ لأن الأصل عندهم في الإيمان والدخول في الإسلام: أن يُعرَف أن الله ﷻ بأنه واجب الوجود، وواجب الوجود عندهم مثل أن نقول: الغني بذاته وبنفسه عن كل شيء.

وهذا أوضح من قولهم: واجب الوجود؛ لأن الوجود عندهم واجب وجائز، فالواجب هو الذي لا يحتاج إلى شيء، وهو الذي يقوم بنفسه ولا يحتاج في إقامته إلى شيء؛ فهو مستغنٍ بنفسه.

أما جائز الوجود فهو الذي يحتاج إلى من يوجِده، وكل الكون لا يعدو هذا.

ثم يأتون إلى الصفات فيقولون: الصفات لا تخلو من أن تكون أعراضًا أو تكون جواهرَ، ولا ثالث لهذا.

فالعَرَض: هو الذي لا يقوم إلا بغيره؛ مثل: السواد والبياض، والمرض والصحة، والجهل والعلم، والسمع والبصر، وغير ذلك.

والجوهر: هو الذي يقوم بنفسه، ويُشاهَد، ويَشغَل مكانًا. غير هذا لا يوجَد. ثم يقولون: إن الله ليس بجوهر ولا عَرَض. كل هذه بِدَع وضلالات صدُّوا بها عن سبيل الله ﷻ، يقولون: من لا يعرف هذه الأمور ليس بمسلم، وهو في النار! وقد صرح جماعة منهم بأنه لا بد للإنسان أن يعرف ربه بهذه الطريقة!

فهل جاء أحد من الرسل بشيء من ذلك؟!

لو تتبع الإنسان كُتُبَ الله ﷻ الموجودة التي بيننا؛ مثل: التوراة والإنجيل والقرآن، في دعوات الرسل؛ وجد أن كل رسول كان يقول لأمته: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩].

ولم يقل أحد منهم: انظروا في عقولكم واستدلوا على وجود الله. وقد أخبَرَنا الله ﷻ عن المشركين كلهم أنهم إذا سُئلوا: من خلق السموات والأرض؟ قالوا: اللهُ. وإذا سئلوا: من خلَقَهم؟ قالوا: اللهُ.

ولكن هذا الإقرار بوجود الله ومعرفة ذلك لا يكفي في دخول الإسلام، فلا بد أنه يضيف إلى ذلك عبادة الله وحده لا شريك له. وعبادته تكون بامتثال أمره واجتناب نهيه، وأمرُه ونهُيه لا يكونان إلا بواسطة الرسول، ولا يكونان إلا بكلامه، وكذلك بالإيمان بصفاته وأسمائه، والإيمان بأن المخلوقات هي مفعولاته التي خلقها وأوجدها، ومنها الإنسان نفسه.

فالأمور واضحة في مثل هذا، ولكن إذا نظر الإنسان إلى هذا عرف أن مقصدهم فاسد، ومراميهم باطلة، ولهم أغراض يريدون بها صد المسلمين عن الإسلام. وهذا في الجملة؛ إذ لا يلزم أن يكون كلهم هكذا؛ فكثير ممن ينتسب إليهم مغرَّر بهم، يَظنُّ فيهم الظَّنَّ الحسن؛ فالحكم بالكفر يكون في العموم فقط، أما تعيين إنسان بعينه فلا؛ إذ لا يجوز أن يُكَفَّر حتى يبيَّن له، وتُزال الشُّبه التي عنده، ويعرف الحق ثم يُصِر على الباطل، بعد ذلك يَصدُر عليه الحكم.

وقوله: «والقُرآنُ الذِي هو كَلَامُ اللهِ ووَحيُهُ هو الذي نَزَل بِهِ جِبريل على الرَّسولِ ﷺ...»

جبريل ﵇ سمعه من الله وبلَّغه رسولَ الله ﷺ كما سمعه،

والرسول ﷺ أخذه عن جبريل عليه السلام، كما قال الله جل وعلا: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦ ـ ١٨]، أي: قرأه جبريل ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨ ـ ١٩] كان ﷺ في أول الأمر إذا نزل جبريل عليه السلام وجاءه، يحرِّك لسانه به يستعجل؛ خوفًا من أن يفوته شيء، فأمَرَه الله جل وعلا ألا يستعجل، وأخبره أنه سوف يجمعه له ويحفِّظه إياه، ثم يُبَيِّنه له.

وقد سمعتُ في هذه الأيام ببعض إجازات القراء الذين يقرؤون بالقراءات، وجاء فيها: حَدَّثني شيخي فلان، أقرأني فلان، وأقرأه فلان، وأقرأه كذا.. إلى أن قال: أقرأني رسول الله، عن جبريل عليه السلام، وجبريل عليه السلام أخذه من اللوح المحفوظ. فهل يجوز هذا؟!

هذه هي عقيدة أهل الباطل، وهي أن جبريل عليه السلام لم يسمعه من الله وإنما أخذه من اللوح المحفوظ. فهذه إجازة لا تجوز، وكل هذا تأثُّر بكتب المتكلِّمين، وربما يكون قد أخذها على سبيل حُسن الظن دون أن يفكِّر فيها.

والقرآن هو كلام الله جل وعلا، وهو باللغة العربية، كما قال الله جل وعلا: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١ ـ ٢]، وقوله جل وعلا: ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ١ ـ ٣]، وكلها سواء؛ فالجعل هو التنزيل.

وقد احتج الجهمية بهذه الآية، قالوا: الجعل هو الخلق. فقيل لهم: في كل الموارد؟ قالوا: نعم. قيل: إذَنْ كيف تقولون في قوله جل وعلا: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ﴾ [النحل: ٩١] أي: خلقتم اللهَ؟!

وهناك آيات كثيرة في هذا الباب.

ثم بَيَّن لهم **أنَّ جَعَل تنقسم إلى قسمين**:

القسم الأول: تكون متعدية.

القسم الثاني: تكون لازمة.

يجب أن يُعرف كلام العرب في مثل هذا؛ فالقرآن نزل بلغة العرب، وهم يتصيدون الشُّبَه التي فيها اشتباه على بعض الناس.

وقوله ﷻ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢].

تدل هذه الآية على أن رب العالمين هو الذي أنزله، ومعنى ذلك أنه تكلم به، وأنه ﷻ فوق؛ لأن التنزيل لا يكون إلا من فوق إلى أسفل، فهو فوق السموات، ﷻ.

ورب العالمين الذي يربِّيهم ويَملِكُهم، وتنزيله الكتابَ من ربوبيته الخاصة؛ لأنه ﷻ له ربوبية عامة على الخلق كلهم؛ كإيجادهم، ورزقهم، وإزالة ما يحول بينهم وبين قيامهم، بما هيأه لهم ﷻ. وهذا أمر عام للكافر والمسلم وغيره، أما ربوبيته الخاصة فهي خاصة بالمؤمن.

وقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣].

أي: أنه أخذه وسَمِعه من الله ﷻ، وليس هو قولَه.

وقوله: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٤]؛ لأن المَلَك يلقيه في رُوعِه وفي قلبه أولًا، وقد يشافهه مشافهةً، كما هو معروف في أقسام الوحي.

وقوله: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ﴾ [الشعراء: ١٩٥].

تكلم الله ﷻ بلسان عربي، وهو مُبِين واضح، فسمعه الرسول ﷺ وحفظه، وحفَّظه أصحابَه؛ وأصحابُه حفَّظوه عنه ثم بلَّغوه من بعدهم، وهكذا. فتناقلته الأمةُ، أمةٌ عن أمة إلى يومنا هذا؛ لأن الله تولى حفظه، وهذا من فضله ورحمته، وليس كالكتب السابقة التي يُوكَل حِفظُها إلى أهلها، ثم تضيع.

وقوله: «وهو الذي بلَّغه الرَّسولُ ﷺ أُمَّته، كما أُمِرَ به في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]»، وهذا أعم من أن يكون القرآن

فقط، فهو بلَّغ القرآنَ والوحيَ الثاني الذي هو الحكمة أو السُّنة، التي تُبيِّن القرآن وتوضحه، ولم يتركْ شيئًا أُمِرَ به إلا وبلَّغه ﷺ.

أما قوله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الحاقة: ٤٠ ـ ٤٣] فهنا زالت الشبهة؛ قال: ﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الحاقة: ٤٣]، ثم قال: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦] فدل على أنه كلامه، وأنه أُضيف إليه؛ لأنه يبلِّغه، والكلام يضاف إلى من قاله مبتدِئًا، ولكن قد يضاف إلى المبلِّغ المؤدِّي؛ فقد جاء في سورة أخرى قولُه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ۝٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ۝٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ﴾ [التكوير: ١٩ ـ ٢٢].

وهذا غير الأول؛ فهذا الرسول الملَكي، وذاك الرسول البَشَري، فإذا كان ـ مثلًا ـ كما تقولون من أنه قول الرسول، فإنه يمتنع أن يكون مرةً مضافًا إلى الرسول البَشَري، ومرَّة مضافًا إلى الرسول المَلَكي؛ فدل على أنه أضيف إليه؛ لأنه يبَلِّغه، والكلام يكون كلام المتكلِّم المبتدئ به، أما الناقل المبلِّغ فهو مجرَّد رسول نقل الكلام. ونحن إذا سمعنا مثلًا قائلًا يقول:

«قِفَا نَبْكِ من ذِكرى حبيبٍ ومَنزِلِ بسِقْطِ اللِّوى بين الدَّخُولِ فحَوْمَلِ»

نقول: لمن الكلام؟ هذا كلامُ امرئِ القيس.

ثم إذا سمعنا مثلًا قائلًا يقول: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ**

امْرِئٍ مَا نَوَى»(١) **نقول**: هذا كلام رسول الله ﷺ، وليس كلام المتكلم، كما أننا إذا سمعنا من يقول ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٢ ـ ٣] نقول: هذا كلام الله جل وعلا.

وقول الله جل وعلا: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] ممن يسمع كلام الله؟

هل يسمعه من الله؟! أم يسمعه من المبلِّغ الذي يبلِّغه ويؤدِّيه؟ يسمعه من المبلِّغ، لكن قيل: كلام الله، مع أنه لا يسمعه منه؛ لأنه عَلِم أنه كلام الله نزل من عند الله جل وعلا.

أما كون الكلام يحتاج إلى لسان، ولهاة، وحنجرة، وشفتين، وحبال صوتية، وغيرها **فنقول**:

هذا كلام المخلوق المسكين الضعيف، وقد أخبرنا ربُّنا جل وعلا أن هناك أشياءَ تتكلم ليس لها هذه الأمور: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٠ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢١ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠ ـ ٢٢] هل للجلد لسان، ولهاة، وشفتان، وحنجرة؟!

وكذلك السمع، والبصر، وغيرها، والأرض نفسها تتكلم، والنار تتكلم، وكل شيء يتكلم؛ فهو جل وعلا يُنطِق كل شيء إذا شاء.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ؟ (١/٦) برقم (١)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنية**»، وأنه يدخل فيه الغزو وغيره من الأعمال (٣/١٥١٥) برقم (١٩٠٧)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ومن الأمور المشهورة أن الرسول ﷺ كان يخطب على جذع نخلة في مسجده؛ لأنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لما أخذ الأرض التي قال للأنصار: «**يَا بَنِي النَّجَّارِ ثَامِنُونِي**». فَقَالُوا: لَا نَطْلُبُ ثَمَنَهُ إِلَّا إِلَى اللهِ. فَأَمَرَ بِقُبُورِ الْمُشْرِكِينَ فَنُبِشَتْ، ثُمَّ بِالخِرَبِ فَسُوِّيَتْ، وَبِالنَّخْلِ فَقُطِعَ[١]، فجُعِلت جذوع النَّخل أعمدة.

وكان يستند إلى جذع من هذه الجذوع يخطب، ثم قال بعد ذلك لامرأة من الأنصار عندها غلامٌ نجّار: «**مُرِي غُلَامَكِ النَّجَّارَ أَنْ يَعْمَلَ لِي أَعْوَادًا، أَجْلِسُ عَلَيْهِنَّ إِذَا كَلَّمْتُ النَّاسَ**»[٢].

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: «كَانَ جِذْعٌ يَقُومُ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَلَمَّا وُضِعَ لَهُ المِنْبَرُ سَمِعْنَا لِلْجِذْعِ مِثْلَ أَصْوَاتِ العِشَارِ، حَتَّى نَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ!»[٣].

سمع كل من في المسجد للجذع حنينًا كحنين الناقة إذا فقدت ولدها! فنزل ﷺ من المنبر الذي كان عليه والتزمه؛ فهدأ، فقال ﷺ: «**لَوْ ـ تَرَكْتُهُ ـ، لَحَنَّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ!**»[٤]. فهل للجذع لسان، ولهاة، وحنجرة؟!

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب فضائل المدينة، باب حرم المدينة: ٣/ ٢٠ برقم (١٨٦٨)، ومسلم في صحيحه، في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ابتناء مسجد النبي ﷺ: ١/ ٣٧٣ برقم (٥٢٤) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب البيوع، باب النجار (٣/ ٦١) برقم (٢٠٩٤)، ومسلم في صحيحه، في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جواز الخطوة والخطوتين في الصلاة (١/ ٣٨٦)، برقم (٥٤٤).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الجمعة، باب الخطبة على المنبر (٢/ ٩) برقم (٩١٨) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ٢٢٧) برقم (٢٤٠٠)، وابن ماجه في «سننه» (١/ ٤٥٤) برقم (١٤١٥) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وكانوا يسمعون تسبيحَ الطعام وهم يأكلونه[1]! وتسبيحَ الحصى؛ يقول: سبحان الله، سبحان الله[2]!

ويقول ﷺ: **«إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ، إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ»[3]. فهل للحجر لسان؟!**

ولكن هؤلاء تركوا النظر إلى مثل هذه الأشياء، وقالوا: هذه كلها أخبار آحاد!

وهذا ضلال؛ فالشرع كله أخبار آحاد، ـ إلا القرآن؛ فإنه متواتر ـ وقليلًا من الأخبار المتواترة.

أما تقسيم الشرع إلى أصول وفروع، فهذا من البِدَع، ولم يقسِّم المسلمون الشرع بين أصل وفرع؛ فيجب قَبول الشرع كله الذي جاء به الرسول ﷺ، ولا يجوز أن نقول: يمكن أن نقبل أخبار الآحاد في الفروع، أما الأصول فلا نقبل فيها أخبار الآحاد.

وأول من قال بهذا التقسيم هم المعتزلة الضُّلَّال، أما أهل السُّنَّة فهم بُرآء من هذا.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٤/ ١٩٤) برقم (٣٥٧٩) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البزار في مسنده (٩/ ٤٣١) برقم (٤٠٤٠)، والطبراني في المعجم الأوسط (٢/ ٥٩) برقم (١٢٤٤)، والبيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٦٤) من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٥/ ١٧٩): رواه الطبراني في الأوسط، وفيه محمد بن أبي حميد، وهو ضعيف.
وقال في موضع آخر (٨/ ٢٩٩): رواه البزار بإسنادين ورجال أحدهما ثقات، وفي بعضهم ضعف.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحَجَر عليه قبل النبوة (٤/ ١٧٨٢) برقم (٢٢٧٧) من حديث جابر بن سَمُرة رضي الله عنه.

وقوله: «فكان الذي بلغهم ـ بِأمر اللهِ تعالى ـ كَلامَه ﷻ، وفيه قال ﷺ: «أَتَمْنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلامَ رَبِّي»»

يبدو أنه روى هذا بالمعنى، لما كان ﷺ في أيام الحج يمشي على قبائل العرب.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ يَعْرِضُ نَفْسَهُ بِالْمَوْقِفِ، فَقَالَ: «**أَلَا رَجُلٌ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ؟ ـ حتى أبَلِّغ كَلَامَ رَبِّي ـ فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي**»[1]. فهذا مشهور في سيرته صلوات الله وسلامه عليه، وكان عمُّه أبو لهب يَتْبَعُه ويقول: لا تصدِّقوه؛ فإنه كاذب! وقد أخبر الله ﷻ أنه ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد: ٣]؛ ولهذا سُمِّي أبا لهب.

وقوله: «وهو الذي تَحفظه الصُّدورُ، وتَتْلُوهُ الألسِنةُ، ويُكتبُ في المصَاحِفِ».

أي: أن القرآن مهما تُصُرِّف فيه؛ في الحفظ والكتابة والتلاوة، وأنه هو كلام الله، حروفه ومعانيه، ليست الحروف دون المعاني، ولا المعاني دون الحروف؛ فحروفه ومعانيه هو كلامه ﷻ، وهو لا يختلف إذا كُتب أو حُفظ أو تُلِي.

يعني: هذه التصرفات لا تُخرجه عن كونه كلام الله تعالى، فالحافظ الذي يحفظه؛ حفظ كلام الله، والقارئ؛ قرأه، والمسموع من القارئ هو كلام الله، ولكن الصوت؛ صوت القارئ، وكذا إذا كُتب فهو كلام الله.

ومن المعلوم أن الكلام له وجود في المصحف، ليس كوجود الطعام في الإناء؛ فهذا له وجود، وهذا له وجود.

فالكلام يُكتَب حتى يُنطَق بحروفه، وهذه مسألة أخرى، وقد ضَلَّ فيها من ضَلَّ، حتى قالوا: حلَّ القرآنُ في المصحف!

---

(١) سبق تخريجه.

وهذا كلام باطل؛ فحروف القرآن مكتوبة في المصحف، لا أن القرآن حلَّ في المصحف؛ فهو كلام الله ﷻ؛ ولهذا قال: «**وهو الذي تَحفظه الصُّدورُ، وتَتْلُوهُ الألسِنةُ، ويُكتبُ في المصَاحِف، كيفما تَصَرَّفَ بِقِرَاءةِ قَارئٍ، ولَفْظِ لَافِظٍ، وحِفْظِ حَافِظٍ، وحيثُ تُلِيَ، وفي أيِّ مَوضِعٍ قُرِئَ، وكُتِبَ في مَصَاحِفِ أهلِ الإسلامِ، وألواحِ صِبْيَانهم، وغيرها، كُلُّهُ كَلَامُ اللهِ ﷻ، غيرُ مَخلُوقٍ**» أي: إنْ كُتِب أو حُفِظ أو تُلِي، فهو كلام الله ﷻ؛ لفظُه ومعناه.

وكل هذه الأمور واضحة، والحمد لله.

بعض الناس يقولون الآن: لا حاجة إلى الكلام في هذه المسألة، ولكن لما كانت الكتب مملوءة بهذا الشيء، فقد يحتاج الإنسان إلى هذا، وقد يُثار عنده شُبَه في ذلك، فيكون على بيِّنة.

ويجب أن يكون الاستدلال بكلام الله لا بكلام ابن خُزَيمة، ولا بكلام ابن مهدي، ولا بكلام الطبري، ولا بكلام الإمام أحمد؛ وإنما هؤلاء يقولون بما قاله الله وقاله رسوله ﷺ؛ فيقتدى بما بيَّنوه وقالوا به.

وقوله: «فمن قال: إنَّ القرآنَ مَخلُوق، فهو كافرٌ بالله العظيم».

هذا بالنسبة للكلام، أما بالنسبة لِلَفظ: «ولفظي مخلوق أو غير مخلوق» فهذه مسألة أخرى، فهل يجوز أن يقول إنسان: لفظي بالقرآن غير مخلوق، أو لفظي به مخلوق؟

هذا لا يجوز؛ لأن هذا فيه إجمالٌ وفيه اشتباهٌ؛ لأنك إذا قلت: «لفظي»، فـ«لفظ» هذا مصدر، فيحتمل أن يراد به الملفوظ المتلو المقروء، ويحتمل أن يراد به التلفُّظ الذي هو حركة اللسان، والصوت الخارج من الحنجرة؛ فحركة اللسان والصوت وحركة الشفتين مخلوق، ولكن المتلفَّظ به المتلوُّ المقروء ليس مخلوقًا، وإنما هو كلام الله.

فإذا سمعتَ القارئ قُلتَ: الصوت صوت القارئ، وصوته مخلوق، أما الكلام فهو كلام البارئ ﷻ غير مخلوق، فهو صفته؛ فالكلام صفة المتكلِّم.

فلما كان فيه هذا الاشتباه، منع الأئمة من التلفظ به أو القول به؛ لأن الكلام إذا كان يشتمل على الحق والباطل، فإنه لا يجوز أن يُطلَق هكذا، بل يجب أن يُفسَّر ويُبيَّن؛ حتى لا يلتبسَ الحقُّ بالباطل.

ومثل ذلك كثير في كلامهم؛ فإذا قالوا: إن الله ﷻ ليس بجسم، وليس بجوهر، وليس بعَرَض، وليس بكذا، فهل نقرُّهم ونقول: نعم؟ أم نتوقف ونقول: ماذا تريدون بالجسم؟

هل تريدون الجسم الذي يقوم بنفسه ويَشغَل مكانًا؟ أم تريدون بالجسم البدنَ المكوَّن من اللحم والدم والعظم؟

فإن كنتم تريدون بالجسم المركَّبَ، فهذا باطل؛ فالله ﷻ لا يكون كذلك.

وإذا كنتم تريدون الجسمَ الذي يقوم بنفسه ويشغل مكانًا، فإننا لا نُقِرُّكم على هذا.

بل **نقول**: إن اللفظ باطل ومردود، والمعنى يجب أن يبقى لله ﷻ، ويجب أن نعَبِّر عن المعنى بالألفاظ الشرعية لا بالألفاظ البِدْعية.

هذا هو الطريق معهم، يقال لهم: هكذا وهكذا.

فإذا قالوا: إن السمع والبصر عَرَض.

نقول: ماذا تريد بالعَرَض؟

هل تريد بالعرض الذي يَعرِض ويزول وينتهي؟ أم أنه هو الذي لا بد أن يقوم بمن يُضاف إليه، فيكون صفة لذلك؟ فإن كنت تريد هذا **فنقول**: نعم، ولكن لا يجوز أن نقول: إنه عَرَض، يجب أن **نقول**: إنه سَمعٌ وبصرٌ وصفة، فيؤخذ المعنى الصحيح ويُرَد اللفظ الباطل.

وهكذا يقال لكل مبتدع في هذه الأشياء.

وهذا هو السبب في قولهم: «**من قال: لَفظِي بِالقُرآن مَخلُوقٌ، فهو جهميٌّ، ومن قالَ: غيرُ مخلوق، فهو مُبْتَدِعٌ**». وقد أشكل هذا على بعض العلماء حتى قال ابن قُتَيبة رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «اللفظ»: ما أظن هذا يَثبُت عن الإمام أحمد[(١)]!

لأنه لم يفهم مراد الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقد ابتُلي البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه المسألة ورُمي ظُلمًا بأنه يقول: إن لفظي بالقرآن مخلوق! ما كان يقول ذلك رَحِمَهُ اللَّهُ، ولكِنْ حُسِد!

وقد قيل له هذا القول من أحد الأئمة الكبار الذين كانوا من مشايخه، فألَّف كتابه الذي سماه «خَلْق أفعال العباد»، قال: إنهم لم يفهموا كلام الإمام لدقَّتِه وخفائه عليهم، قالوا: كذا وكذا إلى آخره.

والمقصود: أن الكلام إذا جاء مُجملًا فلا يجوز قَبولُه ولا رَدُّه، وإنما نتوقف فيه؛ فإن كان الإنسان يعرف المعنى، فَصَلَ فيه ورَدَّ الباطل وقَبِل الحَقَّ، وإن كان لا يعرف، يقول: أنا لا أعرفه، ولا أُقِرُّه، ولا أنكِرُه حتى يتبَيَّنَ لي.

حتى يسلم من أن يُنكِرَ حقًّا أو يُصَدِّقَ باطلًا.

قال الإمام ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه المسألة: ليس لنا فيها سلف نأخذ عنه إلا الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ، وفي كلامه الشفاء والهدى، وهو إمام متبَع؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا ثبَّته على الحق وجعله حُجَّة على أهل الباطل.

هذه خلاصة هذا الفصل؛ لأنه واضح لا إشكال فيه، والحمد لله.

---

(١) الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية لابن قتيبة (ص: ٦٠).

ﷺ [قال ﷺ]: «ويعتقدُ أصحابُ الحديثِ وَيَشْهَدُون: أنَّ اللهَ سبحانه فوقَ سبع سموات، على عرشِهِ مُستوٍ، كما نطق به كِتَابه في قوله ﷻ في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقوله في سورة يونس: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ [يونس: ٣]، وقوله في سورة الرَّعد: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الرعد: ٢]، وقوله في سورة الفرقان: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]، وقوله في سورة السَّجدة: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [السجدة: ٤]، وقوله في سورة طه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وقوله في سورة الحديد: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الحديد: ٤].

وقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، وقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة: ٥]، وقوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾ [الملك: ١٦].

وأخبر الله سبحانه عن فرعون اللعين أنه قال لهامان: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦ ـ ٣٧]، وإنما قال ذلك؛ لأنه سمع موسى عليه السلام يذكر أنَّ ربه في السماء، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾، يعني في قوله: إنَّ في السماء إلهًا.

وعلماء الأمة وأعيان الأئمة من السَّلف رحمهم الله لم يختلفوا في أنَّ الله تعالى على عرشه، وعرشه فوق سمواته.

يُثبتُونَ من ذلكَ ما أَثْبَتَهُ الله تعالى، ويُؤمنونَ بِه، ويُصدِّقُون

الرَّب جَلَّ جَلَالُهُ في خَبَرِه، ويُطلِقُونَ ما أطلَقَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى من استِوائه على عَرْشِهِ، ويُمِرُّونهُ على ظَاهِره، وَيَكِلُونَ عِلْمَهُ إلى اللهِ، ويقولون: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

كما أخبرَ اللّهُ تعالى عن الرَّاسِخِين في العِلْمِ أنَّهم يقولون ذلك، ورَضِيَه مِنهُم؛ فأثْنَى عليهم بِهِ.

أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن بن إبراهيم بن محمد بن يحيى المُزَكِّي، قال: حدَّثني محمد بن داود بن سليمان الزَّاهد، قال: أخبرني علي بن محمد بن عُبيدٍ أبو الحسن الحافظ ـ من أصله العتيق ـ قال: حدثنا أبو يحيى بن كيسبة الورَّاق، قال: حدثنا محمد بن الأشرس الورَّاق أبو كنانة، قال: حدثنا أبو المُغِيرة الحنفيُّ، قال: حدثنا قُرَّة بن خالدٍ، عن الحسن، عن أبيه، عن أُمِّ سَلَمَة في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، قالت: «الاستِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ، والكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، والإقْرَارُ بِهِ إيمَانٌ، والجُحُودُ بِهِ كُفْرٌ»[(١)].

وحدَّثنا أبو الحسن بن أبي إسحاق المُزَكِّي بن المُزَكِّي، قال: حدثنا أحمد بن الخضر أبو الحسن الشَّافعيُّ، قال: حدثنا شاذان، قال: حدثنا ابن مخلد بن يزيد القُهُسْتَانِيُّ، قال: حدثنا جعفر بن ميمُونٍ، قال: سُئِلَ مالك بن أنسٍ عن قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] كيف استوى؟ قال: «الاستِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ، والكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، والإيمَانُ بِه واجِبٌ، والسُّؤالُ عَنهُ بِدعَةٌ، ومَا أراك إلا ضَالًّا»، وأمَرَ بِه أنْ يُخْرَجَ مِنْ مَجْلِسِه.

أخبرنا أبو محمد المخلدي العَدْلُ، قال: حدثنا أبو بكرٍ عبد الله بن محمد بن مسلم الإسفرَاييني، قال: حدثنا أبو الحسين علي بن الحسن،

---

(١) الإبانة الكبرى لابن بطة (٧/ ١٦٣)، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٤٤١).

قال: حدثنا سلمة بن شبيب، قال: حدثنا مهدي بن جعفر بن ميمون الرَّمِلِي، عن جعفر بن عبد الله، قال: جاء رجلٌ إلى مالك بن أنس - يَعنِي - يسأله عن قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] كيف استوى؟ قال: فما رأيتُهُ وَجَدَ من شيء كَوَجْدِهِ من مَقَالَتِهِ، وَعَلَاهُ الرُّحَضَاءُ، وأطَرَقَ القَومُ، فجعلوا ينتظرون الأمرَ بِهِ فِيهِ، ثُمَّ سُرِّي عن مالكٍ فقال: «الكَيْفَ غَيْرُ مَعْلُوم، والاسْتِواءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ، والإيمَانُ بِهِ واجبٌ، والسُّؤالُ عنهُ بِدعَة، وإنِّي لأَخافُ أنْ تكُوَن ضالًّا». ثُمَّ أمَرَ بِهِ فأُخْرِج.

وأخبرنا به جدِّي أبو حامد أحمد بن إسماعيل، عن جدِّ والدي الشَّهيد، وأبو عبد الله محمد بن عَدِي بن حَمْدَوَيْهِ الصَّابُونِي، قال: حدثنا محمد بن أحمد بن أبي عونٍ النَّسَوِيُّ، قال: حدثنا سلمة بن شبيب، قال: حدثنا مهدي بن جعفر الرَّمِلِي، قال: حدثنا جعفر بن عبد الله، قال: جاءَ رجلٌ إلى مالك بن أنس، فقال: يا أبا عبد الله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] كيف استوى؟ قال: فما رَأَيْنَا مالِكًا وَجَدَ مِنْ شيء كَوَجْدِهِ من مَقَالَتِهِ، وَذَكَرَ بِنَحْوِه[1].

وسُئِل أبو علي الحسين بن الفضل البَجَلِي عن الاسْتِوَاءِ، وقِيلَ لهُ: كَيْفَ استوى على عَرْشِهِ؟ فقال: «إنَّا لا نعرِفُ من أنباءِ الغَيْبِ إلا مِقْدَارَ ما كُشِفَ لنَا، وقد أعلَمَنَا جَلَّ ذِكرُهُ أنَّهُ اسْتَوى على عَرْشِهِ، ولم يُخْبِرنَا كَيْفَ اسْتَوَى»[2].

أخبرَنَا أبو عبد اللهِ الحافظ، قال: أنبأنا أبو بكر محمد بن داود الزَّاهد، قال: أنبأنا محمد بن عبد الرَّحمن السَّامِيُّ، قال: حدَّثني

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٤٤١)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٦/ ٣٢٦)، الأسماء والصفات للبيهقي (٢/ ٣٠٦).

(٢) العين والأثر في عقائد أهل الأثر (ص: ٦٠).

عبد الله بن شبُّويَه المروزي، قال: سَمِعتُ علي بن الحسن بن شَقِيقٍ يقولُ: سمعتُ عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ يقولُ: «نَعْرِفُ ربَّنا فوقَ سبعِ سمواتٍ، على العرشِ اسْتَوَى، بائنًا مِن خَلْقِه، ولا نقول كما قَالتِ الجَهْمِيَّة: إنَّه هَاهُنَا»، وأشَارَ إلى الأرْضِ[١].

وَسَمِعْتُ الحاكم أبا عبد الله الحافظ في كتابه «التاريخ» الذي جَمَعهُ لأهلِ نيسابُور، وفي كتابه «معرفة الحديث»؛ اللَّذين جَمَعَهُمَا، ولمْ يُسْبَق إلى مِثْلِهِمَا، يقولُ: سمعت أبا جعفر محمد بن صالح بن هانئ يقولُ: سمعت أبا بكر محمد بن إسحاق بن خُزَيمة يقولُ: مَنْ لمْ يَقُلْ بِأنَّ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ على عَرْشِهِ قَد اسْتَوَى فوق سبع سَمَوَاتِه؛ فهو كَافِرٌ بِربِّه، حَلالُ الدَّم، يُسْتَتَابُ، فإنْ تَابَ وإلا ضُرِبَتْ عُنُقُهُ، وأُلقِي على بعضِ المزابِلِ؛ حتَّى لا يتأذَّى المسلمون ولا المعاهَدون بِنَتنِ رائِحَةِ جِيفَتِهِ، وكانَ مالُه فَيْئًا، لا يَرِثُه أحدٌ من المسلمين؛ إذ المُسْلِمُ لا يَرِثُ الكَافِرَ، كَمَا قالَ النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يَرِثُ المُسْلِمُ الكَافِرَ، ولا الكَافِرُ المُسْلِمَ**»[٢].

وإمامنا أبو عبد الله محمد بن إدريس الشَّافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ احتجَّ في كتابه «المبسوط» في مسألة إعتاق الرقبة المؤمنة في الكفَّارة، وأن غير المؤمنة لا يصح التكفير بها[٣] بخبر معاوية بن الحكم، وأنه أراد أن يُعتِق الجارية السوداء لكفَّارة، وسأل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن إعتاقه إياها، فامتحنها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لها: «**من أنا؟**» فأشارت إليه وإلى

---

(١) الاقتصاد في الاعتقاد للمقدسي (ص: ٩٥).

(٢) معرفة علوم الحديث للحاكم (ص: ٨٤).
وحديث «**لا يرث المسلم الكافر، ولا الكافر المسلم**» أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الفرائض، باب لا يرث المسلم الكافر، ولا الكافر المسلم: ٨/١٥٦ برقم (٦٧٦٤)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الفرائض: ٣/١٢٣٣ برقم (١٦١٤) من حديث أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) الأم للشافعي (٥/٢٩٨).

السماء، يعني: أنك رسول الله الذي في السماء، فقال ﷺ: «**أَعْتِقْهَا؛ فإنَّها مُؤمِنَةٌ**»(١)

فَحَكَمَ رسول الله ﷺ بإسلامها وإيمانها لما أقرَّت بأن ربها في السماء، وعرفت ربها بصفة العُلُو والفوقية.

وإنما احتجَّ الشَّافعي رَحِمَهُ اللهُ على المخالفين في قولهم بجواز إعتاق الرقبة الكافرة في الكفارة بهذا الخبر؛ لاعتقاده أنَّ الله سبحانه فوق خلقه، وفوق سبع سمواته على عرشه، كما هو معتَقَد المسلمين من أهل السُّنَّة والجماعة؛ سَلَفِهم وخَلَفِهم؛ إذ كان رَحِمَهُ اللهُ لا يروي خبرًا صحيحًا ثم لا يقول به.

وقد أخبرنا الحاكم أبو عبد الله رَحِمَهُ اللهُ، قال: أنبأنا الإمام أبو الوليد حسان بن محمد الفقيه، قال: حدَّثنا إبراهيم بن محمود، قال: سمعت الربيع بن سليمان يقول: سمعتُ الشَّافعي رَحِمَهُ اللهُ يقول: «إذا رأيتموني أقولُ قولًا وقد صحَّ عن النَّبِي ﷺ خلافه، فاعلموا أن عقلِي قد ذَهب!»(٢).

قال الحاكم رَحِمَهُ اللهُ: سمعت أبا الوليد غيرَ مرَّةٍ يقول: حُدِّثْتُ عن الزعفراني أنَّ الشَّافعي رَحِمَهُ اللهُ روى يومًا حديثًا، فقال السائل: يا أبا عبد الله تقولُ به؟ قال: «تراني في بَيْعَة أو كنِيسة؟! ترى عليَّ زيَّ الكفَّار؟! هو ذا تراني في مسجد المسلمين، عليَّ زيُّ المسلمين، مُستقبِلَ قبلتِهم، أروي حديثًا عن النَّبِيِّ ﷺ ثم لا أقولُ به!»(٣)

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، ونسخ ما كان من إباحته (١/ ٣٨١) برقم (٥٣٧) من حديث معاوية بن الحكم السلمي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) آداب الشافعي ومناقبه (ص: ٥٠).

(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٩/ ١٠٦).

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: والفرقُ بين أهل السُّنَّة وبين أهل البدع أنَّهم إذا سمعوا خبرًا في صفات الرب ردُّوه أصلًا، ولم يقبلوه أو يُسَلِّموا للظاهر، ثم تأوَّلوه بتأويلٍ يقصدون به رفعَ الخبر من أصله، وإبطال عقولهم وآرائهم فيه. ويعلمون حقًّا يقينًا أنَّ ما قاله رسول الله ﷺ فعلى ما قاله؛ إذ هو كان أعرفَ بالرب جَلَّ جَلَالُهُ من غيره، ولم يقل فيه إلا حقًّا وصِدقًا ووحيًا؛ قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ ـ ٤].

قال الزُّهري ـ إمام الأئمة ـ وغيره من علماء الأمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: «على الله البيان، وعلى الرسول البَلاغ، وعلينا التَّسلِيم»[(١)].

وروى يونس بن عبد الصمد بن معقل عن أبيه أن الجعد بن درهم قَدِم على وهب بن منَبِّه يسأله عن صفات الله تعالى، فقال: «ويلك يا جعدُ! بَعْضَ المسألةِ؛ إني لأظنُّك من الهالكين، يا جعد لو لم يُخْبِرنا الله في كتابه أنَّ له يدًا وعينًا ووجهًا، لما قلتُ ذلك؛ فاتقِ الله». ثم لم يلبث جعد أن قُتِل وصُلِب[(٢)].

وخطب خالد بن عبد الله القسري يوم الأضحى بالبصرة، فقال في آخر خطبته: «انصَرِفوا إلى منازلكم وضحُّوا، بارك الله لكم في ضحاياكم، فإنِّي مُضَحٍّ اليومَ بالجعد بن درهم؛ فإنه يقول: لم يتخذ الله إبراهيم خليلًا، ولم يكلِّم موسى تكليمًا، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عما يقول الجعدُ عُلُوًّا كبيرًا». ونزل عن المنبر فذبحه بيده، وأمر بصَلْبِه[(٣)].

---

(١) صحيح البخاري (٩/ ١٥٥).

(٢) البداية والنهاية (٩/ ٣٨٢).

(٣) خلق أفعال العباد للبخاري (ص: ٢٩).

الشَّرح

إن مسألة العلو ثابتة في كتاب الله ﷻ، وفي أحاديث رسوله ﷺ، بل في فِطَر المسلمين، وفيما جاءت به الرسل، وأمرُها واضح ومشهور؛ أجمع عليها أتباع الرسل، وفَطر الله تعالى عليها خلقه، فإنكارها خروج عن ذلك كله، وأدلتها ظاهرة وكثيرة، ولذلك صار إنكارها كُفر بالله وكتبه ورسله، وأشتد إنكار السلف على من لم يؤمن بها، وكفروه، وتبرؤ منه، فالعلو دل عليه الشرع، والعقل، والإجماع من أهل الإيمان، وفطر الله تعالى عليه خلقه، والعجب أن كثيرًا من المسلمين يُنكرون العلو؛ كالأشاعرة الذين يقولون: إن الله في كل مكان، ويُنكِرون العلو زاعمين أن العلو يقتضي أن يكون في مكان، ومن كان في مكان يكون محاطًا محصورًا، ويعلِّلون بهذه العِلَل الفاسدة الباردة، والله ﷻ أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، وهو على كل شيء قدير؛ إذا شاء أن يستويَ على ما يشاء استوى، والاستواء دليله شرعي، وهو من أدلة العلو، والله ﷻ غني بذاته ﷻ عن كل شيء، ولكنْ ربنا ﷻ أخبرنا أنه خَلَق السموات والأرض، ثم استوى على العرش، وذكر سبع آيات في كتابه عن هذا الأمر؛ منها ست آيات مُطَّرِدة بـ ﴿ثُمَّ﴾ التي تدل على الترتيب والتعقيب، وواحدة لم يذكر فيها ذلك؛ في سورة طه، وهي قوله ﷻ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥].

والباقي ذُكر في الاستواء على العرش بعد خلق السموات والأرض بلفظة ﴿ثُمَّ﴾: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ﴾ [يونس: ٣].

يدبِّر الأمر كله وهو على عرشه، ويتصرف فيه كيف يشاء في تخوم الأرض وفي كل مكان، وهو على عرشه تعالى وتقدس. وكذلك قوله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ [الرعد: ٢]، فهل يعود قوله ﴿تَرَوۡنَهَاۖ﴾ إلى السموات أم إلى العَمَد؟

يعود إلى السموات؛ لأنها ليس لها عَمَد، أي: أننا نرى السماء بلا عمد، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

والعرش في اللغة: هو سرير المَلِك الذي يجلس عليه، ولفظه يدل على الارتفاع.

قال الله ﷻ في قصة سليمان عليه السلام عندما تفقَّد جنودَه وطيوره، ولم يجد الهدهد: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٢٠ ـ ٢١] أي: بحجة، ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [النمل: ٢٢]. فجاء بحجة، قال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٢ ـ ٢٣] أي: تجلس عليه.

فهذا هو العرش في اللغة، وسُمِّي عرش ربنا عرشًا؛ لأنه أعلى المخلوقات وفوقها كلها، وليس فوق العرش إلا رب العالمين تعالى وتقدس، فهو مستوٍ عليه.

وقد عبَّر السلف عن الاستواء في اللغة العربية بأربع تعبيرات، كلها مترادفة:

أولًا: العلو.

ثانيًا: الاستقرار.

ثالثًا: الارتفاع.

رابعًا: الصعود.

وقد رُويت جميعها بالأسانيد عن السلف، ومعناها واحد، ويبينون بها معنى لفظة الاستواء، مع أنها واضحة لا إشكال فيها.

أما تفسير الاستواء بالاستيلاء، فهو تفسير باطل لغةً ومعنًى.

وقد سُئل ابن الأعرابي: هل تأتي استوى بمعنى استولى؟

قال: هذا لا يوجد في لغة العرب[١].

ليس له معنًى أو وجودٌ، وإنما هو مبتدَع.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ[٢]: إن الاستيلاء كلفظة اليهود التي قيل لهم قولوا: حِطَّةٌ. فقالوا: حَبَّةٌ حِنْطةٍ! فبدَّلوا اللفظ بلفظٍ من عندهم: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ﴾ [البقرة: ٥٨]، فدخلوا وهم يزحفون على مقاعدهم ويقولون: حَبَّةٌ حِنطةٍ!

فقد جُبلوا على المخالفات والعناد والكِبر؛ فقد أراد الله جَلَّ وَعَلَا منهم أن يدخلوا منحَنِين، فخالفوا في الفعل وفي القول.

وهؤلاء أيضًا خالفوا قول الله جَلَّ وَعَلَا قاصدين لذلك؛ فبدلوا هذا التبديل.

ولكنْ هذا تبديل من اختيارهم، وليس تبديلًا لكلام الله جَلَّ وَعَلَا؛ فكلام الله ثابتٌ أنه الاستواء، والاستواء غير الاستيلاء، ولا يقال: استولى على كذا إلا إذا كان مُغالَبًا عليه. يقال: استولى على البلد؛ لأنه كان بيد غيره أولًا. والله جَلَّ وَعَلَا لا يغالِبُه أحد، تعالى الله وتقدَّس.

فهذا أمر واضح، وهو يدل على علو الله، بل هو صريح في ذلك.

وعلُوُّه جَلَّ وَعَلَا أمر فطري، فَطَر الله عليه عباده؛ فكل داعٍ يدعو يمد يديه إلى السماء يسأل ربه من فوق، ولا يلتفت يمينًا ولا شمالًا ولا إلى أسفل يبحث عن ربه تعالى وتقدس، إلا إذا كانت فِطْرته مُغَيَّرة ومُبَدَّلة؛ لأن الفِطَر يغَيِّرها المربِّي والمعَلِّم.

---

(١) الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار (٢/ ٦٢٠).

(٢) قال ابن القيم في «القصيدة النونية» (ص١٢١):

أُمِرَ اليهودُ بأن يقولوا حطَّةٌ ... فأبوا وقالوا حنطةٌ لهوانِ

وكذلك الجهميُّ قيل له استوى ... فأبى وزاد الحرفَ للنُّقصانِ

قال استوى استولى وذا من جَهْلِه ... لغةً وعقلًا ما هما سِيَّانِ

عِشرون وجهًا تُبطِلُ التأويلَ باسـ ... ـتولى فلا تخرُجْ عن القرآنِ

قوله: «الاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ، والكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، والإيمَانُ بِه واجِبٌ، والسُّؤالُ عَنهُ بِدعَةٌ..».

رُوِي هذا عن الإمام مالك، وأمِّ سلمة، وقد رُوِي أيضًا عن شيخ الإمام مالكٍ ـ ربيعةَ ـ أنه قال: «**الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ، وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ، وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ**»(١).

وقد ذكر الإمام مالك ما ذكره شيخه، وقد رُوِي هذا مرفوعًا، وهو لا يصح ولا يَثبُت، وروايته عن أم سلمة ضعيفة، ولكن المعنى ثابتٌ وصحيح ومعلوم.

وقوله: «مَعْلُومٌ».

هل هو معلوم معناه أم معلوم لفظُه؟

معلوم ورودُه، كما يقوله الجهمي، يقول: معلوم في الكتاب. ليس هذا هو المرادَ، معلوم معناه أنه العُلُوُّ والارتفاع، هذا هو المقصود.

وقوله: «وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ».

الكيف مجهول للخلق، والكيف هو كيفية الاستواء؛ على أي حالة استوى؟ وهذا مجهول؛ لأننا لا نحتاج إليه، ولأنه لا يمكن معرفته إلا بالمشاهَدة، وهي ممتنعة؛ إذ لا يحيط أحد بالله ﷻ، وكذلك القياس لو أمكن؛ فالله ليس كمثله شيء حتى يقاس عليه، تعالى الله وتقدس.

إذَنْ نقول: إنه معلوم المعنى، وهو الارتفاع، والعلو، والاستقرار على الشيء، والصعود إليه.

فهو معلوم في اللغة، وهذا هو مقصود الإمام مالك وغيره من السلف.

أما الكيف فمجهول، ولا يجوز السؤال عنه.

---

(١) إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل (ص٤١).

وقوله: «السُّؤالُ عَنهُ بِدعَةٌ».

والبدعة ضلالة؛ فيجب أن تُرَدَّ، فهي يراد بها التعمية، أو الاستشكال، أو التلبيس على الناس، أو غير ذلك.

فهذا هو مقصود الأئمة في ذلك، ومقصودهم بهذا اتباع كتاب الله ﷻ، دون أن ينظروا إلى أقوال هؤلاء الضُّلَّال.

وقوله: «وَعَلَاهُ الرُّحَضَاءُ».

الرُّحَضَاء: هو العَرق، أي: صار يتصبَّبُ عَرَقًا.

وهذا يدل على خوف الإمام مالك رحمه الله، وأن هذا الرجل جاء ببدعة منكَرة؛ لأن الاستواء واضح، والسؤال عنه يدل على وجود مرض في قلب السائل، أو أن له غرضًا خبيثًا؛ ولهذا قال: «**وَمَا أراكَ إلا ضَالًّا**»، **وأَمَرَ بِه أنْ يُخْرَجَ مِنْ مَجْلِسِه**». وهذا فيه إنكار البدع، والغلظة على أصحابها، وعدم مجالستهم، وعدم إقرارهم على الشيء، فهو لم يجادله أو يخاصمه؛ لأن المجادلة في مثل هذه الأمور الواضحة لا تجوز أصلًا، وقد تكون سببًا لنشر الباطل.

وقول الإمام ابن المبارك رحمه الله: «**نَعْرِفُ ربَّنا فوقَ سبعِ سمواتٍ، على العرشِ اسْتَوَى، بائنًا مِن خَلْقِه، ولا نقول كما قَالتِ الجَهْمِيَّة: إنَّه هَاهُنَا**».

قوله: «ولا نقول كما قَالتِ الجَهْمِيَّة: إنَّه هَاهُنَا» أي: إنه ﷻ في كل مكان تعالى وتنزَّه.

وقوله: «مَنْ لَمْ يَقُلْ بِأنَّ اللهَ عز وجل على عَرْشِهِ قَد اسْتَوَى»

أي: أنه قد استوى حَسَب ما أخبرنا ربنا ﷻ في ذلك.

وسيأتي أن الاستواء لا يخالف المعيَّة؛ فهو على العرش، وهو مع خَلْقِه.

وليس معنى المعية العلم فقط؛ فالمعَّية هي الاطلاع، والسمع، والإحاطة، وأنهم في قبضته، وعِلْمُه محيط بكل شيء تعالى وتقدس.

ولكن السلف عبَّروا بالعلم فقط؛ لئلا يُتوهَّم أنه مختلط في خلقه تعالى الله وتقدس، قالوا: معهم بعلمه وسمعه وإحاطته.

وقوله: «بائنًا مِن خَلْقِه».

جاءت هذه الكلمة عن عدد من السلف، ومعنى البينونة أنه ليس مختلطًا في خلقه تعالى وتقدس؛ فهو فوق عرشه، ولا يخفى عليه شيء مما يقوله العباد أو يعملونه، وكلهم في قبضته وإحاطته.

ولما بلغ الإمامَ أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ قولُ ابن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ، قال: وهو كذلك عندنا.

وهذا أُخِذ منه أيضًا ما ذكره الدارمي في رده على الجهمية أن الله جَلَّ وَعَلَا يقول: إنه ليس له حدٌّ، ولكِنْ حَدٌّ لا يعلمه إلا هو.

ومعنى «ليس له حدٌّ» هو معنى «بائن مِن خَلْقِه». وجاء عن بعض السلف أنه ليس له حَدٌّ، فإذا قال: ليس له حَدٌّ.

أي: ليس له حَدٌّ يعلمه الخلق؛ لأنه جَلَّ وَعَلَا لا يُحاط به، تعالى وتقدس.

وقوله: «يُسْتَتَابُ، فإنْ تَابَ وإلا ضُرِبَتْ عُنُقُهُ، وأُلقِي على بعضِ المزابِلِ؛ حتَّى لا يتأذَّى المسلمون ولا المعاهَدون بِنَتَنِ رائِحَةِ جِيفَتِهِ».

المراد بذلك بيان التغليظ في هذا الأمر، والحكم عليه بالكفر والرِّدَّة؛ لأن الذي يُقتَل هو المرتَدُّ، كما قال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»**[1].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الجهاد والسير، باب: لا يعذب بعذاب الله (٦١/٤) برقم (٣٠١٧) من حديث عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وقوله ﷺ: «**لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ**»[1].

وقوله: «وكانَ مالُه فَيْئًا».

الفَيء: هو الرجوع.

والمقصود أن يكون ماله في بيت المال، ولا يأخذه ورثته؛ لأن الأموال محرَّمة على الكفار، ولا تحل لهم بكُفرِهم؛ ولهذا إذا أخذها المسلمون، قيل: أنها فيء، والفيء تكون قد رجعت إلى مكانها، والله ﷻ جعل الرزق ليُتقوَّى به على عبادته، فإذا كان يتقوَّى به على معاصيه، فهو عاصٍ **من جهتين**:

من جهة أفعاله، **ومن جهة** أكْلِ رزق الله ﷻ

ليتقوَّى به على محاربة دينه ومحاربة عباده. وقد جاء في «الصحيحين»: «**لَا يَرِثُ الْمُسْلِمُ الكَافِرَ، وَلَا الكَافِرُ الْمُسْلِمَ**»[2]. فلا توارُثَ بين أصحاب دينينِ مختلفينِ.

وقوله: «وإمامنا أبو عبد الله محمد بن إدريس الشَّافعي رضي الله عنه احتج في كتابه «المبسوط» في مسألة إعتاق الرقبة المؤمنة في الكفارة، وأن غير المؤمنة لا يصح التكفير بها».

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الدِّيَات، باب قول الله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥] (٩/ ٥) برقم (٦٨٧٨)، ومسلم في صحيحه، في كتاب القَسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب ما يباح به دم المسلم (٣/ ١٣٠٢) برقم (١٦٧٦) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الفرائض، باب لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم: ٨/ ١٥٦ برقم (٦٧٦٤)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الفرائض: ٣/ ١٢٣٣ برقم (١٦١٤) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

ذُكر عن الشافعي في مسألة عتق الرقبة المؤمنة أنه لا يصح التكفير بالكافرة؛ لأن الله شرط ذلك في قوله ﷻ: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢].

وحديث المرأة، الذي ذكَرَه: رواه مسلمٌ في صحيحه عن معاوية بن الحكم السُّلميِّ ﷺ، قال: «كَانَتْ لِي جَارِيَةٌ تَرْعَى غَنَمًا لِي قِبَلَ أُحُدٍ وَالْجَوَّانِيَّةِ، فَاطَّلَعْتُ ذَاتَ يَوْمٍ فَإِذَا الذِّئْبُ قَدْ ذَهَبَ بِشَاةٍ مِنْ غَنَمِهَا، وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ، آسَفُ كَمَا يَأْسَفُونَ، لَكِنِّي صَكَكْتُهَا صَكَّةً، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَعَظَّمَ ذَلِكَ عَلَيَّ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا أُعْتِقُهَا؟ قَالَ: «**ائْتِنِي بِهَا**». فَأَتَيْتُهُ بِهَا، فَقَالَ لَهَا: «**أَيْنَ اللهُ؟**» قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ. قَالَ: «**مَنْ أَنَا؟**» قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ. قَالَ: «**أَعْتِقْهَا؛ فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ**»[1].

فاكتفى بكونها أثبتت ربها في السماء، وأنها آمنت بالرسول، ومعنى هذا أنه يُكتفى في عتق الرقبة بهذا الإيمان، ولكن هذا الإيمان ليس هو الإيمانَ الذي ذكره الله ﷻ في قوله:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

فالإيمان في العتق غير الإيمان الذي يكون محقَّقًا، ويقتضي وَجَلَ القلب عند ذكر الله، وزيادةَ الإيمان عند ذكر آياته.

ومثل هذا الإيمان يكفي ظاهره في التوارث دون باطنه؛ ولهذا يتوارث المسلم مع المنافق؛ لأن المنافق لما أظهر الإسلام كان له هذا الحكم.

وهذا الحديث السابق يدل على علو الله ﷻ، وجواز الإشارة إلى الله.

---

(١) سبق تخريجه.

وكثير من أهل البدع يعيبون على أهل السُّنَّة ذلك، يسمونهم الأينيَّة؛ لأنهم يسألون ويقولون: أين الله؟ فنقول: إمامنا رسول الله ﷺ في هذا، ولا عيب علينا في ذلك، والعيب على من ينكِر!

وعلى هذا تصلح الإشارة إلى الله ﷻ بأنه فوق، ويصلح أن نقول: أين الله؟ والجواب أن نقول: إنه في السماء.

والمقصود بالسماء العلوُّ، لا أن السماء المبنية تحويه أو تحيط به!! تعالى وتقدس، فهذا لا يكون؛ لأن الله لا يُحاط به ولا يحويه مكان، تعالى وتقدس.

وقوله: «إذا سمعوا خبرًا في صفات الرب ردُّوه أصلًا».

هؤلاء هم المعتزلة الذين أوجدوا لهم أصولًا استنتجوها بعقولهم بدلًا من أن يأخذوها من كتاب الله؛ ولهذا كَثُر الخلاف بينهم وكَثُر التفَرُّق؛ فيأتي كل واحد منهم بحُجَّة تبطل حجة الآخر فيفارقه! وهذا شأن أهل البدع كلهم، وليس المعتزلة فحَسْب.

وقوله: قال الله ﷻ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ ـ ٤].

يجب أن نهتدي بالوحي ونأخذ به، ولا ننظر إلى كلام أهل البدع.

قوله: «وخطب خالد بن عبد الله القسري يوم الأضحى بالبصرة..»

قصة تضحية خالد بن عبد الله القسري رحمه الله بالجعد بن درهم، فقد رواها البخاري رحمه الله في كتاب «خَلْق أفعال العباد»[(١)] ورواها كذلك في «التاريخ»[(٢)]، وغيرهما، وهي ثابتة.

وقد سمى العلماء خالد بن عبد الله القسري رحمه الله قصَّابَ الزنادقة؛

---

(١) خلق أفعال العباد (ص: ٢٩).

(٢) التاريخ الكبير (١/ ٦٤) برقم (١٤٣).

لأنه قتل عددًا منهم؛ ولهذا كان أهل الأدب الذين يريدون أمورًا باطلة يعيبونه ويرمونه بأشياء هو بريء منها، ويقولون: إن أمَّه نصرانية، وإنه بنى لها كنيسة.

وكل هذا كَذِب وإلباس؛ بسبب قتله هؤلاء المجرمين، فما أكثَرَ الباطِلَ الذي يُرمى به أهلُ الحق من قديم الزمان!



[قال رَحِمَهُ اللهُ]: «ويُثبِتُ أصحابُ الحديثِ نُزُولَ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ كلَّ ليلةٍ إلى السَّماءِ الدُّنيا، من غير تشبيهٍ له بِنُزُول المخلوقِينَ، ولا تمثيلٍ ولا تَكْييفٍ؛ بل يُثبِتُون ما أثْبتَهُ رسولُ الله ﷺ، وَيَنْتَهونَ فيهِ إليه، ويُمِرُّونَ الخَبَرَ الصَّحيح الوارد بذِكْرِهِ على ظَاهِرِهِ، ويَكِلُونَ عِلمَهُ إلى الله.

وكذلك يُثْبِتُونَ ما أنزلَهُ الله عَزَّ اسْمُهُ في كتابِه؛ من ذِكرِ المَجِيء والإتيَانِ المذْكُورَينِ في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وقوله عَزَّ اسْمُهُ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢].

وقرأتُ في رسَالَةِ الشَّيخ أبي بكر الإسماعِيلي إلى أهل جيلان: أنَّ الله سبحانه يَنْزِلُ إلى السَّماء الدُّنيَا، على ما صحَّ به الخَبرُ عن الرَّسول ﷺ[1]، وقد قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وقال: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، ونُؤْمِنُ بذلك كله على ما جاء بلا كَيْفٍ، فلو شاء سبحانه أنْ يُبَيِّنَ لنا كَيفيَّة ذلك فَعَل؛ فانْتَهَيْنَا إلى ما أحكَمَه، وكَفَفْنَا عن الذي يتشابه؛ إذ كنَّا قد أُمِرنَا بهِ في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

أخبرنا أبو بكر بن زكريَّا الشَّيبانِي، قال: سمعت أبا حامد بن الشَّرقِي يقولُ: سمعتُ حمدان السُّلمي وأبا داود الخفَّاف يقولان: سَمِعْنَا إسحاق بن إبراهيم الحَنْظَلي يقولُ: قال لي الأميرُ عبد الله بن طاهر:

---

(١) اعتقاد أئمة الحديث (ص: ٦٢).

يا أبا يعقوب، هذا الحديث الذي تَرْوِيهِ عن رسول الله ﷺ «**يَنْزِلُ رَبُّنَا كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا**». كَيْفَ يَنْزِلُ؟ قال: قلتُ: أعزَّ الله الأميرَ، لا يقالُ لأمْرِ الرَّبِّ كَيْفَ؟ إنَّما يَنْزِلُ بلا كَيْفٍ(١).

حدَّثنا أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم العدل، حدثنا محبوب بن عبد الرَّحمن القاضِي، حدَّثني جدِّي أبو بكر بن محمد بن أحمد بن محبوبٍ، حدَّثنا أحمد بن حمويه، حدَّثنا أبو عبد الرحمن العتكي، حدَّثنا محمد بن سلامٍ، سألتُ عبد الله بن المُبَارك عن نُزُولِ ليلَة النِّصفِ من شعبان، فقال عبد الله: يا ضَعِيفُ، ليْلَة النِّصف! يَنْزِل في كلِّ لَيْلَة، فقال له الرَّجل: يا أبا عبد الرَّحمن، كيف يَنْزِلُ؟ أليس يخلو ذلك المكانُ منهُ؟ فقال عبد الله: يَنْزِلُ كَيْفَ يشاء(٢).

وفي روايةٍ أُخرى لهذه الحكاية أنَّ عبد الله بن المبارك قال للرَّجُلِ: إذا جاءكَ الحديثُ عن رسولِ الله ﷺ، فاخضَعْ لَه.

سمعتُ الحاكم أبا عبد الله الحافظَ يقول: سمعتُ أبا زكريَّا يحيى بن محمد العَنْبَرِي يقولُ: سمعتُ إبراهيم بن أبي طالبٍ يقولُ: سمعت أحمد بن سعيد بن إبراهيم أبا عبد الله الرِّباطِي يقولُ: حَضَرْتُ مجلس الأمير عبد الله بن طاهرٍ ذاتَ يومٍ، وحضرَ إسحاقُ بن إبراهيم - يَعنِي ابنَ راهَوَيْه - فسُئِل عن حديثِ النُّزُول: أصحِيحٌ هو؟ قال: نعم، فقال له بعض قُوَّاد عبد الله: يا أبا يعقوب، أتَزْعُمُ أنَّ الله تَعالى يَنْزِل كلَّ ليلَةٍ؟ قال: نعم، قال: كيف يَنْزِلُ؟ فقال له إسحاقُ: أثْبِتْهُ فوق حتى أصِفَ لك النُّزُولَ، فقال الرَّجُلُ: أثْبَتُّه فوق، فقال إسحاقُ: قالَ اللّهُ ﷻ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]. فقال الأمير عبد الله: يا أبا

---

(١) الاقتصاد في الاعتقاد للمقدسي (ص: ١١٢).

(٢) الحجة في بيان المحجة (٢/ ١٢٨).

يعقوب، هذا يومُ القيامة، فقال إسحاق: أعزَّ الله الأمير، ومن يَجِيءُ يومَ القيامة من يَمْنَعُهُ اليومَ؟[١].

وخَبَرُ نُزُولِ الرَّبِّ ﷻ كلَّ ليلةٍ إلى السماء الدُّنيا: خبرٌ متَّفَقٌ على صِحَّتِهِ، مُخرَّجٌ في الصَّحيحين من طريقِ مالكِ بن أنسٍ، عن الزُّهري، عن الأغرِّ وأبي سَلَمَة، عن أبي هريرة.

أخبرنا أبو علي زاهِرُ بن أحمد، حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الصَّمد، حدثنا أبو مصعب، حدثنا مالكٌ (ح).

وحدَّثنا أبو بكر بن زكريَّا، حدَّثنا أبو حاتمٍ مكيُّ بن عبدان، حدَّثنا محمد بن يحيى قال: وفيما قرأتُ على ابن نافعٍ، وحدَّثني مُطَرِّفٌ عن مالكٍ (ح).

وحدَّثنا أبو بكر بن زكريَّا، أنبأنا أبو القاسم عبيد الله بن إبراهيم بن بالويه، حدَّثنا يحيى بن محمد، حدَّثنا يحيي بن يحيى، قال: قرأتُ على مالكٍ، عن ابن شهابٍ الزُّهري، عن أبي عبد الله الأغرِّ وأبي سلمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى في كلِّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الأَخِيرُ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ وَمَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ وَمَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟**»[٢].

ولهذا الحديثِ طُرقٌ إلى أبي هريرةَ.

رواهُ الأوزاعِي، عن يحيى بن أبي كثيرٍ، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة (ح).

---

(١) العلو للعلي الغفار (ص: ١٧٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل (٢/ ٥٣) برقم (١١٤٥)، ومسلم في صحيحه، في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، والإجابة فيه (١/ ٥٢١) برقم (٧٥٨).

ورواهُ يزيد بن هارون وغيره من الأئمةِ، عن محمد بن عمرٍو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة.

ومالكٌ، عن الزُّهري، عن الأعْرَجِ، عن أبي هريرة.

ومالكٌ، عن الزُّهري، عن سعيد بن المُسيِّب، عن أبي هريرة.

وعُبيدُ الله بن عُمر، عن سعيد بن أبي سعيدٍ المَقْبُري، عن أبي هريرة.

وعبدُ الأعلى بن أبي المساور، وبشير بن سلمان، عن أبي حازمٍ، عن أبي هريرة.

ورواهُ نافعُ بن جُبيرِ بن مُطْعِمٍ عن أبيهِ.

وموسى بن عُقبَة، عن إسحاق بن يحيى، عن عُبادةَ بن الصَّامت.

وعبد الرَّحمن بن كعب بن مالكٍ، عن جابر بن عبد الله.

وعُبيدُ الله بن أبي رافعٍ، عن علي بن أبي طالب.

وشَريكٌ، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعودٍ.

ومحمد بن كعب، عن فضالة بن عُبيدٍ، عن أبي الدَّرداء.

وأبو الزُّبير، عن جابرٍ.

وسعيد بن جبيرٍ، عن ابن عباسٍ.

وعن أُمِّ المؤمنين عائشةَ، وأُم سَلَمَة رضي الله عنهما.

وهذه الطُّرقُ كلها مُخرَّجةٌ بأسانيدها في كتابنا الكبير، المعروف بالانتصار.

وفي روايةِ الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كَثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسولِ الله ﷺ: «**إِذَا مَضَى نِصْفُ اللَّيْلِ أَوْ ثُلُثَاهُ، يَنْزِلُ اللَّهُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَيُعْطَى؟ هَلْ مِنْ**

دَاعٍ فَيُسْتَجَابَ لَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فيُغْفَرَ لَهُ؟ حتى ينفجرَ الصُّبحُ»(١).

وفي روايةِ سعيد بن مُرجانة عن أبي هريرةَ زيادةٌ في آخره، وهي: «**ثُمَّ يَبْسُطُ يَدَيْهِ، فيقُولُ: مَنْ يُقْرِضُ غيرَ عَدُومٍ ولا ظَلُومٍ؟!**»(٢).

وفي روايةِ أبي حازمٍ، عن أبي هريرةَ، عن رسولِ الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَنْزِلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فِي ثُلُثِ اللَّيْلِ الأخِيرِ، فيُنادِي: هل مِنْ سَائِلٍ فأُعْطِيَهُ؟ هل مِن مُستَغْفِرٍ فأغفِرَ لَهُ؟ فلا يَبْقَى شَيء فيهِ الرُّوحُ إلا عَلِمَ بِه، إلا الثَّقَلان؛ الجِنُّ والإنس**» قال: وذلك حين تَصِيح الدِّيَكَة، وتَنهقُ الحَمِيرُ، وتَنبحُ الكِلَابُ».

وفي رواية موسى بن عقبة، عن إسحاق بن يحيى، عن عبادة بن الصَّامت: زياداتٌ حسنة، وهي التي أخبرنا بها أبو يعلى حمزة بن عبد الله المهلبي قال: أنبأنا عبد الله بن محمد الرازي، قال: أنبأنا أبو عثمان محمد بن عثمان بن أبي سويد، قال: حدَّثنا عبد الرحمن ـ يعني ابن المبارك ـ قال: حدَّثنا فضيل بن سليمان، عن موسى بن عقبة، عن إسحاق بن يحيى، عن عبادة بن الصَّامت، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ينزلُ ربُّنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السَّماء الدُّنيا حتى يبقى ثُلثُ الليل الآخِرُ، فيقول: ألا عبدٌ من عبادي يدعوني فأستجيبَ له؟ ألا ظالمٌ لنفسه يدعوني فأغفِرَ له؟ ألا مُقتَّرٍ عليه رزقُه فيدعوني فأرزُقَه؟ ألا مظلوم يذكُرُني فأنصُرَه؟ ألا عانٍ يدعوني فأفُكَّه؟ قال:**

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، والإجابة فيه (١/ ٥٢٢) برقم (٧٥٨).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، والإجابة فيه (١/ ٥٢٢) برقم (٧٥٨).

فيكون كذلك إلى أن يطلُعَ الصبح ويعلو على كُرسِيِّه»[١].

وفي رواية أبي الزبير، عن جابر، من طريق مرزوقٍ أبي بكر، الذي خرجه محمد بن إسحاق بن خُزيمة ـ مُختَصَرة[٢].

ومن طريق أيوب، عن أبي الزبير، عن جابر، الذي خرجه الحسن بن سفيان في مسنده.

ومن طريق هشام الدستوائي، عن أبي الزبير، عن جابر، أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ عشيَّةَ عرفةَ يَنزل الله فيه إلى السَّماء الدُّنيا فيباهي بأهل الأرض أهلَ السماء، ويقول: انظروا إلى عبادي شُعثًا غُبرًا ضاحين، جاؤوا من كل فجٍّ عميق، يرجون رحمتي ولم يروا عذابي، فلم يُرَ يومٌ أكثَرُ عتقًا من النار من يوم عرفة!**»[٣].

وروى هشام الدستوائي، عن يحيى بن أبي كثيرٍ، عن هلال بن أبي ميمونة، عن عطاء بن يسارٍ، عن رِفاعة الجُهني، حدَّث أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيلِ، أو شَطْرُ اللَّيلِ، أو ثُلُثَاهُ؛ يَنْزِلُ اللّهُ إلى السَّماء الدُّنيا فيقولُ: لا أسألُ عن عِبَادِي غيري؛ من يَستغفِرُنِي فأَغْفِرَ لَه؟ مَنْ يَدْعُونِي فأستجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسألُنِي فأُعْطِيَه؟ حتَّى يَنفَجِرَ الصُّبْحُ**»[٤].

أخبرنا أبو محمد المخلدي، أنبأنا أبو العباس السرَّاج، حدَّثنا

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٦/ ١٥٩) برقم (٦٠٧٩).

قال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (١٠/ ١٥٤): رواه الطبراني في الكبير والأوسط بنحوه، ويحيى بن إسحاق لم يسمع من عبادة، ولم يروِ عنه غير موسى بن عقبة، وبقية رجال الكبير رجال الصحيح.

(٢) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه (٤/ ٢٦٣) برقم (٢٨٤٠).

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٩/ ١٦٤) برقم (٣٨٥٣).

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦/ ١٥٢) برقم (١٦٢١٥)، وابن حبان في صحيحه (١/ ٤٤٤) برقم (٢١٢).

محمد بن يحيى، حدَّثنا عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن أبي مسلمٍ الأغرِّ، قال: أشهدُ على أبي سعيد وأبي هريرة أنَّهما شَهِدَا على رسول الله ﷺ، وأنا أشهدُ عليهما أنَّهما سَمِعَا النَّبِيَّ ﷺ يقول: «**إنَّ اللهَ يُمْهِلُ، حتى إذَا ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيلِ الأوَّلُ، هَبَطَ إلى السَّماء الدُّنيا، فيقول: هل من مُذنبٍ؟ هل من مستغفرٍ؟ هل من سائلٍ؟ هل من داعٍ؟ حتى تَطلُعَ الشَّمس**».

أخبرنا أبو محمد المخلدي، أنبانا أبو العباس الثَّقفي، حدثنا الحسن بن الصَّبَّاح، حدَّثنا شبابة بن سوار، عن يونس بن أبي إسحاق، عن أبي مسلم الأغرِّ، قال: أشهدُ على أبي سعيد وأبي هريرة أنَّهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ يُمْهِلُ، حتَّى إذا كانَ ثُلُثُ اللَّيلِ، هَبَطَ إلى هذهِ السماء، ثُمَّ أمَرَ بأبوابِ السَّماء ففُتِحَت، فقال: هل من سائلٍ فأُعطِيَه؟ هل من داعٍ فأُجِيبَه؟ هل من مُستغفرٍ فأغفِرَ له؟ هل من مُضطرٍ أكشِفُ عنه ضُرَّهُ؟ هل من مُستغيثٍ أُغيثُه؟ فلا يزالُ ذلك مَكانَه حتَّى يطلُعَ الفَجرُ في كل ليلةٍ من الدُّنيَا**»(١).

أخبرنا أبو محمد المخلدي، حدَّثنا أبو العبَّاس - يعني الثَّقفي - حدثنا مجاهد بن موسى، والفضل بن سهلٍ، قالا: حدَّثنا يزيد بن هارون، حدَّثنا شرِيكٌ، عن أبي إسحاق، عن الأغرِّ، أنَّه شهِدَ على أبي هريرة وأبي سعيد أنَّهما شهدا على رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**إذا كانَ ثُلُثُ اللَّيل، نَزَلَ - تبارك وتعالى - إلى السَّماء الدُّنيا، فقال: ألا هل من مستغفرٍ يُغفَرُ له؟ هل من سائلٍ يُعطى سُؤلَهُ؟ ألا هل من تَائبٍ يُتابُ عليهِ؟**»(٢).

---

(١) أخرجه بنحوه الدارقطني في كتاب النزول (ص: ١٣٥) برقم (٦٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، والإجابة فيه (١/ ٥٢٣) برقم (٧٥٨).

حدَّثنا الأستاذ أبو منصور بن حمشاد، حدَّثنا أبو علي إسماعيل بن محمد الصفَّار ببغداد، حدَّثنا أبو منصور الرَّمادي، حدَّثنا عبد الرَّزاق، أنبأنا مَعمَرٌ، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**يَنزِلُ اللّهُ تَعالَى في كل ليلةٍ إلى السَّماء الدُّنيا، فيقول: أنا المَلِكُ أنا المَلِكُ - ثلاثًا - من يسألُني فأُعطِيَهُ؟ من يدعُونِي فأستجِيبَ له؟ مَنْ يَستغفِرُنِي فأغفِرَ لَهُ؟ فلا يَزَالُ كذلِكَ حتى يطلُعَ الفَجر**».

سمعتُ الأستاذ أبا منصور على إثرِ هذا الحديث الذي أملاهُ علينا يقول: سُئِل أبو حنيفة عنه فقال: «يَنْزِلُ بِلَا كَيْفٍ»[1].

وقال بعضهم: «يَنْزِلُ نُزولًا يليق بالرُّبوبية بلا كيفٍ، من غير أن يكونَ نُزُولُه مثلَ نُزُولِ الخلقِ، بالتخَلِّي والتملِّي؛ لأنَّه ﷻ منزَّهٌ أن تكون صفاته مثل صفاتِ الخلقِ، كما كان منزَّهًا أن تكون ذاتُه مثلَ ذواتِ المخلوقين؛ فمجيئُه وإتيانه ونُزُوله على حسَب ما يليقُ بصفاته، من غير تشبيهٍ وكيفٍ[2].

وقال الإمامُ أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة في كتاب «التوحيد» الذي صنَّفه، وسمعته من حفيده أبي طاهر رحمه الله: باب ذِكْرِ أخبار ثابتة السَّند، رواها علماء الحجاز والعراق، في نزول الرَّب إلى السَّماء الدُّنيا كل ليلة من غير صفة كيفية النُّزُول، مع إثبات النُّزُول، فنشهدُ شهادةَ مُقِرٍّ بلسانِهِ، مُصَدِّق بقَلْبِهِ، مستيقِنٍ بما في هذه الأخبار من ذِكْرِ النُّزُول، من غير أن نَصِفَ الكيفية؛ لأنَّ نبيَّنا محمدًا ﷺ لم يصِفْ لنا كيفية نزول خالِقِنا إلى السماء الدُّنيا، وأعلَمَنَا أنَّه ينزِلُ،

---

(١) الاقتصاد في الاعتقاد للمقدسي (ص: ١٠٩)، الأسماء والصفات للبيهقي (٢/ ٣٨٠).

(٢) الأسماء والصفات للبيهقي (٢/ ٣٨٠).

والله ﷻ ولَّى نبيه ﷺ بيانَ ما بالمسلمين إليه الحاجةُ من أمرِ دينهم، فنحنُ قائلون مصدِّقون بما في هذه الأخبار من ذكر النُّزُول، غير متكلِّفين للنزولِ بصفةِ الكيفية؛ إذ النَّبيُّ ﷺ لم يصِفْ لنا كيفيَّةَ النُّزُول[1] اهـ.

أخبرنا الحاكم أبو عبد الله الحافظ، حدثنا أبو محمد الصَّيدلاني، حدَّثنا علي بن الحسين بن الجنيد، حدَّثنا أحمد بن صالح المصري، حدَّثنا ابن وهب، أنبأنا مَخْرَمَة بن بُكيرٍ، عن أبيه (ح).

وأخبرنا الحاكم، حدَّثنا محمد بن يعقوب الأصم، واللَّفظ له، حدَّثنا إبراهيم بن منقذ، حدثنا ابن وهب، عن مَخْرَمَة بن بُكير، عن أبيه، قال: سمعتُ محمد بن المُنكَدِر يزعم أنَّه سمعَ أُم سلمة زوجَ النَّبي ﷺ تقولُ: «نِعْمَ اليَومُ يومٌ يَنزِلُ الله تعالى فيهِ إلى السَّماء الدُّنيا!»، قالوا: وأيُّ يَومٍ ذلكَ؟ قالت: «يَومُ عَرَفَة»[2].

وروت عائشة رضي الله عنها عن النَّبي ﷺ قال: «**يَنْزِلُ اللّهُ تَعَالَى في النِّصْفِ من شَعْبَانَ إلى السَّمَاءِ الدُّنيا ليلًا إلى آخِرِ النَّهارِ مِنَ الغَدِ، فَيُعْتِقُ من النَّارِ بِعَدَدِ شَعْرِ مَعزِ بَنِي كَلْبٍ، ويُكتَبُ الحاجُّ، ويُنْزِلُ أرزاقَ السَّنَةِ، ولا يَتْرُكُ أحدًا إلا غَفَرَ لَهُ، إلا مُشْرِكًا، أو قَاطِعَ رَحِمٍ، أو عَاقًا، أو مُشَاحِنًا**»[3].

أخبرنا أبو طاهر بن خزيمة، حدَّثنا جدِّي الإمام، حدَّثنا

---

(١) التوحيد لابن خزيمة (١/ ٢٨٩).

(٢) أخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى (٧/ ٢٣٦) برقم (١٧٨)، والدارقطني في النزول (ص: ١٧٤) برقم (٩٥).

(٣) أخرجه مختصرًا الترمذي في سننه، في كتاب الصوم، باب ما جاء في ليلة النصف من شعبان (٣/ ١٠٧) برقم (٧٣٩)، وابن ماجه في سننه، في كتاب إقامة الصلاة، والسنة فيها، باب ما جاء في ليلة النصف من شعبان (١/ ٤٤٤) برقم (١٣٨٩).

الحسن بن محمد الزَّعفراني، حدَّثنا إسماعيل ابن عُلَيَّة، عن هشام الدستوائي(ح).

قال الإمام: وحدَّثنا الزَّعفراني، حدَّثنا عبد الله بن بكر السَّهمي، حدَّثنا هشام الدستوائي، وحدَّثنا الزَّعفراني، حدَّثنا يزيد ـ يعني ابن هارون ـ الدستوائي (ح).

وحدَّثنا محمد بن عبد الله بن ميمون بالإسكندرية، حدَّثنا الوليد، عن الأوزاعي.

جميعًا: عن يحيى بن أبي كثير، عن هلال بن أبي ميمونة عن عطاء بن يسار، حدَّثني رِفَاعَة بن عرابة الجُهني (ح).

قال الإمام: وحدَّثنا أبو هاشم زياد بن أيوب، حدثنا مبشر بن إسماعيل الحلبي، عن الأوزاعي، حدَّثنا يحيى بن أبي كثير، حدَّثني هلال بن أبي ميمونة، عن عطاء بن يسار، حدَّثني رفاعة بن عرابة الجُهَني، قال: «صَدَرْنَا مع رسولِ الله ﷺ من مكة، فجعلوا يَستأذِنُونَ النَّبِيَّ ﷺ فَجَعلَ يَأذَنُ لهم، فقالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا بَالُ شِقِّ الشَّجَرِ الذي يَلِي رسولَ اللهِ ﷺ أبْغَضَ إليْكُمْ مِنَ الآخَرِ؟! فلا يُرى من القوم إلا باكيًا**». قال: يقول أبو بكر الصِّديق: إنَّ الذي يستأذنك بعدها لسَفِيه! فقامَ النَّبِي ﷺ، فَحَمِدَ الله وأثنى عليه، وكان إذا حلفَ قال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، أشْهَدُ عِنْدَ اللهِ، مَا مِنْكُمْ مِنْ أحَدٍ يُؤمِنُ بِاللهِ واليَوْمِ الآخِرِ ثُمَّ يُسَدِّدُ، إلا سَلَكَ بِهِ في الجَنَّةِ، ولَقَد وَعَدَنِي رَبِّي أنْ يُدْخِلَ مِنْ أُمَّتِي الجَنَّةَ سَبْعِينَ ألفًا بِغَيرِ حِسَابٍ ولا عَذَابٍ، «وإنِّي لأرجُو أن لا يَدْخُلُوهَا حتَّى تَتَبَوَّؤا ومَنْ صَلَحَ مِنْ أزوَاجِكُمْ وذُرِّيَّاتِكُمْ مَسَاكِنَكُمْ فِي الجَنَّةِ**». ثم قال ﷺ: «**إذَا مَضَى شَطْرُ اللَّيلِ ـ أو قال: ثُلُثَاهُ ـ يَنْزِلُ اللّهُ إلى السَّماءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ يقول: لا أسأَلُ عَنْ عِبَادِي غَيْرِي،**

مَنْ ذَا الذِي يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ ذَا الذِي يَدْعُونِي فَأُجِيبَهُ؟ مَنْ ذَا الذِي يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟ حَتَّى يَنْفَجِرَ الصُّبْحُ»[١]. هذا لفظ حديث الوليد.

قال شيخ الإسلام: قلتُ: فلمَّا صحَّ خبَرُ النُّزُول عن الرَّسول ﷺ أقرَّ بِه أهلُ السنَّة، وقبلوا الخبر، وأثبتوا النُّزُول على ما قالهُ رسول الله ﷺ، ولم يعتقدوا تشبيهًا له بنُزول خَلْقِه، ولم يبحثوا عن كيفيته؛ إذ لا سبيل إليها بحال، وعلِمُوا وعرفوا وتحقَّقُوا واعتقدوا أنَّ صفاتِ الله سبحانه لا تشبِه صفاتِ الخَلْقِ، كما أنَّ ذاتَه لا تُشبِه ذوات الخلقِ، تعالى الله عمَّا يقول المُشَبِّهةُ والمُعَطِّلةُ علوًّا كبيرًا، ولعنهم لعنًا كثيرًا.

وقرأت لأبي عبد الله بن أبي حفص البخاري ـ وكان شيخ بخارَى في عصره بلا مدافعة ـ وأبو حفص هذا كان من كبار أصحابِ محمد بن الحسن الشيباني، قال أبو عبد الله: ـ أعني ابن أبي حفص ـ هذا عبد الله بن عثمان ـ وهو عبدان شيخ مَرْو ـ يقول: سمعتُ محمد بن الحسن الشَّيباني يقول: قال حمَّاد بن أبي حنيفة: قلنا لهؤلاء: أرأيتم قول الله ﷻ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، وقوله ﷻ: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، فهل يجيء ربُّنا كما قال؟ وهل يجيء المَلَكُ صفًّا صفًّا؟ قالوا: أمَّا الملائكةُ فيجيئون صفًّا صفًّا، وأمَّا الربُّ تعالى فإنا لا ندري ما عنى بذلك، ولا ندري كيفية جِيئته. فقلنا لهم: إنَّا لم نكَلِّفكم أنْ تعلموا كيف جيئَتُه، ولكنَّا نكَلِّفُكم أنْ تُؤمِنوا بمجيئه، أرأيتم مَن أنكر أنَّ الملائكة لا تجيء صفًّا صفًّا، ما هو عندكم؟ قالوا: كافرٌ مكذِّبٌ، قلنا: فكذلك من أنكر أنَّ الله سبحانه لا يجيء، فهو كافرٌ مكذِّبٌ.

(١) أخرجه ابن خزيمة في التوحيد (١/ ٣١٢) برقم (٣٧).

قال أبو عبد الله بن أبي حفص البخاري أيضًا في كتابه: ذَكَر إبراهيم بن الأشعث قال: سمعتُ الفُضَيل بن عياض يقول: إذا قال لك الجهمي: إنَّا لا نُؤمن بربٍّ يزول عن مكانِهِ، فقل أنت: أنا أُؤمِنُ بربٍّ يفعل ما يشاء[1].

الشَّرح

إن صفات الله جلَّ وعلا ليست من المتشابِه، بل هي من المحكَم البيِّن الظاهر.

وقد كرر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ الاستشهاد بقوله: «**يَكِلُونَ عِلمَهُ إلى الله**»، ويستشهد بقوله: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ [آل عمران: ٧].

وهذا في الواقع فيه إجمال، ويجب أن يُفَصَّل فيه؛ لأنه إذا قصد لفظ المعنى الذي خوطب به، فليس هذا من المشكِل وليس من المتشابِه، بل هو من الواضح البيِّن الجلي.

وأما إنْ قصد حقيقة الشيء الذي هو عليه، التي يعبَّر عنها بالكيفية، **فنقول:** هذا لا يعلمه أحد من الخلق، وإنما يوكَل علمه إلى الله جلَّ وعلا.

وهذا القول يكون في جميع الصفات لا في صفة الاستواء والنزول ونحوهما، بل قد يقال هذا في المخلوقات.

فالله جلَّ وعلا أخبرنا أن الجنة فيها عنب، ونخل، وفواكه، وزوجات، ولبن، وعسل، وماء، وغير ذلك.

ونحن بعقولنا نقيس الأشياء الغائبة بالأمور الحاضرة التي نعرفها، ولكن مع الفارق البعيد جدًّا؛ لأن الأمور التي نعرفها في الدنيا تشترك مع ما في الجنة في الأسماء فقط.

---

(١) خلق أفعال العباد للبخاري (ص: ٣٦).

فلو لم نعرف هذه الأشياء عندنا في الدنيا فلا يمكن أن نعرف ما خوطبنا به؛ فكذلك إذا خاطبَنا اللهُ ﷻ بالأشياء التي تخصُّه من صفاته وأسمائه، فلو لم نعرف شيئًا عن الحياة ولا السمع ولا البصر، فلا يمكن أن نعرف ما خوطبنا به.

ولهذا قال لنا ربنا ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] أي: أن مجرد الاشتراك في اللفظ لا يقتضي المشابهة، وهذا ما دعا كثيرًا من المعطِّلة إلى أن يُعَطِّلوا صفات الرب ﷻ بحُجَّة أن إثبات الصفات يقتضي التشبيه؛ لأننا ما دمنا متصفين بالسمع والبصر فلا يجوز أن نصف الله ﷻ بذلك؛ حتى لا نكون مشبِّهين. هكذا يقولون!

فالسَّمْعُ الذي هو إدراك المسموعات، والبصر الذي هو إدراك المبصَرات: شيء معقول عرفناه، ولكن لا يمكن أن يقال: إنَّ سَمْعَ الربِّ ﷻ وبَصَرَه كسمع المخلوقين، تعالى وتقدس.

ولكننا عرفنا هذا المعنى بواسطة ما علمناه من هذه الأشياء التي نتعارف عليها.

وهذا يقال في كل ما أُخبِرْنا عنه من الأمور الغائبة، سواءٌ الأمور التي تتعلق بالرب ﷻ، أو الأمور المخلوقة التي وعد الله ﷻ بها عباده من النعيم ومن العذاب.

فإذا كان هذا يتفاوت في المخلوق، فكيف بالرب ﷻ مع المخلوق؟! تعالى الله وتقدس. وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما فيما روي عنه: «لَيْسَ فِي الْجَنَّةِ شَيْءٌ مِمَّا فِي الدُّنْيَا إِلَّا الأَسْمَاءُ»[١].

أي: مجرد أسماء فقط، أما المعاني والطُّعوم والروائح وغيرها، فأمر آخر، وقد قال الله ﷻ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ

(١) تفسير الطبري (١/ ٣٩٢)، البعث والنشور للبيهقي (ص: ٢١٠).

خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦ ـ ١٧].

وقوله: ﴿نَفْسٌ﴾ هنا نكرة يدخل فيها جميع المخلوقين، فإذا كان هذا في المخلوقات، فكيف بين الرب ﷻ وبين عباده؟!

ولا يجوز أن نقول فيما خوطبنا به من هذه المعاني: إننا نكِلُ عِلْمَه إلى الله ﷻ.

بل نقول: إننا نَعْلَمه بما عَلَّمَنا إياه.

ولهذا **نقول**: إن الله تعَرَّف إلى عباده بما ذكَرَه من أوصافه وأسمائه، فنَعرِف ربَّنا بأسمائه وصفاته ﷻ.

ولما ذَكَر الاستواء ذَكَر فيما بعدُ مسألة الخلوِّ عن العرش أو عدم الخلو، وقد يقال: إن هذه من مسائل الفضول التي ما نطقت النصوص بها، ولكن لا بد من الخطَرات التي تخطُر ببال الإنسان، فيجب أن يدفعها بالأدلة.

وقد عرفنا أن معنى الاستواء في اللغة هو: العلو، والارتفاع، والصعود، والاستقرار على الشيء.

وهذا ما قاله الإمام مالك رحمه الله، وشيخه ربيعة رحمه الله، ورُوِي عن أم سلمة زوج النبي ﷺ.

فكلهم قالوا: «الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ، وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ، وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ».

أي: بالاستواء، ولا يُسأَلُ عن كيفيته؛ لأن السؤال عنه بدعة، فمعلومٌ أن معناه في اللغة: الارتفاع على الشيء، والعلو عليه، والاستقرار عليه.

أما كيفية الاستواء فهذا أمر نجهله، ويجهله الخلق كلهم؛ لأنه ـ

كما ذكرنا من قبل - يتطلب المشاهدة، وإن لم تكن مشاهَدةٌ فيتطلب أن يكون هناك له مثيل عندنا، وكلا الأمرين ممتنع؛ فلهذا نقول: إنه مجهول.

أي: مجهول الكيفية، فلا مَطمَعَ في معرفته.

وأمر آخر وهو: أن الله لا يحاط به، فهو يحيط بالأشياء، ولا شيءَ يحيط به: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] تعالى وتقدس، وهو كما قال الرسول ﷺ في تفسير قوله:

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣] كما في صحيح مسلم:

«اللهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ»[١]. فهذا تفسير وجيز بليغ ظاهر جليٌّ لا خفاء فيه.

فهو ﷻ لا يحيط به أحد؛ هو الظاهر فوق كل شيء، والباطن دون كل شيء، لا يحول دونه ودون مراده شيء من الأشياء.

وقد روى الترمذي في «سننه» أن النبي ﷺ قال: **«وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ أَنَّكُمْ دَلَّيْتُمْ بِحَبْلٍ إِلَى الأَرْضِ السُّفْلَى لَهَبَطَ عَلَى اللهِ»** ثُمَّ قَرَأَ ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[٢].

قال الترمذي رحمه الله: «وَفَسَّرَ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ هَذَا الحَدِيثَ، فَقَالُوا: إِنَّمَا هَبَطَ عَلَى عِلْمِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ؛ عِلْمُ اللهِ وَقُدْرَتُهُ وَسُلْطَانُهُ فِي كُلِّ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع (٤/ ٢٠٨٤) برقم (٢٧١٣) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، في كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة الحديد (٥/ ٤٠٣) برقم (٣٢٩٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه.

مَكَانٍ، وَهُوَ عَلَى العَرْشِ، كَمَا وَصَفَ فِي كِتَابِهِ»[1].

وقد سُئل عنه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فاعترض على هذا التفسير، وقال: «تأويله بالعلم تأويل ظاهِرُ الفساد، من جنس تأويلات الجهمية، بل بتقدير ثبوته يكون دالًّا على الإحاطة.

والإحاطة قد عُلم أن الله قادر عليها، وعُلِمَ أنها تكون بالكتاب والسُّنة، وليس في إثباتها في الجملة ما يخالف العقل ولا الشرع»[2].

وليس معنى ذلك أنه يكون في أسفل، تعالى وتقدس، فهذا ممتنع على الله جَلَّ وَعَلَا، ولكنه كلُّ شيء بقبضته.

وإذا أشكَلَ على الإنسان شيء من ذلك فليستحضر عظمة الله؛ فإنه يقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]. وقد جاء في تفسير هذه الآية عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، كما روى ابن جرير بسنده أن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: «إن الله جَلَّ وَعَلَا يقبض سمواته وأراضيه كلها بيمينه، وتبقى شماله فارغة، وإنما يستعين بشماله من كانت يمينه مشغولة»[3].

فالمقصود: أن عظمة الله جَلَّ وَعَلَا لا تُحَدُّ بحَدٍّ؛ فهو أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء.

فكيف يسأل السائل عن كيفية النزول، وكيفية الاستواء؟!

فمعرفة الكيفية ممتنعة على الخلق، وليس الأمر أن الكيفية ليس لها وجود؛ إذ الكيفية هي الحالة التي يتَّصِف بها، وإنما الممتنع هو علم الخَلْق بها.

---

(١) سنن الترمذي (٥/ ٤٠٣).

(٢) مجموع الفتاوى (٦/ ٥٧٤)، والرسالة العرشية (ص٢٩).

(٣) ينظر: تفسير الطبري (٢١/ ٣٢٥).

ثم ذكر أن الخلو من العرش وعدمه مسألة خلافية حتى بين أهل السُّنة، **والصحيح في هذا: أن العرش لا يخلو منه ﷻ؛ فهو ينزل وهو على عرشه**، فنزوله إلى السماء الدنيا ـ الذي ذكَرَه ـ مِثلُ مجيئه يوم القيامة، لا فرق بينهما.

وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ في نزوله كل ليلة إذا بقي ثلث الليل الآخر[١]، وفي رواية: إذا ذهب شَطْرُ الليل[٢]، وفي رواية: إذا ذهب ثلثا الليل[٣]؛ ولا مخالفة في كل هذا.

وقد يُقَدِّر الإنسان تقديرات بذهنه، يقول: لو قلنا: إنه ينزل في ثلث الليل، لزم أن يكون في كل ثلث ليل عند قوم، فيصير النزول مستمرًّا دائمًا؛ لأنه لا يخلو مكان من الأمكنة إلا ويمر عليه ثلث الليل، فإذا انتهى ثلث الليل من عندنا بدأ عند قوم، وإذا انتهى من عندهم بدأ عند قوم آخرين، وهكذا!

وهذه التقديرات على تصوُّر أن النزول كنزول المخلوق المعهود لنا، وهذا التصور بالنسبة لنزول الله باطل، ولا يجوز أن يتصوره الإنسان؛ لأن نزوله ﷻ ليس كالنزول الذي نعرفه؛ إذ لو نزل الإنسان من السطح لا بد أن يكون السطح فوقه ويخلو منه.

أما نزول الرب ﷻ فلا؛ لأنه أعلى من كل شيء، وعُلُوُّه صِفةُ ذاتٍ، كما قال العلماء؛ فهو العليُّ دائمًا أبدًا، لا يمكن أن يكون فوقه شيء، فكذلك إذا جاء يومَ القيامة لفَصْل القضاء بين خَلْقِه في الأرض.

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٢/ ٥٣) برقم (١١٤٥)، ومسلم في «صحيحه» (١/ ٥٢١) برقم (٧٥٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» (١/ ٥٢٢) برقم (٧٥٨)، وأحمد في «المسند» (٢٦/ ١٣٥) برقم (١٦٢١٥)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٩/ ١٧٩) برقم (١٠٢٣٩).

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٦/ ١٣٥) برقم (١٦٢١٥) من حديث رفاعة الجهني رضي الله عنه.

كما قال ﷻ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝٦٨ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٨ ـ ٦٩] أي: إذا جاء أشرقت بنوره

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩].

فهو يجيء ليفصل بين عباده بنفسه ﷻ ويحاسبهم، وهو ﷻ يحاسِب كل عبد من عباده، إلا الذين ليس لهم حسنات.

ومن الناس من يسبِق إلى الجنة دون حساب، ومنهم من لا يقام له وزن؛ لأنه كافر، فيُذهَب به إلى النار، ويبقى المخلِّطون.

ويخلو الله ﷻ بكل عبد من أهل الإيمان، كما ثبت ذلك في «الصحيحين» في حديث عبد الله بن عمر؛ فقد سُئل: كيف سمعتَ رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ قال: سمعته يقول: «**إِنَّ اللهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، أَتَعرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ. حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ؛ فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ**»[1]. فيُعطى صحيفته بيمينه، فيخرج على الناس يمدُّها إليهم: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩] إلى آخر الآيات.

وهو ﷻ يحاسبهم جميعًا في آن واحد؛ يحاسب هذا ويخلو به ويقرِّره، ويحاسب هذا ويخلو به ويقرِّره؛ كلهم في آن واحد، وكل واحد منهم يرى أنه يحاسَب بمفردِه!

فلا يجوز أن نقيس أفعال الله ﷻ بأفعالنا، تعالى الله وتقدس.

وقد جاء الخلل والباطل من جهة القياس؛ فالناس يقيسون رب العالمين على ما يعرفونه؛ ولهذا فإن قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾

---

(١) سبق تخريجه.

[الشورى: ١١] يجب أن يكون ذلك في ذاته، وفي أفعاله، وأوصافه.

وأهل السُّنة يُسَمُّون المعتزلةَ مُشبِّهةَ الأفعالِ مُعَطِّلةَ الصِّفاتِ؛ لأنهم يشبِّهون أفعاله بأفعال الخلق، ويعطِّلونه من أوصافه، وهذا تنديد وشرك بالله ﷻ.

وقد أغنى الله تعالى بكتابه وسنة رسوله ﷺ عن أقوال الناس وأقيستهم، وأسماء الله تعالى وصفاته لا تثبت إلا بالنصوص الثابتة عن الله تعالى أو عن رسوله ﷺ ولا دخل للآراء والأفكار في ذلك، لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، وقوله ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤]، وقوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢] ونحو هذه الآيات، ومن القواعد عند أهل السنة أن أسماء الله تعالى وصفاته توقيفية، يعني: يتوقف إثباتها على النص الثابت، ويدخل في ذلك أفعاله ـ تعالى وتقدس ـ عن قول الظالمين والمؤولين الذين يؤولون: نزوله ومجيئه تعالى؛ ينزل أمره، أو ملائكته أو نحو ذلك مما يعلم المؤمنون أنه باطل، مع أن كثير منهم ينفون علو الله تعالى على خلقه؛ الذي دل عليه كتاب الله تعالى وأحاديث رسوله ﷺ مع إجماع أهل الإيمان على ذلك، وما فَطر الله عليه خلقه؛ وأدلة علو الله تعالى كثيرة جدًا ومتنوعة، مثل هذه النصوص التي ذكر المؤلف بعضها، وكقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦]، وقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ١]، وقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠] وغير ذلك من النصوص الكثيرة التي تدل على علو الله ﷻ.

ومن المعلوم عند أهل السُّنَّة قطعًا أن العلو صفة ثابتة لله ﷻ لا تنفك عنه في وقت من الأوقات، فلا يجوز أن يقال: إنه إذا نزل إلى السماء الدنيا يخلو منه العرش، تعالى وتقدس.

أما من خاض في ذلك بالباطل، فإنهم يقولون: إن هذا فيه حركة وذهاب ومجيء، والحركة من صفة الأجساد.

نقول: لا يجوز أن نلتفت إلى هذا، وإنما يجب أن نصف ربنا ﷻ بما وصف به نفسه، واللوازم الباطلة منتفية، أما اللوازم التي هي حق فهي ثابتة لله ﷻ.

وذلك أن الكمال المُطلَق ثابت لله ﷻ.

أما ما ذكره من النزول في ليلة النصف من شعبان، فأحاديثه ضعيفة لا تَثبُت، ولا يجوز أن نُثبِتَ شيئًا لله ﷻ من أوصافه بأحاديثَ ضعيفةٍ غيرِ ثابتة.

وقد ثبت أنه يَنزِل يوم عرفة ويباهي بأهل الموقِفِ الملائكةَ.

أما النزول الذي يكون في كل ليلة في آخر الليل، فأحاديثه متواترة، وفيه تفصيل، وقد ذكر أنه ﷻ يقول: «**لَا أَسْأَلُ عَنْ عِبَادِي غَيْرِي، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟ مَنْ ذَا الَّذِي يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ**»(١).

وقد ألَّف الحافظ الدارقطني رحمه الله كتابًا كبيرًا جمع فيه هذه الأحاديث(٢).

قوله: «... حَضَرْتُ مجلس الأمير عبد الله بن طاهرٍ ذاتَ يوم، وحضرَ إسحاقُ بن إبراهيم..» يُروى أن الأمير عبد الله بن طاهر قال لإسحاق بن راهويه: يا أبا يعقوب، يُذكَرُ عنك أنك تقول: إن الله ينزل إلى السماء الدنيا. فقال له: نعم. فقال أحد جلسائه: كيف ينزل؟ فقال:

---

(١) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (١٠٢٣٦)، والدارمي في «سننه» (١٥٢٢)، وأحمد في «المسند» (١٦٢١٥، ١٦٢١٧، ١٦٢١٨)، وابن حبان في «سننه» (٢١٢)، والطبراني في «الكبير» (٤٥٥٨)، وغيرهم.

(٢) كتاب النزول، تأليف علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي الدارقطني (المتوفى: ٣٨٥هـ)، وهو مطبوع.

أثبِتْه في العلو وأُخبِرُك كيف ينزل. قال: أثبِتْه عاليًا؛ لأن المعتزلة كانت تنفي علوَّ الله ﷻ، ولهم اتصال بهؤلاء، فقال: قال الله ﷻ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]. قال الأمير عبد الله بن طاهر: يا أبا يعقوب، هذا يوم القيامة. فقال له: الذي يجيء يوم القيامة ما الذي يمنعه اليوم؟! وقد أخبر الرسول ﷺ بذلك.

فالمقصود أن الباب واحد في هذا.

أما أن نقول: نَكِلُ عِلمَ هذا إلى الله ﷻ في النزول، والاستواء، والسمع، والبصر، وغير ذلك، فالواجب على العبد في هذا أن يؤمن بما قاله الله ﷻ، وأن يفهم ذلك على مراد الله ﷻ.

أما الحقائق والأحوال التي قد يُثبِتُها بعض الناس وينفيها بعضهم؛ مثل: قوله: عليم له العِلم والعالِمِيَّة، وله السمع والسمعية، وله الحياة والحياتية.. إلى آخره؛ فهذه عند بعضهم، والحقيقة أن العالِم والعالِمية شيء واحد لا فرق بينهما.

أما أحوال أبي هاشم التي يقولون: إنها من عجائب الكلام، يقولون: «ثلاث من عجائب الكلام؛ أحوال أبي هاشم، وطفرة النَّظَّام، وكَسْبُ الأشعري»[1]؛ فذلك لأنها ليس لها حقيقة، ولو بحثْتَ عنها لم تجِدْ لها حقيقة.

فالمقصود: أن صفات الله ﷻ واضحة وجلية، ومعانيها لا خفاء فيها، فلا يجوز أن نقول: إننا نَكِلُ عِلم ذلك إلى الله، إنما الموكول علمه إلى الله هو الكيفية والحقائق.

أما ما يستدل به أكثر المتكلمين أو كلهم على نفي النزول وغيره بأدلة عقلية، فهي في الواقع ليست عقلية؛ لأن العقل لا يخالف ما جاء بالسمع.

---

(١) المنتقى من منهاج الاعتدال (ص: ٤٨)، الاعتصام للشاطبي (٣/ ٣٥٠).

وشبهتهم في ذلك أنه إذا كان ينزل ويستوي، فمعنى ذلك أنه جسم؛ لأن الأجسام هي التي تَشغَل الأماكن، وهي التي تنتقل، ويقولون: اتفقنا نحن وأنتم على أن من وصف الله بأنه جسم يكون كافرًا.

ولهذا يسمون ذلك كفرًا، وربما كفَّروا من وصف الله ﷻ بهذا.

وهم يُسَمُّون أهلَ السنة المُشبِّهةَ والمجَسِّمةَ، وكلمة المُجسِّمة أكثر عندهم.

نقول: هذا على حسب نظركم، أما كلمة «جسم» فهي لم تأتِ لا نفيًا ولا إثباتًا؛ فلا يجوز أن نَصِفَ الله ﷻ بها، ولا يجوز أن ننفيها عن الله ﷻ إلا بدليل، ولا دليل على هذا، وهذا الذي يقال: إن ما سكت عنه الله ﷻ وسكت عنه رسوله ﷺ، يجب أن نسكت عنه ولا نتكلم فيه.

ولكن إذا جاء إنسان يريد أن يُبطِل النصوص ويُشَبِّه على الناس، فلا بد أن يُرَدَّ قولُه ويُبيَّن للناس أن هذا باطل، وأن مقصوده بذلك إبطال ما هو ثابت عن الله ﷻ وعن رسوله ﷺ. مع أنهم هم أنفسهم يختلفون في تعريف «الجسم»؛ فمنهم من يقول: إن الجسم هو ما يكون شاغلًا لمكان، ومنهم من يقول: إن الجسم ما صحَّت الإشارة إليه، ومنهم من يقول: إن الجسم ما صح أن يقال: أين هو؟ أو هو هاهنا، أو هناك، وما أشبه ذلك؛ ولهذا يسمي بعضُ الجَهميَّة أهلَ السُّنة الأينيَّة؛ لأنهم يقولون: أين الله؟

وقد سأل الرسول ﷺ كما في «صحيح مسلم» في حديث معاوية بن الحَكَم السُّلَمي رضي الله عنه، قال: كَانَتْ لِي جَارِيَةٌ تَرْعَى غَنَمًا لِي قِبَلَ أُحُدٍ وَالْجَوَّانِيَّةِ، فَاطَّلَعْتُ ذَاتَ يَوْمٍ فَإِذَا الذِّيبُ قَدْ ذَهَبَ بِشَاةٍ مِنْ غَنَمِهَا، وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ، آسَفُ كَمَا يَأْسَفُونَ، لَكِنِّي صَكَكْتُهَا صَكَّةً، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَعَظَّمَ ذَلِكَ عَلَيَّ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلَا أُعْتِقُهَا؟ قَالَ: «**ائْتِنِي بِهَا**». فَأَتَيْتُهُ بِهَا، فَقَالَ لَهَا: «**أَيْنَ اللهُ؟**» قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ. قَالَ:

«**مَنْ أَنا؟**». قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ. قَالَ: «**أَعْتِقْهَا؛ فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ**»[١].

هذا هو الثابت الصحيح، أما الرواية التي ذكرها فلم تثبت أنها أشارت إلى السماء، ثم أشارت إلى رسول الله ﷺ، أي: أنَّك رسولُ مَن في السماء، ومعنى ذلك أنها كانت أعجمية، أو كانت خرساء لا تتكلم، وهذا غير صحيح، والقصة واحدة.

فالرسول ﷺ سألها: أين الله؟ فقالت: في السماء. وكلمة «في السماء» أي: في العُلو؛ فكل ما فوقنا سماءٌ، فيسأل: أين الله؟ كما قال الرسول ﷺ، ولا محذور في هذا، ويجيب المسؤول فيقول: الله في السماء، كما قال جل وعلا: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٦ ـ ١٧]، وليس هذا إلا الله جل وعلا؛ هو الذي يخسف الأرض، وهو الذي إذا شاء يرسل الحاصب على خلقه، وليس الملائكة.

ومن ذلك المجيء؛ كونه يجيء، كما قال جل وعلا: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وقال جل وعلا: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ [الفجر: ٢٢]، وقد تعلَّق النُّفاة بما يزعمون أنها أدلة عقلية! والعقل الصحيح لا يُخالف الشرع، فهي لا تدل على مرادهم الذي تعلَّقوا به.

وقد قال جل وعلا: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٤ ـ ٦]، أي: أن الله تعالى هو الذي يتولى حسابهم في ذلك اليوم، كما قال سبحانه: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ثم محاسبته لهم جل وعلا، وفيه: أنه يكلمهم ويرونه ويخاطبهم ويخاطبونه.

---

(١) سبق تخريجه.

وقد ثبتت الأحاديث عن رسول الله ﷺ كما في حديث أبي هريرة[١] وحديث أبي سعيد[٢] الذي في الشفاعة؛ أنه إذا وقعت الشفاعة وشفَع الرسول ﷺ ليأتيَ ربِ العالمين يفصِلُ بين عباده، وأنه إذا جاء يُكَلِّمُهم.

وفي رواية في غير الصحيحين، كما في المسند وغيره[٣]، يقول: أليس عدلًا مني أن أُولِّيَ كُلَّ واحد منكم ما كان يتولَّاه في الدنيا؟ الجواب قطعًا أنهم كلهم يقولون: بلى، فيُمثَّلُ لكل عابد معبودُه، أو يؤتى به بعينه، فيقال له: اتْبَعْه، فيَتْبَعونها إلى جهنم، ثم قال ﷻ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

وأخرج ابن جرير الطبري وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما، موقوفًا: أنه إذا طال وقوف الناس تَنزِلُ أهلُ السماء بالغمام، كما ذُكِر، تنزل الملائكة في الدنيا، فيسأل أهل الموقف، أو بعضهم يقولون للملائكة هل فيكم ربنا؟ فيقولون: لا، وهو آتٍ.

وليس معنى ذلك أنهم يقولون: إنه فيكم. أي: إنه مختلط بهم، لا يليق هذا برب العالمين تعالى وتقدس، ثم إذا نزل أهل السماء الثانية سألوهم كذلك[٤].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب أحاديث الأنبياء، باب (٤/ ١٤١) برقم (٣٣٦١)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١/ ١٨٤) برقم (١٩٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣] (٩/ ١٢٩) برقم (٧٤٣٩)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (١/ ١٦٧) برقم (١٨٣).

(٣) أحمد في «المسند» (١٤/ ٤١٣) برقم (٨٨١٧)، والترمذي في «سننه» (٤/ ٢٧٢) برقم (٢٥٥٧).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره «جامع البيان في تأويل القرآن»، (٢٤/ ٤١٧ ٤١٨)، وقال ابن حجر العسقلاني: «هذا موقوف إسناده حسنٌ». «المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية»؛ لابن حجر العسقلاني رقم: (٤٥٥٧)، (١٨/ ٥٣٦).

وفي «الصحيحين»، ولكن لفظ مسلم أصرح قال: «**فَيَأْتِيهِمُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي صُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ، هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِيَنَا رَبُّنَا، فَإِذَا جَاءَ رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ، فَيَأْتِيهِمُ اللهُ تَعَالَى فِي صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا فَيَتَّبِعُونَهُ..**»[(١)]. وقال: «**حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ تَعَالَى مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ، أَتَاهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي أَدْنَى صُورَةٍ مِنَ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا. قَالَ: فَمَا تَنْتَظِرُونَ؟ تَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ، قَالُوا: يَا رَبَّنَا، فَارَقْنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا أَفْقَرَ مَا كُنَّا إِلَيْهِمْ، وَلَمْ نُصَاحِبْهُمْ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ، لَا نُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا ـ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ لَيَكَادُ أَنْ يَنْقَلِبَ، فَيَقُولُ: هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ فَتَعْرِفُونَهُ بِهَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ، فَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لِلَّهِ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ إِلَّا أَذِنَ اللهُ لَهُ بِالسُّجُودِ، وَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ اتِّقَاءً وَرِيَاءً إِلَّا جَعَلَ اللهُ ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً، كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ عَلَى قَفَاهُ، ثُمَّ يَرْفَعُونَ رُءُوسَهُمْ وَقَدْ تَحَوَّلَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَقَالَ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا**»[(٢)].

هكذا يقول الرسول ﷺ وهو كلام واضح وثابت عنه صلوات الله وسلامه عليه.

ففيه إثبات المجيء، وإثبات الكلام، وإثبات أنه يأتيهم في صورة غير الصورة التي رأوه فيها أول مرة.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (١/ ١٦٣) برقم (١٨٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣] (٩/ ١٢٩) برقم (٧٤٣٩)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (١/ ١٦٧) برقم (١٨٣) واللفظ له.

يقول الدارمي رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الحديث ـ في ردِّه على بشر المِرِّيسي ـ: قولهم: فإذا أتانا ربنا عرفناه، أي: بأوصافه التي كنا نعرفه بها في الدنيا(١)، واعترض شيخ الإسلام على ذلك، بأنهم عرفوه بالرؤية حينما رأوه أول مرة، وكل هذا يدل على مجيئه يوم القيامة، وأنه يفعل ما يشاء.

وهذا يدلنا على **أن الأفعال التي تضاف إلى الله جَلَّ وَعَلَا تنقسم إلى قسمين:**

القسم الأول: أفعال متعدية؛ مثل: الخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، والهداية، والضلال، وغير ذلك، وهي كثيرة جدًّا.

القسم الثاني: أفعال لازمة؛ مثل: النزول، والاستواء، والمجيء.

وهي تُثبَت لله جَلَّ وَعَلَا على ما جاءت.

وقد أكثر رَحِمَهُ اللَّهُ من الروايات والأخبار التي ذكرها هنا في النزول، وفيها ما هو مكرر، وأهل الإيمان إذا ثبت النص عن الله جَلَّ وَعَلَا أو عن رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آمنوا به واعتقدوا مدلوله، أما أهل الانحراف فلو جئتهم بكل آية لا يتبعوها.

وحديث رِفَاعَة بن عَرَابَة الجُهَنِي ـ السابق ـ إذا ثبت فإنه يدل على أن السبعين ألف الذين يدخلون الجنة بلا حساب؛ أنهم من غير الصحابة؛ لأنه قال: «**وإنِّي لأرجُو أن لَا يَدْخُلُوهَا حتَّى تَتبوَّؤا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ أزوَاجِكُمْ وذُرِّيَّاتِكُمْ مَسَاكِنَكُمْ فِي الجَنَّةِ**».



(١) نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المِرِّيسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله عَزَّوَجَلَّ من التوحيد (١/ ٣٨٤).

﴿ [قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «وروى يزيد بن هارون في مجلسه حديث إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن جرير بن عبد الله في الرُّؤْيَةِ، وقول رسول الله: ﷺ «إِنَّكُمْ تَنظُرونَ إِلَى رَبِّكُمْ كَمَا تَنظُرُونَ إِلَى القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ»[1]. فقال له رجل في مجلسِه: يا أبا خالد، ما معنى هذا الحديث؟ فغَضِبَ وحَرِدَ، وقال: ما أشبَهَكَ بِصَبِيغٍ، وأحوجَك إلى مثلِ ما فُعِلَ بِه! ويْلَكَ! ومن يدري كيف هذا؟ ومَن يجوز له أن يجاوز هذا القولَ الذي جاء به الحديث، أو يتكلَّم فيه بشيءٍ من تِلْقَاءِ نفسه إلا مَن سَفِهَ نفسَه، واستخفَّ بِدِينِه؟ إذا سمِعتم الحديثَ عن رسول الله ﷺ فاتَّبِعُوهُ، ولا تَبْتَدِعُوا فيهِ؛ فإنَّكم إن اتبعتُمُوه، ولم تُمارُوا فيهِ سَلِمْتُم، وإن لم تفعلُوا هَلَكتُم[2].

وقصةُ صَبِيغٍ الذي قال يزيد بن هارون لِلْسَّائِل: «ما أشْبَهكَ بِصَبيغٍ وأحوجَكَ إلى مثلِ ما فُعِلَ به!» هي ما رواهُ يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المُسيبِ، أنَّ صبِيغًا التَّمِيمِي أتى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرنِي عن ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾. قال: هي الرِّياح، ولولا أنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقوله ما قلته، قال: فأخبِرنِي عن ﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا﴾.

قال: هي السَّحابُ، ولولا أنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقوله ما قلته، قال: فأخبرني عن ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا﴾، قال: المَلائِكة، ولولا أنِّي سمعتُ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣] (٩/١٢٧) برقم (٧٤٣٤)، ومسلم في صحيحه، في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، والمحافظة عليهما (١/٤٣٩) برقم (٦٣٣) من حديث جرير بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) الحجة في بيان المحجة (١/٢٠٩).

رسولَ الله ﷺ يقوله ما قُلتهُ. قال: فأخبرنِي عن ﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا﴾، قال: هي السُّفنُ، ولولا أنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقوله ما قُلتُهُ، قال: ثمَّ أمَرَ به فضُرِبَ مائةَ سوطٍ، ثمَّ جعله في بيتٍ، حتى إذا بَرأ دَعَا به، ثمَّ ضربَه مائة سوطٍ أُخرى، ثمَّ حمله على قَتَبٍ، وكتب إلى أبي موسى الأشعري: «أنْ حرِّمْ عليه مُجَالَسَة النَّاس، فلم يزلْ كذلك حتى أتى أبا موسى الأشعري، فَحلفَ بالأيْمَانِ المغلَّظة ما يجد في نفسه مِمَّا كان يجِده شيئًا، فكتب إلى عمرَ يُخبِره، فكتب إليه عُمر: مَا إخَالُهُ إلا قد صدَق، خلِّ بينه وبين مُجَالسَة النَّاس[1].

وروى حمَّاد بن زيد، عن قطن بن كعبٍ: سمعتُ رجلًا من بني عجل يُقالُ له: فلان ـ خَلتُهُ ابن زُرْعَة ـ يُحدِّث عن أبيه قال: رأيتُ صَبِيغ بن عسل بالبصرة كأنَّه بعيرٌ أجربُ، يجيءُ إلى الحِلَقِ، فكلَّما جلس إلى قومٍ لا يعرفونه، نَادَاهم أهل الحلقةِ الأخرى: عَزْمَةُ أمير المؤمنين[2].

وروى حماد بن زيد أيضًا، عن يزيد بن أبي حازم، عن سليمان بن يسار، أنَّ رجلًا من بني تميم، يقالُ لهُ صَبِيغ، قَدِمَ المدينة، فكانت عنده كُتُبٌ، فجعلَ يسألُ عن مُتشابهِ القرآن، فبلغَ ذلك عُمَرَ، فبعثَ إليه، وقد أعدَّ له عَرَاجِينَ النَّخلِ، فلمَّا دخلَ عليهِ جَلَسَ، فقال: مَن أنت؟ قال: أنا عبدُ الله صَبِيغ، قال عُمر: وأنا عبدُ الله عُمر، ثمَّ أهوى إليه فجعل يضربُهُ بتلكَ العَرَاجِين، فما زال يضربُهُ حتى شجَّه، فجعلَ الدَّمُ يسيلُ على وجهه، فقال: حسبُكَ يا أمير المؤمنين، فقد ـ واللهِ ـ ذهبَ ما كنتُ أجدُ في رأسِي[3].

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٣/ ٤١٠).
(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٣/ ٤١٣).
(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٣/ ٤١١).

أخبرنا أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن موسى السُّلمي، أخبرنا محمد بن محمود الفقيه المَرْوَزِي بِها، حدَّثنا محمد بن عمير الرَّازي، حدَّثنا أبو زكريَّا يحيى بن أيوب العلَّاف التُّجيبي بمصر، حدَّثنا يونس بن عبد الأعلى، حدَّثنا أشهب بن عبد العزيز، سمعت مالك بن أنسٍ يقول: إيَّاكُم والبِدَعَ! قيل: يا أبا عبد الله، وما البِدَع؟ قال: أهلُ البِدَع الذين يَتكلَّمون في أسماءِ الله وصفاته، وكلامه وعلْمه وقدرته، لا يسكُتُون عمَّا سكتَ عنه الصَّحابة والتَّابعون[١].

أخبرنا أبو الحسين أحمد بن محمد بن عمر الزَّاهد الخفَّاف، أنبأنا أبو نُعيم عبد الملك بن محمد بن عدي الفقيه، حدَّثنا الربيع بن سليمان، سمعتُ الشَّافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «لَئنْ يَلقى اللهَ العبدُ بكلِّ ذَنْبٍ مَا خلَا الشِّرك أحبُّ إليَّ من أنْ يلقَاهُ بِشيءٍ مِنَ الأهْوَاء»[٢].

أخبرني أبو طاهر محمد بن الفضل، حدَّثنا أبو عمر والحيرِي، حدَّثنا أبو الأزهر، حدَّثنا قَبِيصَة، حدَّثنا سفيان عن جعفر بن بُرْقَان، قال: سألَ رَجُل عمر بن عبد العزيز عن شَيءٍ من الأهْوَاء، فقال: «الْزَمْ دِينَ الصَبِيِّ في الكُتَّابِ والأعرَابيِّ، وَالْهُ عَمَّا سِوَى ذلك»[٣].

أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، حدَّثنا محمد بن يزيد، سمعت أبا يحيى البزار يقول: سمعتُ العبَّاس بن حمزة يقول: سمعتُ أحمد بن أبي الحَوَارِي يقولُ: سمعتُ سفيان بن عُيَينة يقولُ: «كلُّ ما وَصَفَ اللّهُ بِه نَفسَه في كِتَابِه، فتَفسِيرُه تِلَاوته، والسُّكوتُ عنهُ»[٤].

أخبرنا أبو الحسين الخفَّاف، حدَّثنا أبو العبَّاس محمد بن إسحاق

---

(١) ذم الكلام وأهله (٥/ ٧٠).

(٢) معرفة السنن والآثار (١/ ١٨٩)، آداب الشافعي ومناقبه (ص: ١٤٣).

(٣) ذم الكلام وأهله (٥/ ٢٨).

(٤) الأسماء والصفات للبيهقي (٢/ ١٥٨).

السرَّاج، حدَّثنا إسماعيل بن أبي الحارث، حدَّثنا الهيثم بن خارجة، سمعتُ الوليد بن مسلمٍ قال: سألتُ الأوزاعي، وسفيان، ومالك بن أنسٍ، عن هذه الأحاديث في الصِّفات والرُّؤْيَة، فقالوا: «أَمِرُّوهَا كما جَاءَت بلَا كَيْفٍ»(١).

قالَ الإمامُ الزُّهري إمامُ الأئمةِ في عصرهِ، وعينُ علماء الأُمَّة في وقتهِ: على اللهِ البَيَانُ، وعلى الرَّسولِ البَلاغُ، وعلينا التَّسلِيم(٢).

وعن بعضِ السَّلف: قَدَمُ الإسلام لا يثبُتُ إلا على قَنطرَةِ التَّسلِيمِ(٣).

أخبرنا أبو طاهر بن خزيمة، حدَّثنا جدِّي الإمام أحمد بن نصرٍ، حدَّثنا أبو يعقوب الحنيني، حدَّثنا كثير بن عبد الله المُزَنِي، عن أبيه، عن جدِّه قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«إنَّ هَذَا الدِّينَ بَدَأَ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَى لِلغُرَبَاءِ». قيل: يا رسول الله، ومَن الغرباء؟ قال: «الَّذِينَ يُحْيُونَ سُنَّتِي مِنْ بَعْدِي، وَيُعَلِّمُونَهَا عِبَادَ اللهِ»**(٤).

أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، قال: سمعتُ أبا الحسن الكارزي يقول: سمعتُ علي بن عبد العزيز يقول: سمعتُ أبا عبيدٍ القاسم بن سلَّام يقول: «المتَّبعُ لِلسُّنَّة كالقَابِض على الجَمْرِ، وهو اليومَ عندي أفضلُ من ضَرْبِ السَّيْفِ في سَبِيلِ اللهِ»(٥).

ورُوِيَ عن الأعمش، عن أبي الضُّحى، عن مسروقٍ، قال: دَخَلْنَا على عبد الله بن مسعود فقال: «يا أيُّها النَّاس، مَن علم شيئًا فليَقُل به،

---

(١) العرش للذهبي (٢/ ٢٥١).
(٢) صحيح البخاري (٩/ ١٥٥).
(٣) شرح السنة للبغوي (١/ ١٧١).
(٤) أخرجه الترمذي في سننه، في كتاب الإيمان، باب ما جاء أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا (٥/ ١٨) برقم (٢٦٣٠)، وقال: هذا حديث حسن.
(٥) تاريخ بغداد (١٤/ ٣٩٢).

ومن لم يعلَم فليَقُل: اللّهُ أعلمُ؛ فإنَّ من العلم أن يقول لِمَا لا يعلم: اللّهُ أعلمُ، قال اللّهُ ﷻ لنبيِّه ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦][(١)].

أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، حدَّثنا أبو العبَّاس المعقلي، حدَّثنا أحمد بن عبد الجبار العُطَارِدي، حدَّثني أبي، وعبد الرحمن الضَّبي، عن القاسم بن عروة، عن محمد بن كعبٍ القُرظي قال: دخلتُ على عمر بن عبد العزيز، فجعلتُ أنظرُ إليه نظرًا شديدًا، فقال: إنَّك لتنظُرُ إليَّ نظرًا ما كُنتَ تنظُرُهُ إليَّ وأنَا بالمدينة، فقلتُ: لِتعجُّبي، فقال: ومِمَّ تَعْجَبُ؟ قال: قلتُ: لِمَا حَالَ مِنْ لَوْنِكَ، ونَحَلَ من جِسْمِكَ، ونَفَى مِن شعرك! قال: كيف ولو رأيْتَنِي بعد ثلاثَةٍ في قَبْرِي، وقد سَالَت حَدَقتاي على وَجْنَتَيَّ، وسال مِنْخَرَايَ في فمي صديدًا؟ كنتَ لي أشدَّ نُكرةً! حدِّثني حديثًا كنتَ حدَّثْتَنيهِ عن عبد الله بن عبَّاس، قال: قلتُ: حدَّثني عبد الله بن عبَّاس ﵄ يرفعُ الحديثَ إلى رسولِ الله ﷺ، قال: **«إنَّ لِكُلِّ شَيءٍ شَرَفًا، وأشْرَفُ المَجَالِسِ مَا اسْتُقْبِلَ بِهِ القِبْلَةُ، لا تُصَلُّوا خَلْفَ نَائِمٍ ولَا مُحْدِثٍ، واقْتُلُوا الحَيَّةَ والعَقْرَبَ وإنْ كُنْتُمْ في صَلَاتِكُمْ، ولَا تَسْتُرُوا الجُدُرَ بِالثيَابِ، وَمَنْ نَظَرَ فِي كِتَابِ أخِيهِ بِغَيْرِ إذْنِهِ فَإنَّمَا يَنْظُرُ فِي النَّارِ، ألا أُنَبِّئُكُمْ بِشِرَارِكُمْ؟»** قالوا: بلى يا رسول الله، قال: **«الَّذِي يَجْلِدُ عَبْدَهُ، وَيَمْنَعُ رِفْدَهُ، وَيَنْزِلُ وَحْدَهُ. أفلَا أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ؟ الَّذِي يُبْغِضُ النَّاسَ ويُبْغِضُونَهُ. أفلَا أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ؟ الَّذي لا يُقِيلُ عَثْرَةً، ولا يَقْبَلُ مَعْذِرَةً، ولا يَغْفِرُ ذَنبًا. أفَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلكَ؟ الَّذِي لا يُرجَى خَيرُهُ، ولا يُؤمَنُ شَرُّهُ،**

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب تفسير القرآن، باب سورة الروم (٦/ ١١٤) برقم (٤٧٧٤).

مَنْ أحبَّ أنْ يكُونَ أقوَى النَّاسِ فَليَتَوكَّل على اللهِ، وَمَنْ أحَبَّ أنْ يَكونَ أغْنَى النَّاسِ فليَكُنْ بِما فِي يَدِ اللهِ أوثَقَ مِنهُ بِما فِي يَدِ غَيرِهِ، ومَنْ أحَبَّ أنْ يَكونَ أكرَمَ النَّاسِ فَليَتَّقِ الله، إنَّ عِيسَى عليه السلام قَام فِي قَوْمِهِ فقَال: يَا بَنِي إسرائيل، لا تَكلَّموا بِالحِكْمةِ عِنْدَ الجُهَّالِ فَتَظْلِمُوها، ولا تَمْنَعُوهَا أهلَهَا فَتَظْلِمُوهُم، ولا تَظْلِمُوا، ولَا تُكافِئُوا ظَالِمًا فَيَبْطُلَ فَضْلُكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ. الأمرُ ثَلاثَةٌ: أمْرٌ بيِّنٌ رُشْدُهُ فاتَّبِعُوهُ، وأمْرٌ بيِّنٌ غَيُّهُ فاجْتَنبُوهُ، وأمْرٌ اختَلَفْتُم فِيهِ فَكِلُوهُ إِلَى اللهِ عز وجل»[1].

الشَّرح

ذكر رحمه الله أنه لا بد من التسليم بهذه الأخبار، وأنه لا يثبت للإنسان دينه إلا بالتسليم للنصوص، وأن التسليم بلا اقتناع قد لا يكفي إلا إذا لم يفهم الإنسان ذلك؛ فعليه أن يقول كما قال الشافعي رحمه الله: «آمَنْتُ بِاللهِ وَبِمَا جَاءَ عَنِ اللهِ، عَلَى مُرَادِ اللهِ، وَآمَنْتُ بِرَسُوْلِ اللهِ وَبِمَا جَاءَ عَنْ رَسُوْلِ اللهِ، عَلَى مُرَادِ رَسُوْلِ اللهِ»[2].

وإن كنتَ لا تعرف ذلك، ولكن نحن خوطبنا بكلام عربي فصيح بيِّن لا إشكال فيه.

ومعنى التسليم: أن يُسَلِّم الإنسان لربه جل وعلا، ويَعلَم أنه أعلمُ بنفسه وبغيره مِن خَلْقِه، ويعتقد أن كلامه حق لا يأتيه الباطل لا من بين يديه ولا من خلفه، ثم كذلك ما يخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم، فإذا حصل له إشكال في كلام الله أو كلام رسوله صلى الله عليه وسلم، فيجب أن يتَّهِمَ نفسه، ولا يتَّهِم رَبَّه جل وعلا

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك على ما في الصحيحين (٤/ ٣٠٠) برقم (٧٧٠٦، ٧٧٠٧)، وقال: هذا حديث صحيح.

(٢) مجموع الفتاوى (٤/ ٢)، ومنازل الأئمة الأربعة أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد (ص: ١٤٦)، مجموع الفتاوى (٦/ ٣٥٤)، ولمعة الاعتقاد لابن قدامة المقدسي (٧/ ١)، وتيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد (١/ ٥٠٢).

أو يتَّهِم الرسول ﷺ، فيرجع إلى الله بأن يسأله الهداية والعلم، فيقول: يا مُعَلِّمَ إبراهيم عَلِّمني، يا معلم آدم عَلِّمني، ويسأل ربه أن يهديه، فإذا فعل ذلك فالله كريم جوَاد ﷻ.

أما أن يتَّهِم النصوص ويقول: إن هذه نصوص فوق العقول وعلى خلاف المعهود، فهذا لا يجوز؛ لأن الرسل لم تأتِ بالشيء الذي يخالف العقل، وإنما قد تأتي بأشياء تحار فيها العقول ولا تدركها؛ فيجب التسليم والانقياد لهذا؛ قال الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

فيجب أن يُطيع الله ورسوله طاعةً ليس فيها اختيارٌ ولا نَظَرٌ لنفسه أو لغيره، مع أن الله كريم جوَاد، لم يأمر إلا بالشيء الذي يطاق. وقد رُوي عن الأوزاعي رحمه الله: أنه قال:

«كنَّا والتابعون متوافرون نقول: إن الله سبحانه على عرشه، ونؤمن بما ورد في السُّنة من الصفات»، وقال الزهري: «عَلَى اللهِ الْبَيَانُ، وَعَلَى الرَّسُولِ الْبَلاغُ، وَعَلَيْنَا التَّسْلِيمُ». على الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم والانقياد؛ فالله أرسل رسله، والرسل بلَّغوا، ونحن يجب علينا أن ننقاد ونسَلِّم للشيء الذي أَشكَل علينا، مع أنه - والحمد لله - ليس في صفات الله ﷻ إشكال.

وهذه المسائل - وهي مسألة الصفات، ومسألة الاستواء، ومسألة النزول، ومسألة العلو - واضحة جدًّا ولا إشكال فيها عندنا، أما الإشكالات التي عند بعض الناس، فهي راجعة إلى أنهم حكَّموا عقولهم وأفكارهم، وهذا هو البلاء الذي يصد الناس عن الحق.

❁ ❁ ❁

[قال رَحِمَهُ اللَّهُ]: «ويُؤمِنُ أهلُ الدِّينِ والسُّنَّةِ بِالبَعثِ بعدَ الموتِ يومَ القيامةِ، وبكُلِّ مَا أخبرَ اللّهُ سبحانه من أهوالِ ذلكَ اليومِ الحقِّ، واختِلَافِ أحوالِ العِبَادِ فيهِ والخَلْقِ فيما يَرَوْنَه ويَلْقَونَهُ هُنالِكَ في ذلكَ اليومِ الهائلِ من أخذِ الكُتُبِ بالأيْمَانِ والشمَائِلِ، والإجَابَة عن المَسَائِلِ، إلى سائِرِ الزَّلازِلِ والبَلابِلِ الموعُودة في ذلكَ اليومِ العظيمِ، والمقَام الهَائِلِ مِنَ الصِّراط والمِيزَان، ونَشرِ الصُّحُف التي فيها مَثَاقِيلُ الذَّرِّ من الخيرِ والشَّر، وغَيرِهَا».

الشَّرح

هذا من الإيمان باليوم الآخر، وهذا أمره واضح، لكنَّ كثيرًا من الناس أنكروا البعث، وقد أنكره أهل الكفر من الأمم السابقة أشدَّ الإنكار.

وإنكار الكفار الذين واجهوا نبينا ﷺ ظاهر جدًّا، والاحتجاج عليهم في القرآن كثير جدًّا؛ فقد ذكر الله ﷻ كثيرًا من الحُجَج التي تُثبت البعث؛ منها خلق الإنسان.

والخلق هو الابتداء، ومن المعلوم أنه خَلَق أصل الإنسان ـ وهو أبونا آدم عليه السلام ـ من تراب، ومن يخلق إنسانًا حيًّا متصرفًا قادرًا على الأشياء التي أُقدِرَ عليها، من تراب هامد: قادرٌ على الإعادة؛ ولهذا كَثُر ذِكْر خلق الإنسان من نطفة، قال ﷻ: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧ ـ ٢٢].

ثم يقول مقارنًا لهذا: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ [عبس: ٢٤ ـ ٢٨] إلى آخر الآيات.

فنزول الماء على الأرض، ثم انشقاقها عن النبات الذي يختلف في الألوان والروائح والطعوم: آية تدل على البعث؛ ولهذا إذا ذكر الله ﷻ ذلك، قال: ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الزخرف: ١١]. فهذا من الأدلة الواضحة الباهرة.

والفلاسفة الآن ينكرون البعث؛ فهم يقولون: إن هذا أمر مستحيل؛ لأن الموت إذا جاء على الشيء صار هامدًا يابسًا، فكيف تعود إليه الحياة؟!

إنهم ينظرون إلى أمور مادية، ولا ينظرون إلى قدرة الله ﷻ على كل شيء.

ومن الأمور الكبيرة التي يستدل بها الله ﷻ على البعث: خلقُ الشيء الكبير العظيم، كما قال الله ﷻ: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

إن الذي قدر على الخلق الكبير قادرٌ على ذلك؛ قال ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

فالكفار ينكرون البعث، ويقولون: إنه أمر مستحيل، وكان الواحد منهم يأتي بالعظم اليابس ويقول للرسول ﷺ: أتزعم أن الله يحيي هذا؟!

يُطلَق البعث على الحياة الجديدة، مع أن الموت - في واقع الأمر - ليس عدمًا؛ إذ إن الرُّوح تخرج من بدن الإنسان، فيصبح البدن ميتًا، أما الروح فلا تموت، وإنما تنتقل من هذه الدنيا إلى البرزخ.

ويجب أن يؤمن الإنسان بهذا ويستعد له؛ لأنه يكون حيًّا في قبره وليس ميتًا، وهو يُعَذَّب في قبره أو يُنَعَّم فيه.

ولكن أكثر أهل الكفر - إن لم يكن كلهم - ينكرون هذا؛ فتجد

كثيرًا منهم ينتحرون ظنًّا منهم أن في الموت راحة مما يجدونه في حياتهم؛ لأنهم يعتقدون أن الموت هو نهاية المطاف، ولكنهم في الحقيقة ينتقلون إلى ما هو أشد!

كما يُطلَق البعث أيضًا على إثارة الشيء، تقول: بعثتُ الصيد من مَكمَنِه. ويُطلَق أيضًا على الإرسال، كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ [النحل: ٣٦].

ويطلق أيضًا على إخراج أبدان الموتى من الأرض؛ إذ يتحلل الإنسان ويصير ترابًا ولا يبقى منه إلا جزء صغير جدًّا في أسفل الظهر، يُسمَّى عَجْبَ الذَّنَبِ، وهو يشبه البذرة التي يَنْبُت منها الإنسان، كما جاء ذلك في الحديث عن النبي ﷺ، فيجمع الله ﷻ ذرات التراب التي تحللت ويعيدها مرة أخرى[1].

وقد أثار الفلاسفة المتأخرون إشكالًا في هذا الأمر، فهم يقولون: إنه ثبت أن البدن يتحلل كل أربعين سنة، فيتغير البدن تمامًا، وتصبح الخلايا والأجزاء متبدلة غير التي قبلها، فهل تُجمَع الخلايا القديمة أم الحديثة؟

نقول: هذا ليس إشكالًا؛ فإذا ثبت أن الخلايا تتحلل ـ تتبدَّل ـ فإن المجموع هو الذي يُجمع ويُعاد كما كان؛ ولذلك يَعرِف الناسُ بعضُهم بعضًا يوم القيامة، وقد قال ﷺ «**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً**

(١) إشارة إلى ما أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب تفسير القرآن، باب ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ: ١٨]: زُمَرًا (٦/ ١٦٥) برقم (٤٩٣٥)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب: ما بين النفختين (٤/ ٢٢٧٠) برقم (٢٩٥٥) قال ﷺ: «**ثُمَّ يُنْزِلُ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ**» قَالَ: «**وَلَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى، إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا، وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

غُرْلًا»[١]. أي: ليس معهم نعال، ولا لباس، ولا طعام، ولا شراب.

إن البعث ثابت قطعًا، ولا ينكره أحد من المسلمين، أما كيفيته فهو جمع أجزاء البدن المتحلل ترابًا أو غيره، فيعود كما كان سابقًا.

إن ما ذُكر في البعث والأهوال وغير ذلك: هو أمور داخلة في الإيمان بيوم القيامة، وقد تولى العلماء التعريف بها، ووُضعت فيها مؤلفات خاصة؛ منها: كتاب «الأهوال» لابن أبي الدنيا، ومنها: كتاب «البحور الزاخرة في علوم الآخرة» للسفاريني، ومنها: كتاب «البدور السافرة في أمور الآخرة» للسيوطي، ومنها: كتاب «التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة» للقرطبي، وغير ذلك من الكتب الكثيرة التي يذكرون فيها تفاصيل ذلك حسَبَ الأدلة التي جاءت في كتاب الله ﷻ، وفي أحاديث الرسول ﷺ.

ومن المعلوم أن هذه الأمة هي آخر الأمم، وعليها تنتهي الدنيا وتأتي القيامة؛ فناسب أن يُذكر يوم القيامة مفصلًا كأن الإنسان يشاهده، وقد جاء ذلك عن النبي ﷺ وفي كتاب الله ﷻ أيضًا؛ فقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: **«مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأْيُ عَيْنٍ فَلْيَقْرَأْ: إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ، وَإِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ، وَإِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ»**[٢].

وقيل له ﷺ لما رُئِيَ في رأسه الشيبُ: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ شِبْتَ! قَالَ: **«شَيَّبَتْنِي هُودٌ، وَالوَاقِعَةُ، وَالمُرْسَلَاتُ، وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، وَإِذَا الشَّمْسُ**

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الرقاق، باب: كيف الحشر (٨/ ١٠٩) برقم (٦٥٢٧)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٤/ ٢١٩٤) برقم (٢٨٥٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، في كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة إذا الشمس كورت (٥/ ٤٣٣) برقم (٣٣٣٣) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

كُوِّرَتْ»(١)؛ لأن فيها تفصيلَ ما سيأتي.

وكتاب الله كله بهذا النحو، وقد كان السلف ﷺ يتأثرون تأثرًا بالغًا. وقصة زرارة بن أوفى قاضي البصرة رحمه الله مشهورة وثابتة؛ فإنه صلى بهم الفجر فقرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١] فلما وصل إلى قوله: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ﴾ [المدثر: ٨] أُغشِيَ عليه وسقط ميتًا(٢)؛ من خوفه من يوم القيامة!

وإن كان هذا قد حدث كثيرًا في التابعين وأتباع التابعين، لكنه لم يحدث في الصحابة، وإن كان الصحابة أكمل إيمانًا وأتم يقينًا؛ إذ الإيمان في قلوبهم مثل الجبال الراسيات، ومع هذا لم يُعرَف أن أحدًا منهم سقط ميتًا أو أغشِيَ عليه لما قرأ القرآن!

أما ما جاء في كتب الرقائق من أن عمر رضي الله عنه كان يمر بالآية فيَمرَض فيُعاد(٣)، فهو غير صحيح؛ إذ لم يثبت ذلك عن عمر رضي الله عنه، والآثار في هذا كلها ضعيفة.



---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، في كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة الواقعة (٥/ ٤٠٢) برقم (٣٢٩٧) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.
قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه.

(٢) سنن الترمذي (٢/ ٣٠٧).

(٣) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٩٩).

ﷺ [قال رَحِمَهُ اللَّهُ]: «ويُؤْمِنُ أهلُ الدِّينِ والسُّنةِ بشفَاعَةِ الرَّسولِ ﷺ لمُذنِبِي أهلِ التَّوحِيدِ، ومُرتَكِبِي الكبائِر، كما وردَ بهِ الخَبرُ الصَّحيحُ عن رسولِ الله ﷺ.

أخبرنا أبو سعيد بن حمدُون، قال: أنبأنا أبو حامد بن الشَّرقي، قال: حدَّثنا أحمد بن يوسف السُّلمي، قال: حدثنا عبد الرَّزاق، قال: أنبأنا مَعمرٌ، عن ثابتٍ، عن أنسٍ، عن النَّبِي ﷺ قال: «**شَفَاعَتِي لأَهْلِ الكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي**»[1].

وأخبرنا أبو علي زاهر بن أحمد، قال: أنبأنا محمد بن المُسيَّب الأرغِيَانِي، قال: حدثنا الحسن بن عَرَفة، قال: حدَّثنا عبد السلام بن حرب المُلائِي، عن زياد بن خَيْثَمَة، عن نُعمان بن قُرَاد، عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**خُيِّرتُ بَيْنَ الشَّفَاعَةِ وبَيْنَ أنْ يَدخُلَ شَطرُ أُمَّتِي الجَنَّةَ، فَاخْتَرتُ الشَّفَاعَةَ؛ لأنَّها أعَمُّ وأكفَى، أتُرونَهَا لِلمُؤمِنينَ المُتَّقين؟ لا، ولكِنَّها لِلمُذنِبِينَ المُتَلوثِينَ الخَطَّائِينَ**»[2].

أخبرنا أبو محمد المخلدي، قال: أنبأنا أبو العبَّاس السرَّاج، قال: حدثنا قتيبة بن سعيد، قال: حدثنا عبد العزيز بن محمد الدَّرَاوَرْدِي، عن عمرو بن أبي عمرو (ح).

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، في كتاب السنة، باب في الشفاعة (٤/ ٢٣٦) برقم (٤٧٣٩)، والترمذي في سننه، في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، باب: ما جاء في الشفاعة (٤/ ٦٢٥) برقم (٢٤٣٥) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٩/ ٣٢٧) برقم (٥٤٥٢).

وأخبرنا أبو طاهر بن خزيمة، قال: أنبأنا جدِّي الإمام محمد بن إسحاق بن خزيمة، قال: حدثنا علي بن حُجْرٍ، قال: حدثنا إسماعيل بن جعفرٍ، عن عمرو بن أبي عمرو، عن سعيد بن أبي سعيد المَقْبُري، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّه قال: يا رسول الله، مَنْ أسعدُ النَّاس بِشَفَاعَتِكَ يومَ القيامة؟ فقال: «**لَقَدْ ظَنَنْتُ أنْ لا يَسْأَلَنِي عَنْ هذا الحَدِيثِ أحَدٌ أوَّلُ مِنْكَ؛ لِما رَأَيْتُ مِنَ حِرْصِكَ على الحَدِيثِ، إنَّ أسْعَدَ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قِبَلِ نَفسِه**»[١].

الشَّرح

ذكر رحمه الله حديث أبي هريرة رضي الله عنه، الذي جاء في «الصحيح»، وذكر له طريقين؛ فأما الحديثان الأول والثاني، فهما ضعيفان.

والشفاعة مأخوذة من الشَّفْع.

ومعناها في اللغة: ضَمُّ طلب الشافع إلى طلب المشفوع له.

أما في الشرع فلها تعريفات متعددة، وهي متقاربة.

منها قولهم: هي طلب الخير للغير.

وقد اعترض على هذا بعض العلماء وقال: إنها ليست خاصة في طلب الخير، ولكنها أيضًا في دفع الشر.

نقول: إن قوله: «طلب الخير» يدخل فيه دفع الشر؛ لأن دفع الشر خير.

وبعضهم يُعَرِّفها بقوله: هي طلب ما ينفع المشفوع له من الخير وغيره.

ولكن المقصود هنا بالشفاعة: شفاعة الآخرة، أما الشفاعة في

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب العلم، باب: الحرص على الحديث (١/ ٣١) برقم (٩٩).

الدنيا فمن المعروف أن المشفوع فيه إذا كان جائزًا فقد جاء الترغيب فيها؛ فيشفع عند المسؤولين من أهل ولاة الأمر وغيرهم في الشيء الذي يجوز، ما عدا الحدودَ التي إذا ثبتت فلا يجوز الشفاعة فيها، كما جاءت النصوص بهذا، وقد جاء قول الرسول ﷺ في «الصحيح»: «**اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا، وَيَقْضِي اللهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ مَا شَاءَ**»[1].

وقد جاءت الشفاعة في كتاب الله ﷻ على قسمين:

القسم الأول: مُثبَت.

القسم الثاني: مَنفي.

أما المُثبَت: فهو الشفاعة التي تكون لأهل التوحيد بإذن الله، ولا بد فيها من **شرطين:**

أحدهما: لمن لا يشرك بالله.

والثاني: إذْن الله للشافع أن يشفع.

والنصوص في هذا كثيرة جدًّا في القرآن، وهي من الأمور الواضحة التي لا تحتاج إلى أن نتوقف عندها، ولكن يرجع ذكر الشفاعة في العقائد إلى أن أهل البدع أنكروها أو أنكروا أقسامًا منها؛ لأنها في الآخرة أنواع، حتى أوصلها صاحب «شرح الطحاوية» إلى ثمانية أنواع. ولكن هذه الأنواع فيها نظر، كما سيأتي التنبيه على هذا إن شاء الله.

وقد أنكر المعتزلة والخوارج بعضها، وقد تواترت الأحاديث عن

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الزكاة، باب التحريض على الصدقة والشفاعة فيها (٢/ ١١٣) برقم (١٤٣٢)، ومسلم في صحيحه، في كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب الشفاعة فيما ليس بحرام (٤/ ٢٠٢٦) برقم (٢٦٢٧) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

رسول الله ﷺ في إثبات الشفاعة لبعض المؤمنين، وهناك خلاف: هل ينتفع الكافر بالشفاعة؟

نقول: نعم، ولكن في العموم؛ لأن الشفاعة الكبرى تقع للناس كلهم لا للمؤمنين فقط، بل لأهل الموقف عمومًا؛ مؤمنهم، وكافرهم، ومنافقهم؛ لأنها لفصل القضاء؛ بأن يحاسب الرب ﷻ خلقه.

فإذا عُدَّ هذا شيئًا من النفع فهم يدخلون فيه، ولكنهم في الواقع يُعَجَّل بهم إلى النار، وإن كانوا يرون في ذلك الموقف أنهم إذا ذُهِبَ بهم إلى النار يكون أسهل؛ لأنه موقف شديد جدًّا، ومن يتتبع النصوص الواردة في يوم القيامة في أحوال الناس، يجد أن المؤمن ينتقل من شدة إلى ما هو أسهل وأريح له؛ فأشد ما يلاقي الموت، وما بعده أسهل؛ لأن الله ﷻ يقول في المتقين: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

وهذا عامٌّ؛ فالخوف في الأمور المستقبلة، والحزن على الشيء الفائت؛ فهم لا يحزنون على الدنيا التي فارقوها، ولا يخافون في مستقبلهم؛ لا في القبر ولا فيما بعده.

أما قول الله ﷻ في المؤمنين: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧] وما أشبه ذلك، فهذا ما كانوا يفعلونه وما يقع لهم في الدنيا، فهم يخافون أهوال يوم القيامة؛ قال ﷻ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] أي: أن من خاف وقوفه بين يدي ربه لمحاسبته، له جنتان لا جنة واحدة.

أما الكافر والمنافق فعلى النقيض من ذلك؛ إذ ينتقل من شدة إلى أشد منها؛ فأسهل ما يلاقي الموت، وقد ذكر الله ﷻ أن الملائكة تضرب وجوههم وأدبارهم، يقولون لهم: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ

ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام: ٩٣].

فهم يُقاسون الشدائد عند الموت بتعذيب الملائكة لهم، وقد جاء في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه وَصْفُ خروج الروح من بدن الكافر أنها إذا قيل لها: اخرجي إلى سَخَط من الله وغَضَب، تَفَرَّقُ في جسده، فينتزعها كما يُنتزَع السَّفُّودُ من الصُّوفِ المبلول[1]! ثم يكون القبر أشد، ثم خروجه من القبر أشد، ثم وقوفه أشد، ثم وَضْعُه في جهنم، وفي جهنم تجتمع الشدائد كلها. وقد جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: **«إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ القِيَامَةِ لَرَجُلٌ تُوضَعُ فِي أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَةٌ يَغْلِي مِنْهَا دِمَاغُهُ!»**[2].

يرى أنه أشد الناس عذابًا وهو أهونهم عذابًا، وهذا الرجل هو أبو طالب؛ عم النبي ﷺ[3].

إن العقيدة لا تَثبُت إلا بالنصوص الثابتة، ولا يجوز اعتماد نصوص ضعيفة؛ مثل هذين الحديثين اللذين ذكرهما من أن الشفاعة لأهل

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠/ ٤٩٩) برقم (١٨٥٣٤).
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٣/ ٥٠): رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار (٨/ ١١٥) برقم (٦٥٦١)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب أهون أهل النار عذابًا (١/ ١٩٦) برقم (٢١٣) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٣) إشارة إلى ما أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب (٥/ ٥٢) برقم (٣٨٨٣)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه (١/ ١٩٤) برقم (٢٠٩) من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أنه قال لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا أَغْنَيْتَ عَنْ عَمِّكَ، فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ؟ قَالَ: **«هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ»**.

الكبائر، وأنها للمُخطئين، وإن كان شَطْرُ الحديث الأول ثبت في أحاديث أخرى غير هذين الحديثين.

إن أهل السُّنَّة متَّفِقون على ثبوت الشفاعة، ولكنها لا تَثبُت إلا لأهل التوحيد، وقد جاء في «صحيح البخاري» أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: يا رسول الله، من أسعدُ الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال: «**أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ، أَوْ نَفْسِهِ**»[1]. فجعلها لأهل الإخلاص، والصدق، والإيمان.

إن أصل الشرك الذي وقع في بني آدم هو تعلُّقُهم بالشفاعة التي يتعارفون عليها في الدنيا؛ إذ من المعلوم أن الإنسان لا يستطيع الدخول على الكبراء والعظماء، ولكنه يذهب إلى من هو مُقَرَّب عندهم، فيسأله أن يشفع له، فيكون هذا أنجح لحاجته وأدعى لقضائها.

فقاسوا الشفاعة عند رب العالمين على هذه الشفاعة التي تكون عند المخلوق، فوقع الشرك من باب القياس؛ ولهذا نفى الله جل وعلا وقوع الشفاعة بهذه الصورة، وقد أخبر الله جل وعلا عنهم أنهم يقولون في أصنامهم ومعبوداتهم المتنوعة: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] أي: يشفعوا لنا.

وقال الله جل وعلا: ﴿**وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [يونس: ١٨].

لا وجود للشيء الذي لا يعلمه الله جل وعلا في السموات والأرض؛ إذ لا يخفى عليه شيء.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٣١) برقم (٩٩)، في كتاب العلم، باب: الحرص على الحديث.

ويقول ﷻ في آية أخرى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ۝٤٣ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزمر: ٤٣ـ٤٤]، فجعل الشفاعة له وحده.

وكل مسؤول يُسألُ الشفاعةَ من دونه لا يملك شيئًا، وربما يكون غير عاقل أيضًا، وقد قال ﷻ في آية أخرى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥ ـ ٦].

وسمى دعاءهم طَلَبَ الشفاعة عبادةً، وأنهم إذا كان يوم القيامة يكفرون بهم. قال ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ۝١٦٥ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٥ ـ ١٦٦].

فهذه الأسباب التي تقطَّعت بينهم مثلما يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «هي المودة»[١] التي كانت بينهم.

فقد قُطِعت هذه المودة وانتهت، يقول ﷻ: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔاۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩]. هذا مُطلَق؛ فقد جاءت ﴿نَفْسٌ﴾ في المرتين نكرة، فيدخل في ذلك كل نفس.

وهذا العموم الذي جاء في مثل هذه الآية هو الذي تعلَّق به أهل البدع وقالوا: لا شفاعة.

وعندهم أن الناس قسمان فقط؛ إما عذاب وإما نعيم، وليس هناك إنسان يُجمَع له عذاب ونعيم، واستدلوا بمثل قوله ﷻ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [آل عمران: ١٩٢].

---

(١) تفسير الطبري (٣/ ٢٩٠).

أي: أن الشفاعة التي تكون لأهل النار لا تقع؛ لأن كل من دخل النار قد أُخزي، ومن أُخزِيَ لا ينفعه شيء؛ يقول الله ﷻ: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨].

ويقول في آية أخرى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ١٢٣] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي استدلوا بها، قالوا: هذه أدلتنا واضحة وثابتة لا مطعن فيها.

فأجابهم أهل السُّنَّة بجوابين:

أحدهما: أن هذه التي نُفِيَت هي ما يزعمه المشركون من أن أصنامهم وآلهتهم تشفع لهم؛ فنفى الله ﷻ ذلك.

والآخر: أن الشفاعة المنفية لأهل الشرك هي كل شفاعة يدَّعيها الإنسان من دون الله، أو شفاعة تكون لمشرك.

أقسام الشفاعة:

أقسام الشفاعة، ذكر كثير من العلماء ـ ومنهم «شارح الطحاوية»[(١)] أن الشفاعة ثمانية أنواع:

النوع الأول: قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فيُشفَع فيهم أن يدخلوا الجنة، وهذا يكون قسمين؛ لأنه يدخل فيه على قولٍ عند أهل السُّنَّة أهل الأعراف؛ لأن أهل الأعراف هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فبَقُوا على الأعراف.

والأعراف مكان مرتفع بين الجنة والنار يُشرِف على هؤلاء وهؤلاء، وقد ذكر الله ﷻ أنهم: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَىٰهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ٤٦] أي: يطمعون في دخولها.

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (١/ ٢٨٢ ـ ٢٩٤).

ومن العلماء من يقول: إن الشفاعة تقع لهم.

النوع الثاني: لمن يدخل الجنة بلا حساب، وقد استدل على هذا بحديث حصين بن عبد الرحمن، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ أخبر أنه يدخل الجنة من أمته سبعون ألفًا بغير حساب، «فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ فَقَالَ: أَمِنْهُمْ أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**». فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ: أَمِنْهُمْ أَنَا؟ فَقَالَ: «**سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ**»[(١)].

النوع الثالث: فيمن دخل الجنة أن تُرفَعَ درجاتهم. وقد استشهدوا لهذا بما ثبت في «الصحيح» من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «لَمَّا فَرَغَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ حُنَيْنٍ بَعَثَ أَبَا عَامِرٍ عَلَى جَيْشٍ إِلَى أَوْطَاسٍ، فَلَقِيَ دُرَيْدَ بْنَ الصِّمَّةِ، فَقُتِلَ دُرَيْدٌ، وَهَزَمَ اللهُ أَصْحَابَهُ، قَالَ أَبُو مُوسَى: وَبَعَثَنِي مَعَ أَبِي عَامِرٍ، فَرُمِيَ أَبُو عَامِرٍ فِي رُكْبَتِهِ، رَمَاهُ جُشَمِيٌّ بِسَهْمٍ فَأَثْبَتَهُ فِي رُكْبَتِهِ، فَانْتَهَيْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ: يَا عَمِّ مَنْ رَمَاكَ؟ فَأَشَارَ إِلَى أَبِي مُوسَى فَقَالَ: ذَاكَ قَاتِلِي الَّذِي رَمَانِي، فَقَصَدْتُ لَهُ فَلَحِقْتُهُ، فَلَمَّا رَآنِي وَلَّى، فَاتَّبَعْتُهُ وَجَعَلْتُ أَقُولُ لَهُ: أَلَا تَسْتَحْيِي، أَلَا تَثْبُتُ، فَكَفَّ، فَاخْتَلَفْنَا ضَرْبَتَيْنِ بِالسَّيْفِ فَقَتَلْتُهُ، ثُمَّ قُلْتُ لِأَبِي عَامِرٍ: قَتَلَ اللهُ صَاحِبَكَ، قَالَ: فَانْزِعْ هَذَا السَّهْمَ فَنَزَعْتُهُ فَنَزَا مِنْهُ المَاءُ، قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي أَقْرِئِ النَّبِيَّ ﷺ السَّلَامَ، وَقُلْ لَهُ: اسْتَغْفِرْ لِي. وَاسْتَخْلَفَنِي أَبُو عَامِرٍ عَلَى النَّاسِ، فَمَكَثَ يَسِيرًا ثُمَّ مَاتَ، فَرَجَعْتُ فَدَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي بَيْتِهِ عَلَى سَرِيرٍ مُرْمَلٍ، وَعَلَيْهِ فِرَاشٌ، قَدْ أَثَّرَ رِمَالُ السَّرِيرِ بِظَهْرِهِ وَجَنْبَيْهِ، فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِنَا وَخَبَرِ أَبِي عَامِرٍ، وَقَالَ: قُلْ لَهُ: اسْتَغْفِرْ لِي، فَدَعَا بِمَاءٍ فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعُبَيْدٍ أَبِي عَامِرٍ**». وَرَأَيْتُ بَيَاضَ إِبْطَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**اللَّهُمَّ**

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الطب، باب من لم يرق (٧/ ١٣٤) برقم (٥٧٥٢)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب (١/ ١٩٩) برقم (٢٢٠).

اجْعَلْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ فَوْقَ كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِكَ مِنَ النَّاسِ». فَقُلْتُ: وَلِي فَاسْتَغْفِرْ، فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْسٍ ذَنْبَهُ، وَأَدْخِلْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ مُدْخَلًا كَرِيمًا**»(١).

فهذه شفاعة تكون في الدنيا لرفع درجات المؤمن، فجعلوا هذا نوعًا.

النوع الرابع: الشفاعة الكبرى، وهي المقام المحمود على القول الصحيح(٢)، **والأحاديث فيها متواترة عن النبي ﷺ، ولكن فيها القضاء بين الخلق، وهذه لا ينكرها أهل البدع كالمعتزلة والخوارج؛ لأنه ليس في ذلك أن أحدًا يدخل الجنة بهذه الشفاعة، وإنما يدخلون الجنة بأعمالهم، ويدخل أهل النارِ النارَ بأعمالهم.**

النوع الخامس: شفاعته ﷺ في دخول أهل الجنة الجنة؛ فإنه ثبت أنهم إذا عبروا على الصراط وقفوا على قنطرة قبل الجنة؛ حتى يقتَصَّ بعضهم من بعض، وتُطَهَّر قلوبهم من الأغلال والأحقاد، فلا يدخلون الجنة حتى يُطَهَّروا، ولا يؤذَنُ لهم بدخول الجنة حتى يشفَعَ لهم رسول الله ﷺ في دخول الجنة.

وهذا النوع يُقِرُّ به أهل البدع أيضًا، وقد وردت فيه أحاديث ثابتة عن النبي ﷺ.

النوع السادس: شفاعته ﷺ في قوم استحقُّوا دخول النار ألَّا يدخلوها.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب المغازي، باب غزوة أوطاس (٥/ ١٥٥) برقم (٤٣٢٣)، ومسلم في صحيحه، في كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل أبي موسى وأبي عامر الأشعريين رضي الله عنهما (٤/ ١٩٤٣) برقم (٢٤٩٨).

(٢) إشارة إلى قوله ﷻ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الأسراء: ٧٩].

النوع السابع: ولها أربعة أقسام، وهي ثابتة بأحاديث متواترة عن النبي ﷺ وهي:

شفاعته ﷺ فيمن دخل النار من أهل التوحيد؛ فإنه ثبت أنه يسجد ويفتح الله عليه من المحامد والثناء.

عن معبد بن هلال العنزي قال: «اجْتَمَعْنَا نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ فَذَهَبْنَا إِلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وَذَهَبْنَا مَعَنَا بِثَابِتٍ الْبُنَانِيِّ إِلَيْهِ يَسْأَلُهُ لَنَا عَنْ حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ، فَإِذَا هُوَ فِي قَصْرِهِ، فَوَافَقْنَاهُ يُصَلِّي الضُّحَى، فَاسْتَأْذَنَّا، فَأَذِنَ لَنَا وَهُوَ قَاعِدٌ عَلَى فِرَاشِهِ، فَقُلْنَا لِثَابِتٍ: لَا تَسْأَلْهُ عَنْ شَيْءٍ أَوَّلَ مِنْ حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ، فَقَالَ: يَا أَبَا حَمْزَةَ، هَؤُلَاءِ إِخْوَانُكَ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ جَاؤوكَ يَسْأَلُونَكَ عَنْ حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ، فَقَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ ﷺ قَالَ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ مَاجَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ، فَيَأْتُونَ آدَمَ... وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، **فَيَأْتُونِي، فَأَقُولُ: أَنَا لَهَا فَيَأْتُونِي، فَأَقُولُ: أَنَا لَهَا، فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي، فَيُؤْذَنُ لِي، وَيُلْهِمُنِي مَحَامِدَ أَحْمَدُهُ بِهَا لَا تَحْضُرُنِي الآنَ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، وَأَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ ـ أَوْ خَرْدَلَةٍ ـ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ، فَأَنْطَلِقُ، فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةِ خَرْدَلٍ**

مِنْ إِيمَانٍ، فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ»[١].

قوله: **«هَؤُلَاءِ إِخْوَانُكَ مِنْ أَهْلِ البَصْرَةِ جَاؤوكَ يَسْأَلُونَكَ عَنْ حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ»**؛ إذ وقع في ذلك الوقت وفي ذلك البلد إنكار الشفاعة من الخوارج ومن غيرهم.

فأخبَرَهم بها، ثم ذهبوا إلى الحسن البصري، وكان مختفيًا في بيت أبي خليفة عن الحَجَّاج؛ لأنه يطلبه ليقتُلَه، فقالوا له: يَا أَبَا سَعِيدٍ، جِئْنَاكَ مِنْ عِنْدِ أَخِيكَ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، فَلَمْ نَرَ مِثْلَ مَا حَدَّثَنَا فِي الشَّفَاعَةِ، فَقَالَ: هِيهْ، فَحَدَّثْنَاهُ بِالحَدِيثِ، فَانْتَهَى إِلَى هَذَا المَوْضِعِ، فَقَالَ: هِيهْ، فَقُلْنَا لَمْ يَزِدْ لَنَا عَلَى هَذَا، فَقَالَ: لَقَدْ حَدَّثَنِي وَهُوَ جَمِيعٌ مُنْذُ عِشْرِينَ سَنَةً، فَلَا أَدْرِي أَنَسِيَ أَمْ كَرِهَ أَنْ تَتَّكِلُوا، قُلْنَا: يَا أَبَا سَعِيدٍ، فَحَدِّثْنَا، فَضَحِكَ، وَقَالَ: خُلِقَ الإِنْسَانُ عَجُولًا، مَا ذَكَرْتُهُ إِلَّا وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُحَدِّثَكُمْ. حَدَّثَنِي كَمَا حَدَّثَكُمْ بِهِ، قَالَ: **«ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ المَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَيَقُولُ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي، وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي؛ لَأُخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»**[٢].

هذه كلها نوع واحد.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب التوحيد، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم (٩/ ١٤٦) برقم (٧٥١٠)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١/ ١٨٠) برقم (١٩٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب التوحيد، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم (٩/ ١٤٦) برقم (٧٥١٠)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١/ ١٨٠) برقم (١٩٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

النوع الثامن: وهو أيضًا ثابت في الأحاديث الصحيحة، وهي شفاعة خاصة في رجل واحد، وهي شفاعته ﷺ في عمه أبي طالب، كما جاء في «الصحيحين» من حديث العباس بن عبد المطلب، أنه قال: يا رسول الله، هل نفعْتَ أبا طالب بشيء؛ فإنه كان يحوطك ويغضبُ لك؟ **«نَعَمْ، هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ»**(١)، وجاءت أحاديث مختلفة في هذا؛ منها: أنه يُجعَل له نعلان من نار، ومنها: أنه يُجعل في أخمصيه جمرتان من نار يغلي منهما دماغه.

وهذه أحاديث ثابتة عن النبي ﷺ.

فهذه أنواع ثمانية في الشفاعة الثابتة، ولكن فيها **قسمان لا دليل عليهما**:

القسم الأول: من تساوت حسناته وسيئاته؛ إذ لا يوجد دليل على هذا.

وقد ذكر الحافظ ابن حجر هذا(٢)، ولكنه لم يذكر عليه دليلًا، كما ذكره أيضًا ابن كثير في النهاية(٣)، ولم يذكر عليه دليلًا معتمَدًا.

القسم الثاني: الشفاعة لمن استحقَّ دخول النار ألَّا يدخُلَها.

ويقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: لم أجد عليه دليلًا بعد التتبع إلى الآن.

فتبقى ستة أنواع، وهذه الأنواع الستة هي التي ذكرها شيخ الإسلام وغيره من العلماء.

ولا تقع الشفاعة التي ذُكِرت في القرآن إلا بعد إذن الله لمن يشاء ولمن يرضى الله عنه، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) فتح الباري لابن حجر (١١/ ٣٩٩).

(٣) البداية والنهاية (٢٠/ ١٨٩).

فنفى أن تقع الشفاعة إلا بعد إذنه، وقال ﷻ في الملائكة: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، فدَلَّ على أن الملائكة أيضًا يَشفَعون.

أما النصوص التي جاءت عن النبي ﷺ فهي كثيرة، ومنها ما ورد أن النبي ﷺ قال: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ ـ إِنْ شَاءَ اللهُ ـ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا**»(١). هذا اللفظ ثابت عن النبي ﷺ.

قوله: عن أنسٍ...: «شَفَاعَتِي لأَهْلِ الكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي»، والحديث الآخر: «.. **ولكِنَّها لِلْمُذنِبِينَ المُتلوِّثِينَ الخَطَّائِينَ**» هذه أحاديث ضعيفة.

قوله: «أَتَانِي آتٍ مِنْ رَبِّي ﷻ فَخَيَّرَنِي بِأَنْ يَدْخُلَ ثُلُثُ أُمَّتِي الْجَنَّةَ وَبَيْنَ الشَّفَاعَةِ لَهُمْ، فَاخْتَرْتُ لَهُمْ شَفَاعَتِي، وَعَلِمْتُ أَنَّهَا أَوْسَعُ لَهُمْ، فَخَيَّرَنِي بَيْنَ أَنْ يَدْخُلَ شَطْرُ أُمَّتِي الْجَنَّةَ وَبَيْنَ شَفَاعَتِي لَهُمْ، فَاخْتَرْتُ شَفَاعَتِي لَهُمْ، وَعَلِمْتُ أَنَّهَا أَوْسَعُ لَهُمْ»(٢).

قد صحح هذا الحديث كثيرٌ من حُفَّاظ الحديث، أما كونه يشفع فيمن دخل النار، فالأحاديث متواترة في ذلك.

ولكن يبقى هناك إشكال يورده بعض العلماء على هذه الأحاديث، وهي أنه جاءت أحاديث صحيحة ثابتة عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، صادقًا من قَلْبِه**»(٣) ـ وفي رواية: «**خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ**»(٤) ـ،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب اختباء النبي ﷺ دعوة الشفاعة لأمته (١/ ١٨٩) برقم (١٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢/ ٤٩٨) برقم (١٩٧٢٤) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (٣٦/ ٣٢٩) برقم (٢٢٠٠٣)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٩/ ٤٠٥) برقم (١٠٨٧٧).

(٤) أخرجه البخاري (١/ ٣١) برقم (٩٩)، كتاب العلم، باب: الحرص على الحديث، =

حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ النَّارَ»[١].

وكما في حديث أنس رضي الله عنه، الذي جاء في «الصحيحين» أن النبي ﷺ قال: «**يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ شَعِيرَةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ بُرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ**»[٢].

ومن الأحاديث المتواترة أيضًا أنه يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه مثقال كذا من إيمان[٣].

فكيف نجمع بين هذا وذاك؟

اختار البخاري رحمه الله في صحيحه أن تحريم النار على من قال: لا إله إلا الله، أنه خاص فيمن قال هذه الكلمة تائبًا ومات على ذلك دون اقتراف ذنوب وسيئات، فمثل هذا يُحَرَّم على النار.

وهذا ما قاله أيضًا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، قال: من قال لا إله إلا الله موحِّدًا صادقًا مخلِصًا، منعه إخلاصه من الوقوع في الكبائر، فيُحَرَّم على النار.

أما الأحاديث التي فيها أنه يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله،

= وأحمد في «المسند» (٣٢/ ٤٦٥) برقم (١٩٦٨٩).

(١) أخرجه البخاري (١/ ٣٧) برقم (١٢٨)، في كتاب العلم، باب: من خص بالعلم قوما دون قوم، كراهية أن لا يفهموا، ومسلم (١/ ٥٧) برقم (٢٩)، في كتاب الإيمان، باب: من لقي الله بالإيمان وهو غير شاكٍّ فيه دخل الجنة وحرم على النار.

(٢) أخرجه البخاري (١/ ١٧) برقم (٤٤)، في كتاب الإيمان، باب: زيادة الإيمان ونقصانه، ومسلم (١/ ١٨٢) برقم (١٩٣)، في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها.

(٣) أخرجه البخاري (١/ ٣٧) برقم (١٢٨)، في كتاب العلم، باب: من خص بالعلم قوما دون قوم، كراهية أن لا يفهموا.

فمعنى ذلك أنه يقول: لا إله إلا الله، ويأتي بما يضعِفُها أو يكاد ينافيها، لا مجرد قول لا إله إلا الله بلا معرفة بمعناها، وعَمَلٍ بما دلت عليه، فيدخل في هذا مثلًا عُبَّاد القبور، والمشركون، واليهود، وغيرهم؛ لأنهم يقولون: لا إله إلا الله.

كما أنه ليس المقصود بذلك الاقتصار على قول: لا إله إلا الله، بل لا بد أن يضاف إليها شهادة أن محمدًا رسول الله، ولكن اقتصر عليها؛ لأن الشهادتين شهادة واحدة.

إن المقصود هنا إثبات الشفاعة التي ينكرها أهل البدع، وهي ثابتة.

ويتلخص من هذا: أن الشفاعة ـ بعد إثبات أقسامها الستة ـ منها ما هو خاص بنبينا ﷺ، ومنها ما هو عام للأنبياء، والملائكة، والمؤمنين، والأطفال الذين يشفعون لآبائهم.

فالخاصة بالنبي ﷺ ثلاث، هي: الشفاعة الكبرى، والشفاعة في افتتاح باب الجنة، والشفاعة في عمه أبي طالب.

أما الثلاثة الأخرى فليست خاصة به؛ إذ يشفع هو، والرسل، والمؤمنون، وغيرهم. وقد ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال: «**مَا أَنْتُمْ بِأَشَدَّ لِي مُنَاشَدَةً فِي الحَقِّ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنَ المُؤْمِنِ يَوْمَئِذٍ لِلْجَبَّارِ ـ وَإِذَا رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ نَجَوْا ـ فِي إِخْوَانِهِمْ، يَقُولُونَ: رَبَّنَا، إِخْوَانُنَا كَانُوا يُصَلُّونَ مَعَنَا، وَيَصُومُونَ مَعَنَا، وَيَعْمَلُونَ مَعَنَا. فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: اذْهَبُوا، فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ، وَيُحَرِّمُ اللهُ صُوَرَهُمْ عَلَى النَّارِ، فَيَأْتُونَهُمْ وَبَعْضُهُمْ قَدْ غَابَ فِي النَّارِ إِلَى قَدَمِهِ، وَإِلَى أَنْصَافِ سَاقَيْهِ، فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ =

وقد يقول إنسان: كيف يذهبون إلى النار؟ وكيف يخرجونهم؟

نقول: أمور الآخرة تفوق التصور الذي نعرفه نحن، وإذا شاء ﷻ جعل النار غير محرِقة لمن يريد ﷻ.

وقد ذكر ﷻ أن بعض المؤمنين يذهب ويطَّلِع في النار: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝٥٠ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝٥١ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ [الصافات: ٥٠ ـ ٥٤]، أي: في النار، ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۝٥٥ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝٥٦ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات: ٥٥ ـ ٥٧].

ويقول الله ﷻ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ [الأنبياء: ١٠٢]. ولكن إذا أرادوا أن يطَّلِعوا أطلَعَهم الله، وكذلك إذا أرادوا أن يكلِّموهم كلَّموهم؛ قال ﷻ: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤]. ثم قال فيما بعد: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ۚ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠].

والمؤمنون في الجنة لهم ما يشاؤون؛ فإذا أرادوا أن يَطَّلِعوا على أعدائهم ليشاهدوا تعذيبهم في النار، أطلعهم الله عليه؛ لأن هذا من النعيم.

أما شفاعة الملائكة فقد جاء النص عليها في كتاب الله ﷻ، وكذلك الرسل، وقد قال الله ﷻ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

= نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣] (١٢٩/٩) برقم (٧٤٣٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وشفاعة الشافعين عامة، وهؤلاء الذين لا تنفعهم شفاعة الشافعين هم الذين يُكَذِّبون بيوم الدين، والذين لا يُصَلُّون، والذين يخوضون مع الخائضين. فهؤلاء هم الكُفَّار، ومثلهم المنافقون.

والشفاعة مأخوذة من الشَّفع، وهو ضد الوِتر؛ فالواحد وِتر، والاثنان شَفْعٌ، والثلاثة وِتر، والأربعة شَفْعٌ، وهكذا. يقول الله ﷻ: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾ [الفجر: ١ ـ ٣].

يقول كثير من المفسرين: الشفع هو المخلوقات، والوِتْر: هو الله ﷻ؛ فهو وتر، كما قال ﷺ «**إِنَّ اللهَ وِتْرٌ، يُحِبُّ الْوِتْرَ**»[(١)].

فالشفاعة أُخذت من هذا المعنى؛ لأن معنى الشفاعة الدعاء؛ فالشافع يضم دعاءه إلى المشفوع، فيكون شفعًا بعدما كان فردًا.

وقد تعلق المشركون بالشفاعة من قديم الزمان، ولا يزالون على هذا، وقد ظنوا أن الشفاعة هي التعلق بالمخلوق، وليس الأمر كذلك؛ لأن الشفاعة معناها دعاءُ اللهِ ﷻ أن يعفوَ عمن وقع في ذنب من الذنوب واستحقَّ العذاب.

والدعاء أعم من هذا أيضًا، ولكن الشفاعة دعاء من هذه الحيثية.

وحقيقة الشفاعة هي: إرادة رحمة الله ﷻ للمشفوع له، وإظهار كرامة الشافع؛ إذ الشفاعة لله وحده، ولا يملك أحد منها شيئًا؛ يقول الله ﷻ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ۝٤٣ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ﴾ [الزمر: ٤٣، ٤٤]، ويقول ﷻ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ويقول ﷻ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها (٤/ ٢٠٦٢) برقم (٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقد جاءت الشفاعة في كتاب الله على نوعين:

النوع الأول: باطل لا وقوع له ولا وجود له، وهو الذي يَدَّعي المشركون أنه يقع لمعبوداتهم التي اتخذوها: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] أي: يشفعون لنا.

النوع الثاني: الشفاعة التي تقع يوم القيامة، **وهي لها شرطان:**

أحدهما: إذْنُ الله ﷻ للشافع أن يشفع.

ومعنى الإذن أن يأمر الشافِعَ أن يشفع، كما صرَّحت بهذا الأحاديثُ.

الثاني: رضاه عن المشفوع له.

ودون ذلك لا تقع الشفاعة؛ قال ﷻ: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقال ﷻ: ﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا﴾ [طه: ١٠٩].

فعلى هذا قلنا: إن الشفاعة لله ﷻ، ولكنه إذا أراد أن يُكرِمَ عبدًا من عباده، أمره بالشفاعة؛ ولهذا يقول ﷺ: «**ثُمَّ يُقَالُ لِي: ارْفَعْ مُحَمَّدُ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ؛ فَأَحْمَدُ رَبِّي بِمَحَامِدَ عَلَّمَنِيهَا، ثُمَّ أَشْفَعُ، فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ**»[1].

فليست الشفاعة على مراد الشافع، وإنما هي بأمره ﷻ، وكذلك تكون بتحديده المشفوعَ له، يقول: هؤلاء.

أما أهل الشرك فلا تنالهم شفاعة، وكذلك أهل الكفر، فلا يدخلون في شفاعة الشافعين.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ (٩/ ١٢١) برقم (٧٤١٠)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١/ ١٨٢) برقم (١٩٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

والشفاعة ـ كما ذكرنا من قبل ـ تكون من الرسل، ومن الملائكة، ومن المؤمنين، ومن الأطفال الذين ماتوا صغارًا؛ ولهذا جاءت ﴿ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ بصيغة الجمع.

وقال ﷻ: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦]، أي: يأذن للشافع ويرضى عن المشفوع له. وعلى هذا فليس للمشرك فيها نصيب، كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه في «الصحيحين»، الذي ذكره المؤلف هنا.

والحديث الأول الذي ساقه المصَنِّف ضعيف، وكذلك الذي بعده، وقد أغنانا الله ﷻ بآيات من كتابه، وأحاديث من رسوله ﷺ؛ عن الأحاديث الضعيفة، وكان من الواجب على المؤلِّف رحمه الله أن يتجنب الأحاديث الضعيفة، ويقتصر على الأحاديث الصحيحة الثابتة عن رسول الله ﷺ، ولكن عادة المحدِّثين أنهم يذكرون غالب ما في الباب أو كله، ويجعلون بعضه يعتَضِد ببعض.

وقد تبَيَّن من الحديث الذي جاء في «الصحيحين» عن أبي هريرة أنه سأل النبي ﷺ: من أسعدُ الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال: «**أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ، أَوْ نَفْسِهِ**»[١] ـ أن الشفاعة لأهل التوحيد.



(١) سبق تخريجه.

[قال رَحِمَهُ اللهُ]: «ويُؤْمِنُونَ بِالحوضِ والكَوثَرِ، وإدخَالِ فريقٍ من المُوحِّدِينَ الجنَّةَ بغيرِ حِسَابٍ، ومُحاسَبَةِ فرِيقٍ مِنهُم حِسَابًا يَسيرًا، وإدخَالِهِم الجَنَّةَ بِغَيرِ سُوءٍ يَمَسُّهُم وعَذَابٍ يَلحَقُهُم، وإدخَالِ فَرِيقٍ من مُذْنِبِيهِمُ النَّارَ، ثمَّ إعْتَاقِهِمْ وإخْرَاجِهِم مِنْهَا، وإلحَاقِهِم بِإخْوَانِهِم الذِينَ سبَقُوهم إليْهَا، ويَعلَمون حقًّا يقينًا أن مُذنِبي المُوحِّدين لا يُخلَّدُون في النَّار، ولا يُترَكون فيها أبدًا؛ فأمَّا الكُفار فإنَّهم يُخلَّدون فيها، ولا يَخرُجُونَ منهَا أبدًا، ولا يُستعتَبون، ولا يُفتَّر عنهم، وهم فيه مُبلِسون، ولا يَتركُ اللّٰهُ فيها من عصاةِ أهلِ الإيمانِ أحدًا».

الشَّرح

هذه من الأمور الكلية التي يؤمن بها أهل السُّنَّة؛ لورودها في كتاب الله ﷻ، وكذلك تواترها في أحاديث رسول الله ﷺ. جميع ما أخبر الله ﷻ به عن اليوم الآخر؛ من البعث، وكونِ الإنسان يُسأل في قبره، وكونه يُنعَّم أو يُعذَّب، ثم بعد ذلك جَمْعهم للقيام بين يدي الله ﷻ، ثم الأمور التي جاء تفصيلها، ومنها الحوض والكوثر.

الحوض: مجتَمَع الماء.

أما الكوثر: فهو اسم لنهر في الجنة يصُبُّ في الحوض، وقد قال الله ﷻ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ١ ـ ٣].

وجاء في تفسير ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «الكَوْثَرُ: الخَيْرُ الكَثِيرُ الَّذِي أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهُ»(١).

(١) صحيح البخاري (٨/ ١١٩) برقم (٦٥٧٨)، في كتاب الرقاق، باب: في الحوض.

وجاء في الحديث الصحيح أنه نهر أعطاه الله ﷻ نبيَّه ﷺ، وأنه يصب في الحوض[(١)].

وقد وصف الرسول ﷺ سَعَتَه وطُولَه، وكثرة الواردين عليه، وكثرة الكيزان التي يُشرَب بها، فقال: إنه أبيض من اللبن، وأحلى من العسل، وإنه أبعد من صنعاء عن المدينة ـ أي: أنَّ سعَتَه مسيرة شهر ـ وأنه يقف عليه ﷺ يذود عنه من ليس من أمته، قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ حَوْضِي لَأَبْعَدُ مِنْ أَيْلَةَ مِنْ عَدَنٍ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَذُودُ عَنْهُ الرِّجَالَ، كَمَا يَذُودُ الرَّجُلُ الْإِبِلَ الْغَرِيبَةَ عَنْ حَوْضِهِ**». **قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَتَعْرِفُنَا؟ قَالَ**: «**نَعَمْ، تَرِدُونَ عَلَيَّ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ، لَيْسَتْ لِأَحَدٍ غَيْرِكُمْ**»[(٢)].

وذكر أنه يُمنَعُه بعضُ هذه الأمة؛ قال رسول الله ﷺ: «**أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، فَمَنْ وَرَدَهُ شَرِبَ مِنْهُ، وَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهُ أَبَدًا، لَيَرِدُ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا بَدَّلُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي**»[(٣)].

ولهذا يقول أهل السُّنَّة: أهل البدع لا يَرِدُون على الحوض، وإنما يَرِدُ عليه من اتَّبَع سنة المصطفى ﷺ، وجاء في وصفه أنه: «**مَنْ شَرِبَ مِنْهُ**

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨/ ٣٦١) برقم (٢٣٣٣٦) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء (١/ ٢١٧) برقم (٢٤٧) من حديث حذيفة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٩/ ٤٦) برقم (٧٠٥٠)، في كتاب الفتن، باب: ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] وما كان النبي ﷺ يُحذِّر من الفتن، ومسلم (٤/ ١٨٠٠) برقم (٢٣٠٤)، في كتاب الفضائل، باب: إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته.

فَلَا يَظْمَأُ بَعْدَهُ أَبَدًا»(١).

وقد طلب أنس بن مالك رضي الله عنه الشفاعةَ من الرسول ﷺ؛ قال رضي الله عنه: «سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يَشْفَعَ لِي يَوْمَ القِيَامَةِ، فَقَالَ: أَنَا فَاعِلٌ. قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَأَيْنَ أَطْلُبُكَ؟ قَالَ: **اطْلُبْنِي أَوَّلَ مَا تَطْلُبُنِي عَلَى الصِّرَاطِ**. قَالَ: قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَلْقَكَ عَلَى الصِّرَاطِ؟ قَالَ: **فَاطْلُبْنِي عِنْدَ الْمِيزَانِ**. قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَلْقَكَ عِنْدَ الْمِيزَانِ؟ قَالَ: **فَاطْلُبْنِي عِنْدَ الحَوْضِ؛ فَإِنِّي لَا أُخْطِئُ هَذِهِ الثَّلَاثَ الْمَوَاطِنِ»**(٢).

لماذا ينص أهل السُّنَّة على الحوض والكوثر؟ أليس داخلًا في الإيمان باليوم الآخر؟ وكذلك رؤية المؤمنين لربهم، وكذلك الجنة والنار، وغيرها.

لأن من أركان الإيمان بالله جل وعلا الإيمانَ باليوم الآخر، واليومُ الآخر يدخل فيه كلُّ ما أخبر به الرسول ﷺ، أو جاء عن الله جل وعلا بإخباره أنه سيكون، كالمحاسبة وغير ذلك.

فذَكَر الحوض والكوثر؛ لأن بعض أهل البدع أنكروا وجودَه.

فيقول: ليس في الموقف ماءٌ، ولا طعام، ولا ظِلٌّ، وقد جاء أنهم يأتون كما ولدتهم أمهاتهم، وجاء في القرآن أنهم يَرِدون أفرادًا ليس معهم شيء. قال: هذا في أول الأمر.

ثم اختلف أهل السُّنَّة الذين يؤمنون بهذا يقينًا؛ أين مكان الحوض؟

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الرقاق، باب في الحوض (٨/ ١١٩) برقم (٦٥٧٩)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته (٤/ ١٧٩٣) برقم (٢٢٩٢) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في شأن الصراط (٤/ ٦٢١) برقم (٢٤٣٣)، وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

مما لا شك فيه أنه في أرض المحشر التي يُحشَر فيها الناس، وقد جاءت نصوص كثيرة تدل على أن النار تكون محيطة بالناس في ذلك الموقف؛ ففي «الصحيحين» حديث عَدِي بن حاتم أن النبي ﷺ أمر بالصدقة فقال: «**مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلا يَرَى إِلَا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ؛ فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ**»[١].

وهذه النظرات هي شأن من ارتبك ووقع في حَيرة، يتلفت أين المخرج، لا يُوجَد مَخْرَج!

ومعنى قوله ﷺ: «**فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ**» أنه يُجعَل بين المتقي وبين النار حاجِبٌ يقيه.

وقد جاء تفصيل ذلك في النار؛ أنه يؤتَى بها بعد وقوفهم تُجَرُّ بسبعين ألف زمام، في كل زمام سبعون ألف مَلَك، تكاد تتفلت عليهم، حتى تأتي على أهل الموقف؛ غضبًا لله ﷻ! وقد ذكر الله ﷻ أنها تكاد تتمَيَّز - أي: تتقَطَّع - من الغيظِ!

وفي هذا الموقف أشياء كثيرة جدًّا، ولكنه ذكر الشيء الذي أنكره أهل البدع، وهم أنكروا هذا؛ لأنهم يحكِّمون عقولهم، لا لأنه جاءت نصوص قد يكون فيها اشتباه أو ردٌّ لهذا، والنصوص لا تختلف، ولكن هؤلاء لهم قوانين وضعوها بأنفسهم، وحكموا بها على الأخبار التي جاءت عن الله ﷻ، وعن رسوله ﷺ! ويدخل في هذا عندهم نصوص القرآن؛ فإذا جاءت نصوص القرآن صريحةً قالوا: إنها وإن كان ثبوتها قطعيًّا فدَلالتها ظَنِّية، فلا نَصِيرُ إليها تاركين ما هو يقيني عندنا؛ لأن أدلة

(١) سبق تخريجه.

العقل عندهم يقينية! وهؤلاء هم المعتزلة الذين قد يصح أن يُطلَق عليهم «عُبَّاد العقل»؛ فقد عَبَدوا عقولهم، مع أن العقول لا تهتدي إلى هذه التفاصيل التي تتوقف على مجيء الخبر!

وقد جاء أن لكل نبي حوضًا، ولكنْ حوض نبينا ﷺ أكبرها وأوسعها وأكثرها واردًا.

أما ما جاء في الحديث الضعيف ـ الذي لا يجوز أن يَثبُت به شيء ـ من أن لكل نبي حوضًا، إلا صالحًا عليه السلام؛ فإن حوضه ضَرْعُ ناقته التي جعلها الله جل وعلا له آيةً[(١)]؛ فهذا غير صحيح.

وقد أخبرنا جل وعلا أن الذين يؤمنون بالأنبياء الذين قَصَّ قَصَصَهم علينا، ليسوا كثيرين، ما عدا موسى عليه السلام؛ فإن أتباعه كثيرون، كما جاء النص على ذلك في أحاديث رسول الله ﷺ الثابتة.

عن ابن عباس، رضي الله عنهما قال: خرج علينا النبي ﷺ يومًا فقال: **«عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَجَعَلَ يَمُرُّ النَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، وَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الأُفُقَ، فَرَجَوْتُ أَنْ تَكُونَ أُمَّتِي، فَقِيلَ: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، ثُمَّ قِيلَ لِي: انْظُرْ، فَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الأُفُقَ، فَقِيلَ لِي: انْظُرْ هَكَذَا وَهَكَذَا، فَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الأُفُقَ، فَقِيلَ: هَؤُلَاءِ أُمَّتُك، وَمَعَ هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ!»**[(٢)].

وقد استشكل كثير من شُرَّاح الحديث كون الحوض يَصُبُّ فيه نهر

---

(١) الضعفاء الكبير للعقيلي (٣/ ٦٤)، الموضوعات لابن الجوزي (٣/ ٢٤٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الطب، باب: من لم يرق (٧/ ١٣٤) برقم (٥٧٥٢)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب (١/ ١٩٩) برقم (٢٢٠).

من الجنة، مع أن النار حالت بين الناس وبين الجنة، ولا عبورَ إلى الجنة إلا فوق النار، والصراط يكون فوق النار، وهو شديد الحرارة؛ إذ لا يطاق السير عليه، وهو أحر من الجمر، ولكن السير عليه ـ كما سيأتي ـ ليس بالقوة وعلى الأقدام كما هو معهود عندنا، وإنما هو بالأعمال؛ فمن كان عمله خالصًا لله ﷻ، وكان مستقيمًا على الصراط المعنوي في هذه الدنيا، يكون سيره مستقيمًا ومسرعًا على الصراط الحِسِّي.

فيقول بعضهم: الحوض بعد الصراط وليس قبله.

ورجَّح هذا كثير من شُرَّاح الحديث بهذا المعنى، ولكن الذي يُفهَم من الأحاديث أنه ليس بعد الصراط، بل هو في الموقف؛ ولهذا يُذكر ـ كما جاء في حديث أنس رضي الله عنه ـ مقرونًا بالميزان وبالصراط.

وإن كانت المسألة ليس فيها اجتهاد، ولا بد أن يتوقف على النص، ولكن لم يأتِ نصٌّ صريح بأنه قبل الصراط أو بعده، وإنما هي مفاهيم، وبعض الناس لديهم شيء يسمونه الكشف، يقول: الغزالي في بعض كتبه: يرى أهل الكشف أنه يكون في كذا وكذا[1]!

ولا يجوز اعتبار هذا ولا الاعتماد عليه؛ لأنها أمور ظنية.

ولهذا يجب الإيمان بأنه يكون في الموقف، وأن المؤمنين يشربون منه، وقد يُحرَم بعضهم الشربَ منه، والشرب منه علامة السعادة؛ لهذا قال: «**مَنْ وَرَدَهُ فَشَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهَا أَبَدًا**»[2]، ولكن هذا ليس أمرًا قطعيًّا بأنه لا يُعَذَّب بعد ذلك؛ إذ يجوز أن يُعَذَّب، ولكنه لا يظمأ؛ لأن الشرب مما في الجنة لا يُشبِه الشرب من مياه الدنيا؛ فأثر الشرب يبقى دائمًا.

---

(١) ينظر: إحياء علوم الدين (٤/ ٢٤٥ ـ ٢٤٦).

(٢) سبق تخريجه.

وقوله: وَيُؤْمِنُونَ بِالحوضِ.

أي: يُصَدِّقون بالأخبار التي جاءت في وصفه، وأنه يكون في الموقف، ويَرِدُ عليه المؤمنون ويشربون منه، فمن ورد شرب.

وقد جاءت النصوص الصريحة الصحيحة في وصف ذلك عن الرسول ﷺ.

إن الحوض والكوثر شيء واحد.

والحوض في اللغة: هو المكان الذي يجتمع فيه الماء.

وقد جاء ذكر الحوض في كتاب الله؛ قال ﷻ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: ١ ـ ٢].

فالكوثر هو النهر الذي يصب في الحوض، وقد جاء أن النهر له ميزابان من الجنة يصبان فيه، وجاء في وصفه أن طوله مسيرة شهر، وعرضه مسيرة شهر، وفي رواية أنه: «**إِنَّ لِي حَوْضًا مَا بَيْنَ أَيْلَةَ إِلَى صَنْعَاءَ**»[(١)]، وفي رواية أنه: «**كَمَا بَيْنَ المَدِينَةِ وَصَنْعَاءَ**»[(٢)]، وهذا تقدير للمسافة، والله أعلم بحقيقته.

وهذا خاص بنبينا ﷺ، ولكل نبي حوض، أما قول بعض الناس: إلا صالحًا؛ فإن حوضه ضرع ناقته التي جعلها الله ﷻ له آيةً. فهذا لا أصل له ـ كما ذكرنا من قبل ـ فالأنبياء لهم أيضًا أحواض، وكل رسول يأتي معه أتباعه الذين آمنوا به، وقد يأتي الرسول ليس معه إلا قلة.

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٣٣/ ٤١) برقم (١٩٨٠٣)، وابن حبان (١٤/ ٣٧١) برقم (٦٤٥٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الرقاق، باب في الحوض (٨/ ١٢١) برقم (٦٥٩١)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته (٤/ ١٧٩٧) برقم (٢٢٩٨) من حديث حارثة بن وهب ﵁.

ولم يَرِدْ تعيين مكان الحوض: هل هو في مكان المحاسبة أو بعد ذلك؟ ولكن بعض العلماء يقولون: من المناسب أن يكون قبل العبور على الصراط؛ لأن الناس في هذا يكونون أشد حاجةً إلى الماء.

ويَرِدُ أتباع الرسول ﷺ الحوض، ومن ورد شرب، ومن شرب لا يظمأ أبدًا.

وجاء أن الحوض فيه كيزان عدد نجوم السماء؛ لكثرة وارده، وأنه ﷺ يذود عنه الناس الذين ليسوا على سنته وليسوا من أمته.

وجاء في «الصحيحين» أن الرسول قال ﷺ: «**أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الحَوْضِ، فَمَنْ وَرَدَهُ شَرِبَ مِنْهُ، وَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهُ أَبَدًا، لَيَرِدُ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا بَدَّلُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي**»(١).

أي: بُعدًا لهم؛ فهؤلاء أهلُ رِدَّة، وهم الذين ارتدُّوا بعد رسول الله ﷺ ومن يلحق بهم؛ لأن جزيرة العرب كلها دخلت في الإسلام قبل موت النبي ﷺ، ولما توفي ﷺ رجعوا، فمات كثير منهم على الرِّدَّة، وهؤلاء هم الذين يُذادُون ويُطرَدون إلى النار.

وقوله: «وإدخَالِ فريقٍ من المُوحِّدِينَ الجنَّةَ بغيرِ حِسَابٍ».

في حديث حصين بن عبد الرحمن، قال: كنت عند سعيد بن جبير، فقال: أيكم رأى الكوكب الذي انقضَّ البارحة؟ قلت: أنا، ثم قلت: أما إني لم أكن في صلاة، ولكني لُدِغْتُ، قال: فماذا صنعتَ؟ قلت: استرقيتُ، قال: فما حملك على ذلك؟ قلت: حديثٌ حَدَّثَناه الشعبي. فقال: وما حدثكم الشعبي؟ قلت: حدَّثنا عن بريدة بن حصيب الأسلمي، أنه قال: لا رُقيةَ إلا من عَينٍ أو حُمَةٍ، فقال: قد أحسن من

---

(١) سبق تخريجه.

انتهى إلى ما سمع، ولكن حدثنا ابن عباس، عن النبي ﷺ أنه قال: **«عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَمَعَهُ الرُّهَيْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى ﷺ وَقَوْمُهُ، وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ الْآخَرِ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ»**، ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ، فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ وَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللهِ، وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: **«مَا الَّذِي تَخُوضُونَ فِيهِ؟»** فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: **«هُمُ الَّذِينَ لَا يَرْقُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»**، فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: **«أَنْتَ مِنْهُمْ»**، ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: **«سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ»**[١].

فهؤلاء السبعون ألفًا هم قلة بالنسبة للأمة.

فهؤلاء السبعون ألفًا الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب لم يُذكَر ممن هم، وإنما هم من مجموع الأمة؛ فيجوز أن يكونوا من الصحابة، ويجوز أن يشاركهم غيرهم. ولا شك أن الصحابة ـ رضوان الله

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب: الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب (٧/ ١٢٦) برقم (٥٧٠٥)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب: الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب (١/ ١٩٩) برقم (٢٢٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

عليهم - من أول من يكرمهم الله ﷻ؛ فهم أفضل الخلق بعد الأنبياء على الإطلاق، كما نص على ذلك ربنا ﷻ في مواضع كثيرة من كتابه، وكما قال الرسول ﷺ: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ!**»[(١)].

وقد سبق ذكر الحديث الذي علقت عليه؛ بأنه يدل على أنهم من غير الصحابة، فليراجع.

وقد جاء أنهم أكثر من هذا، فجاء في حديث آخر أن مع كل ألفٍ سبعين ألفًا[(٢)].

وجاء حديث آخر أكثر من هذا، وهو أن مع كل واحد من السبعين ألفًا سبعين ألفًا[(٣)]. ومعنى ذلك أنه يُضرَب سبعون ألفًا في سبعين ألفًا فيكون الناتج تسعةً وأربعين مليونًا، وهذا عدد كبير! ولكن الحديث ضعيف ليس فيه ما يُفرَح به ويُعتَمَد عليه.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الشهادات، باب: لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد (٣/ ١٧١) برقم (٢٦٥١)، ومسلم في صحيحه، في كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم (٤/ ١٩٦٤) برقم (٢٥٣٥) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، باب منه (٤/ ٦٢٦) برقم (٢٤٣٧)، وابن ماجه في سننه، في كتاب الزهد، باب صفة أمة محمد ﷺ (٢/ ١٤٣٣) برقم (٤٢٨٦) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.
قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ٢٣٢) برقم (١٧٠٦) من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (١٠/ ٤١١): رواه أحمد، والبزار، والطبراني؛ وفي أسانيدهم القاسم بن مهران، عن موسى بن عبيد. وموسى بن عبيد هذا هو مولى خالد بن عبد الله بن أسيد، ذكره ابن حبان في الثقات، والقاسم بن مهران ذكره الذهبي في الميزان، وأنه لم يروِ عنه إلا سليم بن عمرو النخعي، وليس كذلك؛ فقد روى عنه هذا الحديث هشام بن حسان، وباقي إسناده محتجٌّ بهم في الصحيح.

وقد جاء ما هو أكثر من هذا من العدد؛ فقد جاء عن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي بِغَيْرِ حِسَابٍ، فَأَعْطَانِي سَبْعِينَ أَلْفًا**». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا اسْتَزَدْتَ؟ قَالَ: «**قَدِ اسْتَزَدْتُهُ؛ فَزَادَنِي مَعَ كُلِّ رَجُلٍ سَبْعِينَ أَلْفًا**».

قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا اسْتَزَدْتَهُ؟ قَالَ: «**قَدِ اسْتَزَدْتُهُ؛ فَزَادَنِي مَعَ كُلِّ رَجُلٍ مِنَ السَّبْعِينَ الثَّانِيَةِ سَبْعِينَ أَلْفًا**». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا اسْتَزَدْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: «**قَدِ اسْتَزَدْتُهُ؛ فَزَادَنِي مَعَ كُلِّ رَجُلٍ مِنَ السَّبْعِينَ الثَّالِثَةِ سَبْعِينَ أَلْفًا**». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا اسْتَزَدْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: «**قَدِ اسْتَزَدْتُ رَبِّي؛ فَزَادَنِي هَكَذَا**». وَمَدَّ يَدَيْهِ وَجَمَعَهُمَا(١).

وقد جاءت نصوص كثيرة في مقدار الذين يدخلون الجنة من هذه الأمة؛ فجاء أنهم ثلثا أهل الجنة، وهذا أكثر ما جاء. وقوله: «**أَنْتُمْ تُوفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ آخِرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ**»(٢).

يقولون: بالنسبة للأمم الكثيرة؛ هذه الأمم كلها ثلث وهم ثلثان، مع أن هذه الأمة هي أول من يحاسَب، وهي أول من يدخل الجنة، وكل هذا فضلُ الله جل جلاله يؤتيه من يشاء.

وقد جاء في الصحيح، حديث ابن عمر أن الرسول ﷺ قال: «**مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ أَهْلِ الكِتَابَيْنِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ أُجَرَاءَ، فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ غُدْوَةَ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ الْيَهُودُ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ**

---

(١) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٤/ ٣٨٢) برقم (٣٦١٣).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣/ ٢١٩) برقم (٢٠٠١٥)، والنسائي في السنن الكبرى (١٠/ ٢٣٠) برقم (١١٣٦٧)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٩٤) برقم (٦٩٨٨)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٨) برقم (١٧٧١٧) من حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه.

قال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (١٠/ ٣٩٧): رواه أحمد، ورجاله ثقات.

لِي مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَى صَلَاةِ العَصْرِ عَلَى قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ النَّصَارَى، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنَ العَصْرِ إِلَى أَنْ تَغِيبَ الشَّمْسُ عَلَى قِيرَاطَيْنِ؟ فَأَنْتُمْ هُمْ؛ فَغَضِبَتِ اليَهُودُ وَالنَّصَارَى، فَقَالُوا: مَا لَنَا أَكْثَرَ عَمَلًا، وَأَقَلَّ عَطَاءً؟! قَالَ: هَلْ نَقَصْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ؟ قَالُوا: لَا. قَالَ: فَذَلِكَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ»[(١)].

وقد استدل بهذا الحديث بعض الذين كتبوا أخيرًا في مقدار بقاء هذه الأمة على أن الأمر قريب، وأنه ما بقي إلا سنوات وتنتهي هذه الأمة؛ أخذًا من أن بقاء اليهود والنصارى أكثر من هذا، فقاس على ذلك، واعتبر هذا من الأدلة الصحيحة الواردة. وهذا من الخطأ الواضح؛ لأن هذا مجرد وصف لا يدل على العمر ولا يدل على البقاء، وأمرُ الساعة لا يأتي الناسَ إلا بغتة، وقُربُها لا يدل على أن الوقت انتهى، وأنه لم يبقَ إلا قليل، مع أن هذا سبق.

وقد كتب السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابًا في تقدير عمر الأمة، وجزم بأنها لا تتجاوز ألفًا وخمسمائة، واستدل بأشياء ليست صريحة ولا تدل على هذا. وكل هذا فيه مجازفة في خطورة القول على رسول الله ﷺ بلا علم!

قال الله جَلَّ وَعَلَا ـ في ذكر أهل الجنة في سورة الواقعة ـ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ [الواقعة: ١٠]، ثم قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ [الواقعة: ١٣ ـ ١٤].

يقول أكثر المفسرين: المقصود بقوله: ﴿ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ هم هذه الأمة، وليس آخر الأمة، بل الأمة كلها. ومعنى ذلك أن السابقين من الأمم السابقة أكثر.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الإجارة، باب الإجارة إلى نصف النهار (٣/ ٩٠) برقم (٢٢٦٨).

ومعنى قوله: ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ الذين يسبقون إلى الجنة، فهل يلزم من هذا أنهم يسبقون قبل هذه الأمة؟

نقول: ليس لازمًا؛ لإخبار الرسول ﷺ بأن أول من يحاسب هذه الأمة، واستدل هؤلاء بقوله ﷻ في سورة آل عمران: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

فقوله: ﴿رِبِّيُّونَ﴾ يدل على كثرتهم.

وقد ذكروا في تفسير قوله: ﴿رِبِّيُّونَ﴾ أنهم الذين يتربَّون على الطاعة والتقى والهدى، تربية الرسل؛ فهؤلاء السابقون.

وعلى كل حال يجب أن تكون أمور الآخرة موقوفة على النصوص، ولا مجال للاجتهاد فيها.

وقوله: «بغيرِ حِسَابٍ».

فضل من الله ﷻ، وليس معنى ذلك أنهم ليس لهم ذنوب؛ لأن الإنسان لا ينفكُّ عن الذنوب، ولو كان من الممكن ألَّا يكون للإنسان ذنوب، لكان ذلك للرُّسُل، وقد أخبرنا الله ﷻ أنه يعاتب الرسل، وأفضل الرسل رسولنا ﷺ، وآخر ما نزل عليه من سور القرآن: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١ ـ ٣] يستغفره لأي شيء؟!

لقد أبعد النُّجْعةَ من قال: إنه يستغفره لذنوب أُمَّته! وهذا من الإفراط في الواقع. وكذلك في قوله ﷻ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١ ـ ٢]

يقول: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ﴾ أي: ليغفر لأمَّتِك!

وهذا من الإلحاد في كتاب الله ﷻ، الذي لا يجوز أن يُعَوَّل عليه.

وظاهرٌ جدًّا أن الله يأمره بالاستغفار ويأمره بالتوبة، وفي «الصحيحين» يقول الرسول ﷺ «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللهِ؛ فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ**»(١).

لا يوجد عبد ليس له ذنب، وإنما هذا فضل الله ﷻ، يتفضل على من يشاء فيدخلهم الجنة بلا حساب، وإن كان هؤلاء من المجتهدين المحسنين، ولكن حتى ولو اجتهد الإنسان، هل يمكن أن يعبد ربه حق عبادته؟

هذا لا يمكن، ولكنه إذا أتى بالشيء الذي اجتهد فيه، فإن الله عفو كريم؛ ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

فلا يتصور الإنسان أن هناك من ليس له ذنب، وأحسنُ أعمالنا بعد التوحيد والإخلاص الصلاةُ التي هي صلة بين العبد وبين ربه، وقد أمرنا الله ﷻ بإقامة الصلاة، فهل نقيمها كما ينبغي؟!

نخرج منها في بعض الأحيان، وكثير منها يذهب علينا؛ من حديث النفس، والتفكير في الدنيا!

إن الإنسان لا يأتي بما يجب عليه، وقد قال الرسول ﷺ «**لَا يَزَالُ اللهُ ﷻ مُقْبِلًا عَلَى الْعَبْدِ وَهُوَ فِي صَلَاتِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ، فَإِذَا الْتَفَتَ انْصَرَفَ عَنْهُ**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الدعوات، باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة (٨/ ٦٧) برقم (٦٣٠٧)، ولفظه: «**وَاللهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً**» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
وأخرجه بنحوه مسلم في صحيحه، في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه (٤/ ٢٠٧٥) برقم (٢٧٠٢) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، واللفظ له.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، في كتاب الصلاة، باب الالتفات في الصلاة (١/ ٢٣٩) =

يقول العلماء: **ينقسم الالتفات إلى قسمين:**

القسم الأول: التفات بالبدن، وهو يبطل الصلاة، وهذا أسهل الالتفاتين.

القسم الثاني: التفات بالقلب، وهو أصعبُها.

والتفات القلب لا ينجو منه الإنسان؛ فقد يبدأ بالصلاة ويخرج وهو يفكر في أمور تافهة لا قيمة لها!

فهل قام الإنسان المقامَ الذي يجب عليه؟!

وهكذا يقال في سائر الأعمال، وبهذا يتبين أن الإنسان محتاج إلى عفو ربه حتى في عباداته؛ ولهذا شُرِع لنا إذا انتهينا من الصلاة أن نستغفر الله؛ لأننا مُقَصِّرون فيها.

فلا يتصور الإنسان أن من يدخلون الجنة بلا حساب ليس لهم ذنوب، وإنما هو فضل الله ﷻ، ثم يحاسِب المؤمنين، ولكنه يعفو عنهم ﷻ.

وقد تواترت الأحاديث أن بعض أهل الكبائر أو كثيرًا منهم يُؤاخَذون ويدخلون النَّارَ مع أنهم سبق لهم عذابٌ في القبر، وسبق لهم عذابٌ في الموقف، وعَناءٌ وشدائِدٌ، وكُرَب وأهوالٌ؛ وكل ذلك بسبب ذنوبهم، ومع ذلك لم يفِ هذا بجزائهم وعقابهم، فيدخلون النار حتى يُطَهَّروا!

وقد ذكر الرسول ﷺ أن أسباب عذاب القبر كثيرة، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال: مرَّ رسولُ اللهِ ﷺ على قَبْرَيْنِ فقال: «**أَمَا إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ؛ أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، وَأَمَّا**

= برقم (٩٠٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

الْآخَرُ فَكَانَ لَا يَسْتَنْزِهُ مِنْ بَوْلِهِ»[1].

فالنميمة، وعدم التنزه عن البول ـ ويشمل عدمَ التطهر، سواء إزالة النجاسة، أو التطهر من الأحداث بالوضوء الذي أُمِرنا به ـ، وأكل الربا، والكذب، وعدم القيام بالقرآن، والنوم عن الصلاة المكتوبة، وغيرها من الأشياء الكثيرة جدًّا التي ذكرها الرسول ﷺ في أحاديث ثابتة: تُعَدُّ من أسباب عذاب القبر[2].

المقصود من قوله: ويُؤْمِنُونَ بِالحوضِ والكَوثَرِ، وإدخَالِ فريقٍ من المُوحِّدِينَ الجنَّةَ بغيرِ حِسَابٍ.

أن هذا الفريق الذي ذُكِر أنه سبعون ألفًا يذهبون من الموقف إلى الجنة بلا محاسبة، وقد وصفهم الرسول ﷺ بأنهم «**هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**»[3]. وهذا هو الجامع لهذه الخصال؛ أنهم يتوكلون على الله، ولا يتطيرون، ولا يَسْتَرْقُون، ولا يكتوون.

وقوله «**وَلَا يَسْتَرْقُونَ**» أي: لا يطلبون من يَرقِيهم. وقد ساق سعيد بن جبير هذا الشاهد لتلميذه حصين بن عبد الرحمن؛ لأنه استرقى، ومعنى ذلك أنه ينهاه عن هذا؛ لأن هذا يمنعه من أن يكون من السبعين ألفًا.

وقوله «**وَلَا يَتَطَيَّرُونَ**» التطير هو التشاؤم بالطُّيور وبغيرها من المخلوقات، وهو من الشِّرك.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الأدب، باب الغيبة (٨/ ١٧) برقم (٦٠٥٢)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه (١/ ٢٤٠) برقم (٢٩٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب التعبير، باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح (٩/ ٤٤) برقم (٧٠٤٧) من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه.

(٣) سبق تخريجه.

وقوله: «ومُحاسَبَةِ فرِيقٍ مِنهُم حِسَابًا يَسيرًا».

هذا لكل المؤمنين؛ فهم يدخلون الجنة بلا عذاب، ويكون حسابهم يسيرًا، وقد فسره رسول الله ﷺ بأنه مجرد عرض الأعمال على الإنسان؛ إذ يعرض الله على العبد أعماله ويقرِّره بها، ثم يعفو عنه، وهذا الذي يُعطى كتابَه بيمينه.

والمحاسبة نوعان:

النوع الأول: عرض الأعمال على العبد فقط؛ يقال له: عملتَ كذا وعملتَ كذا. فإذا أقر بذلك عفا الله عنه.

النوع الثاني: المناقشة، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ عُذِّبَ**». قالت عائشة رضي الله عنها: أَلَيْسَ اللهُ يَقُولُ: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨]؟! قال: «**ذَلِكِ العَرْضُ**»(١).

فالمرادُ بالعَرْضِ: أن يحاسَبَ حسابًا يسيرًا، ولا ينجِّي أحدًا عملُه، وإنما برحمة الله ﷻ.

فالمحاسبة التي تكون للمؤمنين هي مجرد عرض الأعمال فقط لا أن يحاسَب على سيئاته وحسناته ويوازَن بينها، فإذا حصل هذا هلك الإنسان، كما ثبت ذلك عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ عُذِّبَ**». فقالت عائشة رضي الله عنها: أَلَيْسَ اللهُ يَقُولُ ﷻ: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨]؟! قال: «**ذَاكِ الْعَرْضُ**»(٢).

ويُبَيِّن هذا حديثُ ابن عمر رضي الله عنهما، الذي في «الصحيحين»، فقد

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب تفسير القرآن، باب ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨] (٦/ ١٦٧) برقم (٤٩٣٩)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إثبات الحساب (٤/ ٢٢٠٤) برقم (٢٨٧٦).

(٢) سبق تخريجه.

سُئل: كيف سمعتَ رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ قال: سمعته يقول: «إِنَّ اللهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، أَيْ رَبِّ. حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ؛ فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ»(١).

وقد جاء في «المستدرك» وغيره أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ لِلَّهِ عَبْدًا مِنْ عَبِيدِهِ عَبَدَ اللهَ تَعَالَى خَمْسَمِائَةِ سَنَةٍ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ فِي الْبَحْرِ، وَأَخْرَجَ اللهُ لَهُ عَيْنًا عَذْبَةً بِعَرْضِ الْأُصْبَعِ تَبَضُّ بِمَاءٍ عَذْبٍ، فَتَسْتَنْقِعُ فِي أَسْفَلِ الْجَبَلِ، وَشَجَرَةَ رُمَّانٍ تُخْرِجُ لَهُ كُلَّ لَيْلَةٍ رُمَّانَةً فَتُغَذِّيهِ يَوْمَهُ، فَإِذَا أَمْسَى نَزَلَ فَأَصَابَ مِنَ الْوَضُوءِ وَأَخَذَ تِلْكَ الرُّمَّانَةَ فَأَكَلَهَا، ثُمَّ قَامَ لِصَلَاتِهِ، فَسَأَلَ رَبَّهُ ﷻ عِنْدَ وَقْتِ الْأَجَلِ أَنْ يَقْبِضَهُ سَاجِدًا وَأَلَّا يَجْعَلَ لِلْأَرْضِ وَلَا لِشَيْءٍ يُفْسِدُهُ عَلَيْهِ سَبِيلًا، حَتَّى بَعَثَهُ وَهُوَ سَاجِدٌ. قَالَ: فَفَعَلَ، فَنَحْنُ نَمُرُّ عَلَيْهِ إِذَا هَبَطْنَا وَإِذَا عَرَجْنَا، فَنَجِدُ لَهُ فِي الْعِلْمِ أَنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُوقَفُ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ ﷻ، فَيَقُولُ لَهُ الرَّبُّ: أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي. فَيَقُولُ: رَبِّ بَلْ بِعَمَلِي. فَيَقُولُ الرَّبُّ: أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي. فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، بَلْ بِعَمَلِي. فَيَقُولُ الرَّبُّ: أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي. فَيَقُولُ: رَبِّ، بَلْ بِعَمَلِي. فَيَقُولُ اللهُ ﷻ لِلْمَلَائِكَةِ: قَايِسُوا عَبْدِي بِنِعْمَتِي عَلَيْهِ وَبِعَمَلِهِ. فَتُوجَدُ نِعْمَةُ الْبَصَرِ قَدْ أَحَاطَتْ بِعِبَادَةِ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ! وَبَقِيَتْ نِعْمَةُ الْجَسَدِ فَضْلًا عَلَيْهِ، فَيَقُولُ: أَدْخِلُوا عَبْدِي النَّارَ. قَالَ: فَيُجَرُّ إِلَى النَّارِ، فَيُنَادِي: رَبِّ، بِرَحْمَتِكَ أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ! فَيَقُولُ: رُدُّوهُ. فَيُوقَفُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَيَقُولُ: يَا عَبْدِي، مَنْ خَلَقَكَ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا؟ فَيَقُولُ: أَنْتَ يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: كَانَ ذَلِكَ مِنْ قِبَلِكَ أَوْ بِرَحْمَتِي؟ فَيَقُولُ: بَلْ بِرَحْمَتِكَ. فَيَقُولُ: مَنْ قَوَّاكَ لِعِبَادَةِ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ؟

---

(١) سبق تخريجه.

فَيَقُولُ: أَنْتَ يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: مَنْ أَنْزَلَكَ فِي جَبَلٍ وَسَطَ اللُّجَّةِ وَأَخْرَجَ لَكَ الْمَاءَ الْعَذْبَ مِنَ الْمَاءِ الْمَالِحِ، وَأَخْرَجَ لَكَ كُلَّ لَيْلَةٍ رُمَّانَةً، وَإِنَّمَا تَخْرُجُ مَرَّةً فِي السَّنَةِ، وَسَأَلْتَنِي أَنْ أَقْبِضَكَ سَاجِدًا فَفَعَلْتُ ذَلِكَ بِكَ؟ فَيَقُولُ: أَنْتَ يَا رَبِّ. فَقَالَ اللهُ ﷻ: فَذَلِكَ بِرَحْمَتِي، وَبِرَحْمَتِي أُدْخِلُكَ الْجَنَّةَ، أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ، فَنِعْمَ الْعَبْدُ كُنْتَ يَا عَبْدِي! فَيُدْخِلُهُ اللهُ الْجَنَّةَ، قَالَ جِبْرِيلُ عليه السلام: إِنَّمَا الْأَشْيَاءُ بِرَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى يَا مُحَمَّدُ»(١).

ويشهد لهذا ما ثبت في «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنه قال: «**لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ**» قَالُوا: وَلَا أَنْتَ؟ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «**وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ مِنْهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ**»(٢).

أما قوله ﷻ: ﴿تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣] وما أشبه ذلك فيقول أهل السُّنَّة: الباء سببية ـ أي: بسببه ـ وليست للمعاوضة؛ ولهذا يقولون: الجنة تُدخَل برحمة الله، وتُقتَسَم بالأعمال، أما دخولها فليس بالعمل بل برحمة الله ﷻ؛ فالعمل ليس عوضًا عن الجنة، بخلاف قول المعتزلة.

وقوله: وإدخالِهم الجَنَّةَ بِغيرِ سُوءٍ يَمَسُّهُم وعَذَابٍ يَلحَقُهُم.

أي: أنهم لا يُعَذَّبون في النار. ولا يلزم من هذا أنهم لم يُعَذَّبوا في القبر أو لم يمسَّهم شدائد في المواقف، وإنما كفى ذلك، فيدخلون الجنة.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٢٧٨) برقم (٧٦٣٧)، وشعب الإيمان (٦/ ٣٤١) برقم (٤٣٠٠) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب المرضى، باب: تمني المريض الموت (٧/ ١٢١) برقم (٥٦٧٣)، ومسلم في صحيحه، في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب: لن يدخل أحد الجنة بعمله، بل برحمة الله تعالى (٤٠/ ٢١٧٠) برقم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقوله: «وإدخالِ فَريقٍ من مُذْنِبيهمُ النَّارَ».

تواترت الأحاديث في هذا عن رسول الله ﷺ، ويجب اعتقاد ذلك.

وهذا التقسيم هو الذي يُكَذِّب به الخوارج والمعتزلة؛ فعندهم أن من عُذِّبَ لا يمكن أن يُنَعَّم؛ **فالناس عندهم قسمان:**

القسم الأول: تقيٌّ.

القسم الثاني: شقيٌّ.

كما أنهم يُوجِبون على الله ﷻ في الدنيا شيئًا غير موجود، ويجعلون الناس أبرارًا أو كفارًا.

ومذهب الخوارج الذين يُكفِّرون المسلمين بارتكاب الكبائر، وبعضهم قد يكفِّرُهم لمجرد ذنوب!

وأول هؤلاء مَن اعترض على حُكم رسول الله ﷺ وقِسْمتِه، ونَصب نفسه ناصحًا لرسول الله ﷺ؛ فقد ثبت في «الصحيح»: أنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه بَعَث إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ اليَمَنِ بِذُهَيْبَةٍ فِي أَدِيم مَقْرُوظٍ، لَمْ تُحَصَّلْ مِنْ تُرَابِهَا، قَالَ: فَقَسَمَهَا بَيْنَ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ؛ بَيْنَ عُيَيْنَةَ بْنِ بَدْرٍ، وَأَقْرَعَ بْنِ حابِسٍ، وَزَيْدِ الخَيْلِ، وَالرَّابِعُ: إِمَّا عَلْقَمَةُ وَإِمَّا عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: كُنَّا نَحْنُ أَحَقَّ بِهَذَا مِنْ هَؤُلَاءِ! قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: «**أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ؛ يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً؟!**»، قَالَ: فَقَامَ رَجُلٌ غَائِرُ العَيْنَيْنِ، مُشْرِفُ الوَجْنَتَيْنِ، نَاشِزُ الجَبْهَةِ، كَثُّ اللِّحْيَةِ، مَحْلُوقُ الرَّأْسِ، مُشَمَّرُ الإِزَارِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، اتَّقِ اللهَ! قَالَ: «**وَيْلَكَ! أَوَلَسْتُ أَحَقَّ أَهْلِ الأَرْضِ أَنْ يَتَّقِيَ اللهَ؟!**» قَالَ: ثُمَّ وَلَّى الرَّجُلُ، قَالَ خَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا أَضْرِبُ عُنُقَهُ؟ قَالَ: «**لَا، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي**» فَقَالَ خَالِدٌ: وَكَمْ مِنْ

مُصلٍّ يَقُولُ بِلِسَانِهِ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ! قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنِّي لَمْ أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ، وَلَا أَشُقَّ بُطُونَهُمْ**» قَالَ: ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهِ وَهُوَ مُقَفٍّ، فَقَالَ: «**إِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا قَوْمٌ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ رَطْبًا، لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ**»، وَأَظُنُّهُ قَالَ: «**لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ ثَمُودَ**»[1].

عن عبد اللهِ بن مسعود رضي الله عنه، قال: قَسَمَ النَّبِيُّ ﷺ قَسْمًا، فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ هَذِهِ لَقِسْمَةٌ مَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللهِ! فَأَخْبَرْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَغَضِبَ، حَتَّى رَأَيْتُ الغَضَبَ فِي وَجْهِهِ، وَقَالَ: «**يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى؛ لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ!**»[2].

ورأيت كتابةً حديثةً لأحد الكُتَّاب الذين يكتبون في تأريخ اليهود وصفاتهم، فكتب تأريخَهم ودخولهم مصر، ثم قال: عزَلَهم القِبطُ في مصر في مكان معَيَّن؛ لأنهم مصابون بالأمراض المُعْدِية، ثم صار يتكلم حتى قال: وموسى كان مصابًا بذلك. نعوذ بالله! إلى هذا الحد بقي من يؤذي موسى إلى الآن! وهو كليم الله الذي أكرمه، وقد برَّأه مما رُمي به!

إن عذاب من يُعَذَّب في النار من المؤمنين أمرٌ مقطوع به، ولكنهم لا يَبْقَون في النار أبدًا، ويتفاوت بقاؤهم فيها كما يتفاوت إدخالهم فيها؛

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب المغازي، باب: بعث علي بن أبي طالب عليه السلام، وخالد بن الوليد رضي الله عنه، إلى اليمن قبل حجة الوداع (٥/ ١٦٣) برقم (٤٣٥١)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم (٢/ ٧٤٤) برقم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الدعوات، باب: قول الله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] ومن خص أخاه بالدعاء دون نفسه (٨/ ٧٣) برقم (٦٣٣٦)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه (٢/ ٧٣٩) برقم (١٠٦٢) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

فبعضهم تَصِلُ النار إلى كعبيه، وبعضهم إلى ركبتيه، وبعضهم تُلجِمُه النَّارُ إلجامًا، ويكون في قَعْرِها!

وقد جاءت النصوص بأن النار لا تأكل مواضِعَ السجود، فإذا شفع فيهم المؤمنون عرَفوهم بذلك.

وقوله: «وإدخَالِ فَرِيقٍ من مُذْنِبِيهِمُ النَّارَ».

تواترت الأحاديث في هذا عن رسول الله ﷺ؛ منها قوله ﷺ: **«إِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ»**[1].

معنى هذا أن بعض الناس عندهم تعارُض في هذا؛ لأن كل المسلمين يقولون: لا إله إلا الله، فكيف إذَنْ يدخل فئات كثيرة منهم النار وهم يقولون: لا إله إلا الله؟!

نقول: جاء هذا مقيَّدًا بقوله: «مخلِصًا» و«صادقًا» «يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ»، كما جاء في الترمذي من حديث صاحب البطاقة، وفيه أن النبي ﷺ قال: **«إِنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الخَلَائِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ البَصَرِ! ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِيَ الحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ.**

فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً؛ فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ اليَوْمَ. فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ. فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا هَذِهِ البِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الصلاة، باب المساجد في البيوت (١/ ٩٢) برقم (٤٢٥)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاكٍّ فيه دخل الجنة وحرم على النار (١/ ٦١) برقم (٣٣) من حديث عتبان بن مالك ﵁.

السِّجِلَّاتِ؟! فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ، فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كَفَّةٍ وَالبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ، فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ»(١).

لأنه قد تاب وقالها مخلِصًا ومات على هذا، فلم يعمل بعدها سيئات تَخدِش الإخلاص والصدق.

ويزعم بعضهم أن هناك تعارضًا بين الأحاديث التي تنص على أنه يدخل النار جماعاتٌ كثيرة، والأحاديث التي تنص على أن من قال: لا إله إلا الله يحرَّم على النار.

نقول: من قال لا إله إلا الله مخلصًا من قلبه صادقًا ومات على ذلك، يُحَرَّم على النار، ولكن من عمل سيئات بعد قولها، أو لم يقلها مخلصًا عارفًا معناها وما دلت عليه، وعاملًا بما تقتضيه؛ فإن هذا يدخل النار.

وقوله: **«وإدخَالِ فَرِيقٍ من مُذْنِبِيهِمُ النَّارَ ثم إعْتَاقِهِمْ»**.

يُعتقهم الله ﷻ ويخرِجُهم منها برحمته وبشفاعة الشافعين من إخوانهم المؤمنين، وكلُّ الأمر برحمته، ولكنه يُكرِم من يشاء من المؤمنين فيأمرهم بالشفاعة؛ إذ لا يُقَدِّم أحد طلب الشفاعة دون أمره، فيقول لهم: اشفَعوا فيهم. فيَشفَعون حتى يُظهِرَ كرامتَهم، وقد أراد ﷻ رحمة هؤلاء المعذَّبين وإخراجهم بذلك.

وقوله: **«ثمَّ إعْتَاقِهِمْ وإخْرَاجِهِم مِنْهَا»**.

جاء أن أهل الجنة يقولون: **«هَؤُلَاءِ عُتَقَاءُ الرَّحْمَنِ، أَدْخَلَهُمُ الجَنَّةَ**

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، في كتاب الإيمان، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله (٥/ ٢٤) برقم (٢٦٣٩) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ، وَلَا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ!»[١]. **«إِذَا أَرَادَ اللهُ رَحْمَةَ مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، أَمَرَ اللهُ الْمَلَائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ، فَيُخْرِجُونَهُمْ وَيَعْرِفُونَهُمْ بِآثَارِ السُّجُودِ، وَحَرَّمَ اللهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ، فَيَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ، فَكُلُّ ابْنِ آدَمَ تَأْكُلُهُ النَّارُ إِلَّا أَثَرَ السُّجُودِ، فَيَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ قَدْ امْتُحِشُوا، فَيُصَبُّ عَلَيْهِمْ مَاءُ الحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ»**[٢]. وحَمِيل السيل: هو غُثاؤه.

وقوله: «وإلحَاقِهِم بِإخوَانِهِم الذِينَ سبَقوهم إليْهَا».

إلحاقهم بإخوانهم الذين سبقوهم إلى الجنة.

ليس المقصود بهذا إلحاقهم بالمنزلة، وإنما المقصود إدخالهم الجنة، أما المنازل فهي تتفاوت تفاوتًا عظيمًا جدًّا، وقد قال ﷺ: **«إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الغَابِرَ فِي الأُفُقِ، مِنَ المَشْرِقِ أَوِ المَغْرِبِ، لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ»** قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ تِلْكَ مَنَازِلُ الأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ، قَالَ: **«بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، رِجَالٌ آمَنُوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ»**[٣].

وقد جعل الله ﷻ لكل عمل منزلةً في الجنة، وثبت في «الصحيح»

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] (٩/ ١٢٩) برقم (٧٤٣٩)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الأذان، باب فضل السجود (١/ ١٦٠) برقم (٨٠٦)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (١/ ١٦٣) برقم (١٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٤/ ١١٩) برقم (٣٢٥٦)، ومسلم في صحيحه، في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف، كما يرى الكوكب في السماء (٤/ ٢١٧٧) برقم (٢٨٣١) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ؛ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، هَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا**». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا نُنَبِّئُ النَّاسَ بِذَلِكَ؟ قَالَ: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ!**»[(١)].

وجاء أن الصيام له منزلة، والصلاة لها منزلة، والحج، وغير ذلك من الأعمال؛ فمنازل الجنة تتفاوت بحسب تفاوت الأعمال، وقد يُلحِق اللهُ ﷻ من يشاء من ذرية المؤمنين بهم؛ إكرامًا للمؤمنين وإن كانت أعمالهم أقل من أعمالهم، كما قال ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

وقوله: «ويعلمون حقًّا يقينًا أن مُذنِبي المُوحِّدين لا يُخلَّدُون في النَّار».

يقصد بهذا الردَّ على الخوارج وإخوانهم المعتزلة القَدَرية الذين يقولون: من دخل النار لا يخرج منها، ويستدلون بمثل قوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٩٢].

يقولون: الذي يُخزَى لا يخرج منها، وهم لا يفهمون كلام الله ﷻ، كما قال ﷺ: «**يَقْرَؤُونَ القُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ**»[(٢)]، أي: لا يفهمونه ولا يدخل إلى قلوبهم.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب التوحيد، باب ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧]، ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩] (٩/ ١٢٥) برقم (٧٤٢٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب فضائل القرآن، باب إثم من راءى بقراءة القرآن أو تأكل به أو فخر به (٦/ ١٩٧) برقم (٥٠٥٨)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم (٢/ ٧٤٣) برقم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

ومثلهم المعتزلة فهم يقولون: من دخل النار لا يخرج منها. ويقولون أيضًا: صاحب الكبيرة في النار، ولكنه في الدنيا يكون بين الإسلام والكفر، فلا يكون مسلمًا ولا يكون كافرًا، أما في الآخرة فإذا مات فهو في النار لا يخرج منها!

ويقولون: دل على هذا أن الله ﷻ لا يخلِفُ وَعْدَه، وقد توعَّد هؤلاء بالنار، فلا بد من وقوع الوعد.

وهذا من البدع التي ابتدعوها وجعلوها أصلًا من أصول دينهم!

وقوله: «ولا يُترَكون فيها أبدًا».

هذه الجملة لا داعي لها.

وقوله: «فأمَّا الكُفار فإنَّهم يُخلَّدون فيها، ولا يَخرُجونَ منهَا أبدًا».

كما قال الله ﷻ في مواضع كثيرة: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، وقال: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧].

وقد جاء الاستثناء حتى في أهل الجنة، ولكن قال بعدها: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]. وهذا أيضًا لا يمنع الاستثناء؛ فكل شيء بمشيئة الله ﷻ.

فهو يقول: إن خلود أهل الجنة وأهل النار بمشيئته، ليس مكتسَبًا لهم بذواتهم، بل هو بمشيئة الله ﷻ وحده.

وقد ذكر هذا بعد ذكره الحوض؛ لأن فيه ردًّا على الخوارج والمعتزلة.

وقوله: «ولا يَترُكُ اللهُ فيها من عُصاةِ أهلِ الإيمانِ أحدًا».

أي: أنهم لا يكونون خالدين فيها أبدًا، بل يخرجون منها وإن طال المُكْث.

❁ ❁ ❁

[قال رَحِمَهُ اللَّهُ]: «ويَشهدُ أهلُ السُّنَّةِ أنَّ المؤمِنِينَ يَرونَ ربَّهم ـ تَبارَكَ وتَعالى ـ بِأبْصَارِهِم، ويَنْظُرُونَ إليْهِ، على مَا وَرَدَ بِهِ الخَبَرُ الصَّحيحُ عن رسولِ اللَّه ﷺ في قوله: «إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ»(١).

والتَّشْبِيهُ في هذا الخَبَر وقعَ لِلرُّؤْيَةِ بِالرُّؤْيَةِ، لا لِلمَرئِي بالمَرئِي، والأخبَارُ الوارِدةُ في الرُّؤيَةِ مُخَرَّجَةٌ في كِتَابِ «الانتِصَارِ» بِطُرُقِهَا».

الشَّرح

يَنُص على الرؤية كما نَصَّ على الحوض والكوثر؛ لأن أهل الباطل من المعتزلة والجهمية ينكرونها بناءً على أصلهم وعلى الشُّبه التي زعموا أنها براهين، ومنها أنهم قالوا: إن الرؤية المعقولة التي تُعرَف للناس بالحاسة ـ أي: بحاسة البصر ـ كما هو معروف، والله ﷻ لا يجوز أن يوصف بأن له حاسة، ولا أنه يُدرَك بحاسَّة!

ويقولون: هذا أمر قطعي؛ لأننا لو قلنا بذلك لكان تشبيهًا، والتشبيه كفر؛ فيجب عليكم أن تؤمنوا بهذا!

هذا هُراء وتشبيه على كثير من الناس.

ومن الأدلة عندهم أنهم قالوا: لا يمكن أن تكون الرؤية إلا في المقابل، والمقابلة تكون في مكان ولا بد، والله ﷻ لا يجوز أن يكون في مكان، فإن كان في مكان، فمعنى ذلك أنه جِسم!

ثم قالوا أيضًا: الرؤية لا تقع إلا على الأجسام أو الألوان التي تقوم بالأجسام، فلا يجوز أن نثبت الرؤية!

وهذا عندهم أمر قطعي على حسب أصولهم.

---

(١) سبق تخريجه.

وقالوا أيضًا: الحواجب التي تمنع الرؤية؛ إما اللطافة المتناهية، أو البعد المتناهي، أو القرب المتناهي، وكل هذه تكون للأجسام؛ فلا يجوز أن يوصف الله ﷻ بشيء من ذلك!

كل شُبَهِهم تدور حول هذا، **فنقول لهؤلاء**: نحن نؤمن بما قال الله ﷻ، ونؤمن بأنه أكبر من كل شيء وأعظم من كل شيء.

أما قولكم: إن الرؤية لا تدرَك إلا بالحاسة، فنقول: نعم، قد جعل لنا اللهُ حواسَّ ندرك بها المرئيات، وقد أخبر الله ﷻ بأن له بصرًا يدرك به المبصَرات.

وأحاديث الرؤية جاءت متواترة، كما في حديث جرير البَجَلي رضي الله عنه، قال: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا القَمَرَ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ؛ فَافْعَلُوا**»(١).

وفيه رواية أنه رضي الله عنه، قال: «كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ نَظَرَ إِلَى القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ، فَقَالَ: «**أَمَا إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا، لَا تُضَامُّونَ - أَوْ لَا تُضَاهُونَ - فِي رُؤْيَتِهِ...**»(٢).

وفيه رواية: «أَنَّ نَاسًا قَالُوا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ**

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣] (٩/ ١٢٧) برقم (٧٤٣٤)، واللفظ له، ومسلم في صحيحه، في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، والمحافظة عليهما (١/ ٤٣٩) برقم (٦٣٣) من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة الفجر (١/ ١١٩) برقم (٥٧٣) من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه، واللفظ له، ومسلم في صحيحه، في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، والمحافظة عليهما (١/ ٤٣٩) برقم (٦٣٣) من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟**» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ**...»(١).

لو أن إنسانًا تكلَّف في الفصاحة والبلاغة والبيان، لم يستطع أن يصل إلى مثل هذا البيان الذي قاله الرسول ﷺ؛ فشبَّه الرؤية في وضوحها وجلائها وسهولتها برؤيةِ أظهَرِ شيء، وهو القمر ليلة أربع عشرة.

وفيه رواية: «**سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ ﷻ كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ**»(٢)، فلم يَدَعْ لمتأوِّل فيه مقالًا.

وفي حديثٍ آخَرَ شَبَّهها برؤية الشمس في الضحى ليس فيها قَتَرٌ ولا سحاب.

وجاء قوله: «تُضامونَ» بالتخفيف من «الضيم»، أي: لا يلحقكم ضَيمٌ في ذلك.

وجاء بالتشديد، أي: لا ينضمُّ واحد إلى الآخر في طلب المساعدة في الرؤية، كما يكون ذلك في شأن الشيء الخفي؛ مثل: رؤية الهلال؛ فإنه ينضم بعضهم إلى بعض ليتعاونوا على رؤيته، أما هذا فهو أمر واضح جلي، ويستطيع كل إنسان أن يراه بسهولة وبجلاء.

وتقع الرؤية في عَرَصات القيامة وفي الجنة.

ومعنى العَرَصات: الموقف، أي: مواقف القيامة؛ لأن القيامة لها مواقف مختلفة. وقد ثبت في «الصحيحين» أن المؤمنين يرون ربهم في الموقف؛ في حديث الشفاعة الذي في رواية أبي هريرة وأبي سعيد

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة الفجر (١/ ١١٩) برقم (٥٧٣) من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه، ومسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (١/ ١٦٣) برقم (١٨٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) البيهقي في «الاعتقاد» (١/ ١٢٩)، والرد على الجهمية للدارمي (١/ ١٠٢) برقم (١٦٨).

الخدري، أنه يأتيهم بعدما يقول ﷻ عندما يجيء لمحاسبة الناس: أليس عدلًا مني أن أُوَلِّي كل واحد منكم ما كان يتولَّاه في الدنيا؟! يقولون: بلى. فيقول: من كان يعبد شيئًا فيَتْبَعه.

فيؤتى بالأصنام والحجارة، أما من كان يعبد رجلًا صالحًا أو نبيًّا، فإنه يؤتى بشيطان على صورة ما يتصوره، فيقول: هذا معبودك، اتْبَعْه[1]، وقد تقدم.

ولما نزل قول الله ﷻ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، قال عبد الله بن الزِّبَعرى: أما والله لو وجدتُه لخصَمْتُه، فسلوا محمدًا: أكلُّ مَن عُبِد من دون الله في جهنَّمَ مع من عَبَده؟ فنحن نعبدُ الملائكة، واليهودُ تعبد عُزَيرًا، والنصارى تعبدُ المسيحَ عيسى بن مريم، فعجب الوليد بن المغيرة ومن كان في المجلس من قول عبد الله بن الزِّبَعْرى، ورأوا أنه قد احتَجَّ وخاصم! فذُكِر ذلك لرسول الله ﷺ من قول ابن الزِّبَعْرى، فقال رسول الله ﷺ: «نعم، كل من أحب أن يُعبَدَ من دون الله فهو مع من عَبَد، إنما يعبدون الشياطين ومن أمَرَهم بعبادته». هل الملائكة وعيسى وأمه في النار؟! فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١ ـ ١٠٢] إلى آخر الآية[2].

فمجادلة أهل البدع شبيهة بمجادلة الكفار، وكلها داحضة، فإذا أراد الإنسان أن يناقشهم بإمكانه المناقشة بكل سهولة، يقول:

أولًا: قولكم هذا مصادمة لخبر الله ﷻ وخبر رسوله، فأيُّهما أولى؟ أتَّبعُ قول الله ﷻ وقول رسوله ﷺ، أو قولكم؟!

لا يجوز أن نقارن بين هذا وهذا؛ فالمقارنة فيها إجحاف كبير جدًّا.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) تفسير الطبري (١٨/ ٥٣٩).

الثاني: أن دعواهم أن الذي يرى يكون جسمًا، فهذه دعوى باطلة. وكلمة «جسم» هذه لم يَرِدْ نفيها ولا إثباتها، فلا يجوز أن نتعلَّل بها في مثل الثوابت التي جاءت بها النصوص عن الله ﷻ وعن رسوله ﷺ، فنرُدُّ الباطل ونَعلَمُ أن الله حق، وأنه أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، ونصَدِّقه في خبره كما نصَدِّقُ رسوله ﷺ، وإذا كان هناك شُبَهٌ، فالشُّبهة قطعًا منفية عن النصوص.

ومن الأشياء التي يُعتَلُّ ويُحتَجُّ بها: قوله ﷻ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

قالوا: هذا يدل على نفي الرؤية، وقد ردَّ عليهم أهل السُّنَّة بأن هذه الآية تدل على الرؤية، على عكس ما قالوه؛ من **وجوه**:

منها: أن الإدراك غير الرؤية؛ لأنه يصح نفي الإدراك وإثبات الرؤية، كما قال ﷻ: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦١ ـ ٦٢].

وذلك أن الإدراك هو الإحاطة بالشيء. وقد ورد هذا السؤال على ابن عباس ﵄ في الرجل الذي قال: إنه يَعرِضُ لي شيء من القرآن يُشكِل عليَّ، من ذلك قوله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩].

ثم قال في آية أخرى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ [النازعات: ٣٠ ـ ٣١].

وكذلك قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] مع قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣].

فقال له في الجواب عن الثانية: هذه الشمس مخلوقة من مخلوقات الله، صغيرة هل تدركها؟ قال: لا. قال: فالله أعظم، فهو يُرى ولا يدرَك؛ فبيَّن أن الإدراك إذا نُفِيَ لا ينافي وقوع الرؤية.

وقد استدل أهل السُّنَّة على هذا بعُلو الله ﷻ، فمن أدلة العُلو الرؤية، أما الأدلة من القرآن، فهو قول الله ﷻ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣]، وقوله ﷻ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وقوله: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥﴾ [المطففين: ١٥]، وقوله: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ۝٣٥﴾ [المطففين: ٣٥]، وغير ذلك.

وقد ثبت في «صحيح مسلم» أن رسول الله ﷺ فسر الزيادة برؤية الله ﷻ[(١)].

وكذلك قوله ﷻ: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥] قالوا: المزيد هو رؤية الله ﷻ.

واستدلوا كذلك بقوله ﷻ في أهل الكفر: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥﴾ [المطففين: ١٥]، فهو دليل على أن المؤمنين لا يُحجبون عن الله ﷻ. قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، وقالوا: كل آية جاءت في القرآن فيها لفظ لقاء الله؛ مثل قوله: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝٤٦﴾ [البقرة: ٤٦]، فهي تتضمن المعاينة، إلا أن الذين استُثْنُوا من هذا هم المحجوبون الذين يحجُبُهم الله ﷻ.

ومن العجائب أن الزمخشري لما جاء إلى قوله ﷻ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣] حاول أن تكون (إلى) اسمًا، فجعلها اسمًا لا حرفًا[(٢)]!

---

(١) قال الله ﷻ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]. أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم ﷻ (١/ ١٦٣) برقم (١٨١) من حديث صهيب ﷺ.

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/ ٦٦١ ـ ٦٦٢).

هذا من التحريف اللفظي، وهو يدلنا على تحكُّم المذاهب في الإنسان حتى يَعمَى، مع أنه من الذين برزوا في اللغة والنحو، لكنه مع ذلك يأتي بالعجائب لأجل المذهب!

وذكروا أيضًا قوله ﷻ: ﴿ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾ [الحديد: ١٣] قالوا: معناه الانتظار، أي: انتَظِرونا.

وإذا جاء مُعَدًّى بفي؛ مثل: قوله ﷻ: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ﴾ [العنكبوت: ٢٠] قالوا: هذا يدل على التفكر والاعتبار.

أما إذا جاء معدًّى بإلى فهو يدل على النظر بالأعين، فكيف إذا اقترن فيه الوجوهُ: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣]؟! أي: بَهِيَّة جميلة؛ من النعيم، ثم قال: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ [القيامة: ٢٣].

هذه الوجوه تنظر إلى ربها، وهذا صريح لا يحتمل أيَّ تأويلٍ. يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: تأويل هذا أصعب من تأويل نصوص المَعاد ونصوص الجنة والنار[(١)]!

بقي أن بعض أهل البدع وإن كانوا أقرب إلى أهل السُّنَّة، لكنهم في هذا ليسوا من أهل السُّنَّة، وإن كانوا من أهل السُّنَّة في أشياء أخرى؛ مثل: مسألة الصفات، ومسائل من مسائل الإيمان، ومسائل القَدَر.

وأقصد بهؤلاء الذين هم ليسوا من أهل السُّنة: الأشاعرةَ والماتُريدية؛ فقد أثبتوا الرؤية وتناقضوا في ذلك؛ لأنهم لا يثبتون الصفات، وإنما يُثبتون سبع صفات، مع أن إثباتهم لها ليس إثباتًا صحيحًا.

ومن ذلك مثلًا: الكلام، ومذهبهم في الكلام معروف؛ فإنهم

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (ص٢٩٥).

يصَرِّحون صراحةً بأن الكلام الذي يشتمل على الحروف والأصوات ممتنع على الله ﷻ! فالكلام عندهم المعنى الواحد القائم بالنفس، ولكنهم في هذا قالوا بثبوت الرؤية؛ لوجود النصوص التي لا يستطيعون ردَّها ولا مخالفتَها، فقالوا: إنه يُرى، ولكن لا من جهةٍ؛ لأنهم نفوا العُلو عن الله ﷻ، فضَحِكَ منهم المعتزلةُ، وقالوا: هذا شيء غير معقول ولا يمكن ثبوته!

لأن الرؤية التي تتعلق بالبصر لا بد أن تكون بالمقابلة، وإلا فكيف يُرى؟! وهذا معناه نفي للرؤية!

ويجوز أن يضاف إلى العجائب الثلاثة التي قيل: إنها من عجائب الكلام؛ رؤيةُ الأشاعرة مع كَسْبِ الأشعريِّ!

ولهذا اضطُرَّ كثير ممن كتب في ذلك إلى أن يُؤَوِّل آخر تحقيقاتهم وكلامهم إلى أن الرؤية معناها زيادة علم؛ لأن قولهم «يُرى لا من جهة» قول غير معقول أصلًا، والله ﷻ يُرى من فوق.

فيجب أن يوازن الإنسان بين هذا القول، وقول المعتزلة، وقول الرسول ﷺ في حديث أبي هريرة ؓ، أنهم قالوا: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟**» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟**» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ...**»(١).

نحن لا نحتاج إلى النظر إلى أقوال هؤلاء، غير أن الناس انصرفوا لقراءة كتبهم، وقد يَعرِضُ للإنسانُ شيء من الشُّبَه، فيحتاج إلى أن يَعرِفَ بُطلانَها، وأنه لا كلام لأحد مع كلام الله ﷻ وكلام رسوله ﷺ، والأدلة من كتاب الله ﷻ كثيرة على الرؤية.

---

(١) سبق تخريجه.

وكثير من أهل السُّنَّة يقولون: إن مسألة الرؤية من أشرف مسائل الأصول؛ لأنها في الواقع أعلى نعيم أهل الجنة، وإثباتها أمر ضروري؛ لأنه يحثُّ على المحبة وعلى الرغبة فيما عند الله ﷻ، فهو فوق التلذذ بما في الجنة من المأكولات والمشروبات والمنكوحات، وقد ذكر الرسول ﷺ أنهم إذا رأوا ربهم نَسُوا ما هم فيه من النعيم!

وقالوا أيضًا: إن الذي يُنكِرُها حَرِيٌّ بأن يُحرَمَها يوم القيامة.

وكثير من الناس يُنكِرون رؤية المؤمنين لربهم؛ منهم المعتزلة، أما الأشاعرة فهم يثبتونها، ولكن يثبتون شيئًا لا حقيقة له، فيلزم من ذلك إنكارها.

والمؤلِّف رَحِمَهُ اللهُ ذكر فيما مضى الرؤية، وأن أهل السُّنَّة يُثبتون رؤية الله ﷻ في القيامة، وقد اتفق علماء أهل السُّنَّة على أن الله لا يُرى في الدنيا، مع أنهم يقولون بجواز ذلك عقلًا، وقد ثبت في «صحيح مسلم» في قصة حديث ابن صَيَّاد الدجال أنه ﷺ قال: «**تَعَلَّمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رَبَّهُ** ﷻ، **حَتَّى يَمُوتَ**»[(١)].

وهذا أمر متفق عليه بين أهل السُّنَّة، إلا أنهم اختلفوا في رؤية النبي ﷺ لربه ﷻ يوم عُرِج به إلى السماء السابعة؛ فمنهم من أثبت ذلك، **والصحيح أنه لم يَثبُتْ**، وقد جاء في «صحيح مسلم» وفي غيره عن أبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أنه قال: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ: هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: «**نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ؟!**». وفي رواية في «الصحيح» أيضًا: «**رَأَيْتُ نُورًا**»[(٢)].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر ابن صياد (٤/ ٢٢٤٥) برقم (١٦٩) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب في قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**نور أنى أراه؟!**»، وفي قوله: «**رأيت نورًا**» (١/ ١٦١) برقم (١٧٨) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فالمراد بقوله: «أنَّى أَرَاهُ؟!»: أنه لا يمكن رؤيته.

وقد احتجَّ الذين أثبتوا ذلك بما رُوِي عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه قال: «إنه رَأَى رَبَّه»، وفي رواية أخرى: «رَآهُ بِفُؤَادِهِ مَرَّتَيْنِ». وهذا إشارة إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٣][١].

والصحيح: أن هذا جبريل عليه السلام؛ فقد رآه مرة على صورته التي خُلق عليها في الأرض، والمرة الأخرى رآه عند سِدرة المنتهى.

وقوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ٨ ـ ١٠].

حدث خِلافٌ في ذلك: هل تعود الضمائر إلى الله جل وعلا، أم إلى جبريل عليه السلام؟ ولهذا جاء الخلاف في كونه رآه، ولكن هذه الآيات لا تدل على الرؤية، وإنما تدل على القرب منه، وأهل السُّنَّة لا يختلفون في أنه يَقرُب إلى من يشاء من عباده.

فالصحيح الذي عليه المحقِّقون: أنه لم يَرَه، والثابت عن ابن عباس: أنه رآه بفؤاده، فيُحمَل المُطلَق على المُقَيَّد؛ أن الرؤية التي أثبتها ابن عباس رضي الله عنهما بفؤاده.

ومعنى ذلك: أنَّ عِلْمَه بالله جل وعلا وإيمانَه به صار يقينيًّا، كأنه يشاهدُه.

وقد ذكر الله جل وعلا عن موسى عليه السلام أنه طلب من ربه أن يراه، فأجابه جل وعلا بقوله: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣]. وجعل له مثلًا، وهو أنه يتجلى للجبل، فإن ثبت مكانَه، فهذا دليل على أنه يمكِن أن يراه، أما إذا

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب معنى قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٣]، وهل رأى النبي ﷺ ربه ليلة الإسراء (١٥٨/١) برقم (١٧٦).

لم يَثبُت فهو دليل على أنه لا يستطيع رؤيته، فلما تجلَّى ربُّه للجبل جعله دكًّا. وقد قال بعض السلف: إن التجلِّيَ الذي حصل للجبل قليل جدًّا مثل ثُقب الإبرة!

وفي حديث أبي موسى رضي الله عنه - الذي في «الصحيح» - يقول: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: «**إِنَّ اللهَ عز وجل لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**»[(١)].

يقول العلماء: المراد بقوله: «سُبُحَاتُ وَجْهِهِ» بهاؤه وجماله؛ ولذا فالخلق لا يَثْبُتون لرؤيتِه في هذه الحياة الدنيا.

وقوله: «وَيَشهدُ أهلُ السُّنَّةِ أَنَّ المؤمِنِينَ يَرونَ ربَّهم...».

أهل السُّنة هم الذين اتَّبعوا رسول الله ﷺ، سواء كانوا أهل حديث أو غيرهم.

وهم يؤمنون بهذا عن يقين، وإيمانُهم به تَبَع للأدلة التي جاءت في كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ: أن المؤمنين يرون ربهم تبارك وتعالى.

ورؤية الله جل جلاله تكون في الموقف، وتكون في الجنة.

ورؤيته في الجنة هي أعلى نعيم أهل الجنة، فإذا نظروا إليه نَسُوا كل ما هم فيه.

وتتفاوت الرؤية حسب تفاوت أعمالهم، وصِدْقِهم، واتِّباعِهم رسول الله ﷺ، ويدخل في هذا النساء؛ لأنهن من المؤمنين، فهي لأهل

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب في قوله عليه السلام: إن الله لا ينام، وفي قوله: حجابه النور لو كشفه لأحرق سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه (١/ ١٦١) برقم (١٧٩).

الجنة كلهم، ولكنها تتفاوت؛ فمنهم من يرى ربه في اليوم مرتين، ويدل على هذا حديث جرير بن عبد الله البَجَلي، الذي في «الصحيحين»، قال: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، إِذْ نَظَرَ إِلَى القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ قَالَ: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا القَمَرَ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ؛ فَافْعَلُوا**»[1].

يقول العلماء: هذا إشارة إلى أنهم يرون ربهم في وقت هاتين الصلاتين؛ لمن حافظ عليهما.

وقوله: «**أَنَّ المؤمِنِينَ يَرَونَ ربَّهم ـ تَبارَكَ وتَعالى ـ بِأَبْصَارِهِم**» «**بِأَبْصَارِهِم**» ردًّا على الذين يقولون: إن الرؤية قلبية، كما تقول الأشاعرة أو كثير منهم.

وقوله: «**وَيَنْظُرُونَ إليْهِ على مَا وَرَدَ بِهِ الخَبَرُ...**».

وقد جاء في كتاب الله قوله ﷻ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] فالحُسنى: هي الجنة، والزيادة: هي النظر إلى وجه الله الكريم تعالى وتقدس، كما فسَّر ذلك رسولُ الله ﷺ.

وقوله ﷻ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣] إذا جاء النظر مضافًا إلى الوجه ومُعَدًّى بـ«إلى» تعيَّن أن يكون النظر بالبصر، وقال تعالى: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطفِّفين: ٢٣] إلى ربهم. وقال تعالى في الكفار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

قال الشافعي: لما حَجَب أعداءه عن النظر إليه، دلَّ على أن أولياءه ينظرون إليه[2].

ومعلوم أن النظر يكون من فوق.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) تفسير الإمام الشافعي (٣/ ١٤٣٠).

وجاء تفصيل ذلك في أحاديث كثيرة جمعها بعض العلماء، كما جمع بعضهم أحاديث الحوض.

وقوله: «إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ».

وفي رواية «**لَا تُضَامونَ فِي رُؤْيَتِهِ**». وقد جاء «لا تُضامون» بالتخفيف والتشديد؛ أما التخفيف فهو من الضَّيمِ، أي: لا يلحَقُكم ضَيمٌ في ذلك.

وأما التشديد فمن الضَّمِّ، أي: لا ينضَمُّ بعضكم إلى بعض للرؤية؛ فإنها رؤية واضحة جلية لا تحتاج إلى مساعدة.

ومن يُنكِر الرؤيةَ فقد يُمنَعُ مِنها، فلا يَرى رَبَّه إن دخل الجنة!

وقوله: «والتَّشْبِيهُ في هذا الخَبَر وقعَ لِلرُّؤْيَةِ بِالرُّؤْيَةِ».

أي: بالوضوح والجلاء لا للمَرئيِّ.

وهذا مفهوم وظاهر؛ ولهذا يقال: ترونه كما ترون البدر، أو كما ترون الشمس، فهذا تشبيه للوضوح والجلاء؛ لأن الشمس والقمر من أوضح ما يُرى؛ فهي واضحة وجلية وظاهرة لا خفاء فيها.

وهؤلاء الذين يُنكِرون الرؤية، ينكرونها عن طريق فلسفي من طرق المتكلمين الباطلة؛ فهم يقولون: إذا كان يُرى لزم أن يكون جسمًا!

والجسم هو البلاء الذي أصابهم؛ فهم ينفون كل ما أخبر الله ﷻ به!

من أجْلِ ذلك يقولون: إذا لم يكن أمام النظر شيء يصطدم به من الأجسام، فإنه لا يرى شيئًا، فإذا أثبتُّم الرؤية لزمكم أن تُثبتوا أن الله جسم! هذا قول المعتزلة، وقد تبعهم على ذلك الأشاعرة. وهم يَرُدُّون آيات الله وكلام رسوله ﷺ بهذا الهُراء الباطل الذي يُقَدِّرونه ويجعلونه من الأمور العقلية!

لقد ذكَرْنا من قبلُ أن كلمة «جسم» باطلة، وهي بدعة، ولم يَرِدْ نفيها ولا إثباتها.

نقول: ماذا تريدون بالجسم؟ هل تريدون أنه مثلكم؟! تعالى الله وتقدس.

أو هل تريدون أنه جسم مكوَّن مما تشاهدونه وترونه في بني آدم؟! فهذا تشبيه وكفرٌ بالله ﷻ، ولا يقوله مسلم.

أو تريدون بالجسم أن يكون في مكان يشار إليه، وهو على عرشه تعالى وتقدس؟!

فنقول: لا يجوز تسمية هذا بالجسم، فكلمة «جسم» مردودة على كل حال، ولكن ما المعنى الذي تريدونه؟

فإن قالوا: إنه الجسم الذي يَشغَل مكانًا.

نقول: هذا أيضًا غير صحيح معنًى ولفظًا.

وإن قالوا: الجسم الذي تصح الإشارة إليه.

نقول كذلك: هذا لا يصح.

فإن قالوا: الجسم المركَّب من أشياء.

نقول: هذا باطل لفظًا ومعنًى، والله ﷻ لا يشبهه شيء.

فكل هذه أمور نقشها الشيطان في أذهانهم وفي قلوبهم، منعتهم من قَبول الحق؛ فضَلُّوا وأضلُّوا. وهذه علة الأشاعرة الذين نفوا الرؤية مع أنهم يثبتون أحاديثها، ثم لا يأتون بمقتضاها؛ لأنه إذا قيل: من أين يُرى؟ قالوا: لا من جهة!

هذا أمر غير معقول، وهذه ليست رؤية؛ ولهذا اضطروا إلى أن يقولوا: الرؤية هي زيادة العلم أو رفع الحُجب!

فصارت عندهم رؤية قلبية، وإذا كان الأمر كذلك فعندئذٍ يمكن أن تكون في الدنيا أيضًا كما ثبت لرسول الله ﷺ ذلك.

إن التعليلات التي يتعللون بها باطلة، ولا يجوز أن تُعَلَّل الأخبار التي جاءت بها النصوص الصحيحة الثابتة بأفكار الناس؛ فالأفكار تَرِدُ على أصحابها، والمسلم يجب عليه أن يُسَلِّم للنصوص الواردة عن الله ﷻ وعن رسوله ﷺ.



﴿ [قال رَحِمَهُ اللَّهُ]: «ويَشهَدُ أهلُ السُّنَّة أنَّ الجنَّةَ والنَّارَ مخلوقتان، وأنَّهما باقيتان، لا يَفْنَيانِ أبدًا، وأنَّ أهل الجنَّة لا يخرجون منهَا أبدًا، وكذلِكَ أهلُ النَّار الذين هم أهلها خُلِقُوا لها، لا يخرُجُونَ مِنهَا أبَدًا، ويُؤمَر بِالمَوتِ فَيُذبَح على سور بين الجنَّة والنَّار، ويُنَادِي المُنادِي يَومَئذٍ: «يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، خُلُودٌ ولا مَوْتَ، ويَا أَهْلَ النَّارِ، خُلُودٌ ولا مَوْتَ»، على ما ورد به الخَبَرُ الصَّحيحُ عن رسولِ الله ﷺ»[1].

الشَّرح

ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ مسألة الإيمان بالجنة والنار، ووجوب الإيمان بذلك، وهو ـ كما ذكرنا من قبلُ ـ داخلٌ في الإيمان باليوم الآخر؛ فإن الإيمان باليوم الآخر يشمل كل ما أخبر به الله جَلَّ وَعَلَا، أو أخبر به رسوله ﷺ مما يكون بعد الموت إلى ما لا نهاية له، وقد جاء ذلك تفصيلًا عن النبي ﷺ، ولكن لماذا ينص على هذه المسألة من بين المسائل الكثيرة؟

نقول: نصَّ عليها؛ لوجود الخلاف فيها من قِبل أهل الباطل، والخلافُ فيها للجهمية والمعتزلة والرافضة، وقد دخل التجهُّم أيضًا على بقية الخوارج والزيدية والإباضية من أهل البدع، وكلهم ينكرون ذلك.

وهذا مبني عندهم على مسألة فيها غموض أو تعذُّر في الفهم عند كثير من الناس، مع أنها ليست غامضة.

وتختلف علة المعتزلة في نفيها عن علة الجهمية؛ أما الجهمية ومن

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ [مريم: ٣٩] (٦/ ٩٣) برقم (٤٧٣٠)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٤/ ٢١٨٨) برقم (٢٨٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وافقهم فقد نفوها لنفي تسلسل الحوادث، وقالوا: إن الذي دلَّنا على وجود الله ﷻ، وكذلك على وجود المخلوقات: ما نشاهده من الحوادث، وكل حادث يجب أن يكون مسبوقًا بالعَدَم، وإلا لزم الدَّور الذي هو من أبطل الباطل، والذي يكون مشروطًا بالعدم لا بد أن يلحقه العدم عندهم، والرب ﷻ واجب الوجود عندهم وعند كل الناس، ومعنى واجب الوجود: أن وجوده بنفسه، وأنه لم يفتقر إلى غيره ﷻ؛ فهو أول بلا بداية، ويكون آخرًا بلا نهاية ﷻ، وما عداه كان معدومًا.

أما أفعال الله ﷻ وأوصافه، فهو عندهم صار يفعل بعد أن لم يكن يفعل؛ صار فاعلًا للخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، وغير ذلك، وبناءً على ذلك لا يكون شيء من المخلوقات باقيًا أبدًا. وقد أخبرنا ﷻ ببقاء الجنة والنار إلى الأبد، فهذا يهدم قاعدتهم هذه.

ينقسم الناس ـ كما قال شيخ الإسلام ـ **في هذه المسألة إلى ثلاث طوائف:**

طائفة أنكرت تسلسل الحوادث.

ومعنى التسلسل: أن كلَّ حادثٍ قبله حادثٌ، إلى ما لا نهاية له، وكذلك في المستقبل؛ كل حادث يكون بعده حادث، إلى ما لا نهاية له، بعد اتفاقهم على أن هذا لا يجوز أن يكون في الفاعِلين المؤثِّرين؛ فإن هذا باطل في هذه المسألة، وأن هذا في المفعولات، والكلام في فعل الله ﷻ، وقد أخبَرَنا اللهُ عن مبدأ المخلوقات أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام، وهل قبل هذه السموات والأرض شيء؟ **نقول:** لا بد أن قبلها شيئًا، ولكن لم يخبِرْنا به سبحانه، لكن أخبرنا ﷻ عن عرشه بقوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧].

كما في سورة هود؛ مما يدل على أن العرش مخلوق قبل خلق السموات والأرض؛ قال الله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧]

أما ذِكْرُ استوائه على العرش فهو شيء خاص، ولا يلزم أن يكون قبل خلق السموات غيرَ مستوٍ على عرشه، وإنما أخبر بذلك بعد الخلق بناءً على هذا عندهم.

وبعضهم يقول: التسلسل ممتنع في الماضي، وجائز في المستقبل.

وبعضهم يزعم أن هذا قول أهل السُّنَّة. وهو ليس كذلك؛ فأهل السُّنَّة يثبتون التسلسل في الماضي والمستقبل، كما ذكر ذلك أبو سعيد الدارمي، والبخاري، والإمام أحمد، وغيرهم من الأئمة الكبار، ويستدلون على هذا بمثل قوله ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧].

وهذا يجب أن يكون مطلقًا دائمًا، وأنه لم يكن في وقت من الأوقات مُعَطَّلًا عن الفعل، تعالى الله وتقدس.

أما الجهمية فهم يبطلونه في الماضي وفي المستقبل، غير أن إمام المعتزلة أبو الهذيل العلَّاف جعل إبطال التسلسل في المستقبل للحركات؛ قال: إن حركة أهل النار وأهل الجنة تفنى، فيصبحون بلا حركة! وقد تهكَّم به ابن القيم رحمه الله في النونية، فقال[1]:

وتلطَّف العلَّافُ من أتباعه ... فأتى بضحكةِ جاهلٍ مجَّانِ
قال الفَناءُ يكون في الحركاتِ لا ... في الذاتِ، واعجبًا لذا الهذيانِ
أيصيرُ أهل الخُلد في جنَّاتهم ... وجحيمِهم كحِجارة البُنيانِ
ما حالُ من قد كان يغشى أهلَه ... عند انقضاءِ تحَرُّكِ الحيوانِ

(١) القصيدة النونية لابن القيم (ص١٠).

وكذاك ما حالُ الذي رَفَعَت يدا ... هـ أكلةً من صَفحةٍ وخِوَانِ
فتناهت الحركاتُ قبل وصولها ... للفَمِ عند تفتُّحِ الأسنانِ
وكذاك ما حالُ الذي امتَدَّت يدٌ ... منه إلى قِنوٍ من القِنوانِ
فتناهَت الحركاتُ قبل الأخذ هل ... يبقى كذلك سائِرَ الأزمانِ
تبًّا لهاتيكَ العُقولِ فإنَّها ... واللهِ قد مُسِخَت على الأبدانِ
تبًّا لِمن أضحى يُقَدِّمُها على ال ... آثارِ والأخبارِ والقُرآنِ

معنى قوله: أن أهل الجنة أحدهم يمد يده ليتناول قِطفًا من العنب أو غيره، فتبقى يده ممدودة أبدًا، وبعضهم يفتح فاه ليأكل أو ليشرب، فيبقى فاه مفتوحًا أبدًا! وهذا من العذاب وليس من النعيم، ولا شك أن هذا باطل.

أما قول المعتزلة بنفي أن تكون الجنة والنار مخلوقتين الآن، فهذه المسألة مبنية على أصلهم الذي وضعوه، وهو التشبيه في الأفعال.

قالوا: كل ما قَبُح من الناس يَقبُحُ وُجودُه من الله ﷻ؛ فمثلًا: لو أن إنسانًا بنى بيتًا وأودعه ما يحتاج إليه من المفروشات والمأكولات والمشروبات والأثاث، ثم أغلقه وعطَّله، فهذا يُعَدُّ عبثًا وسفهًا، والله مُنَزَّه عن خلق الجنة والنار، ثم تَرْكِهما بلا سُكَّان وبلا أهل، وإنما يخلقهما إذا جاء الناس إلى الموقف وقرب إسكانهم!

أما خبره ﷻ بأن الجنة والنار معدَّتان، فيقولون: إنه من باب كون المستقبل كالواقع؛ مثل: قوله ﷻ: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٨]، وقوله ﷻ: ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٩].

فهذه الطريقة هي التي يسميها أهل السُّنَّة التشبيه؛ ولهذا قالوا: إنهم مُشَبِّهةُ الأفعال ونُفاةُ الصِّفات؛ يُشَبِّهون أفعال الرب ﷻ بأفعالهم، وينفون صفات الله ﷻ.

وهم يقولون أيضًا: بأنه يجب على الله أن يفعل الأصلح للخلق، وإن كانت هذه مسألة أخرى!

ولكن المقصود أنهم يأتون بشرع من عند أنفسهم ويجعلونه أصولًا!

وهؤلاء لهم أصول خمسة غير أصول المسلمين الذين تلقَّوها عن رسول الله ﷺ؛ فهذا هو الأصل الذي بنوا عليه كون الجنة والنار لم تُخلَقا، وإنما ستُخلقان بعدُ!

والأدلة من الكتاب والسنة تُبطِل هذا القول، وقد أخبَرنا الله ﷻ بأن الجنة مُعَدَّة، وأن فيها حُورًا، وفيها أنهار اللبن، وأنهار الماء، وأنهار العسل، وغير ذلك.

وقد جاء في مواضع كثيرة أنها أُعِدَّت للمتقين الذين آمنوا بالله، وأن النار قد أُعِدَّت للكافرين.

ومن الأشياء الصريحة أن الرسول ﷺ لَمَّا عُرِج به اطَّلَع في الجنة، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ [النجم: ١٣ ـ ١٦] فأخبر أن جنة المأوى في ذلك المكان، وأن الرسول اطَّلَع عليها ورآها، وقد أخبر بذلك كما في حديث أنس رضي الله عنه، الذي في المعراج[1].

وقد جاءت أحاديث كثيرة بأنه دخل الجنة؛ عن جابر بن عبد الله قال: قال ﷺ: «**دَخَلْتُ الجَنَّةَ فَإِذَا أَنَا بِقَصْرٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَقُلْتُ: لِمَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: لِرَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ. فَمَا مَنَعَنِي أَنْ أَدْخُلَهُ يَا ابْنَ الخَطَّابِ إِلَّا مَا أَعْلَمُ مِنْ غَيْرَتِكَ!**». قَالَ: وَعَلَيْكَ أَغَارُ يَا رَسُولَ اللهِ؟![2]

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الصلاة، باب: كيف فرضت الصلاة في الإسراء؟ (١/ ٧٨) برقم (٣٤٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في أبواب الكسوف، باب صلاة الكسوف جماعة (٢/ ٣٧) =

وحديث كُسوفِ الشمس الذي جاء في «الصحيحين»: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، رَأَيْنَاكَ تَنَاوَلْتَ شَيْئًا فِي مَقَامِكَ ثُمَّ رَأَيْنَاكَ كَعْكَعْتَ! قَالَ ﷺ: **«إِنِّي رَأَيْتُ الجَنَّةَ فَتَنَاوَلْتُ عُنْقُودًا، وَلَوْ أَصَبْتُهُ لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا، وَأُرِيتُ النَّارَ فَلَمْ أَرَ مَنْظَرًا كَاليَوْمِ قَطُّ أَفْظَعَ، وَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ!»** قَالُوا: بِمَ يَا رَسُولَ اللهِ؟! قَالَ: «**بِكُفْرِهِنَّ**» قِيلَ: يَكْفُرْنَ بِاللهِ؟ قَالَ: **«يَكْفُرْنَ العَشِيرَ، وَيَكْفُرْنَ الإِحْسَانَ؛ لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ كُلَّهُ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا، قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ!»**[١].

وأخبر أنه رأى عمرو بن لُحَيٍّ الخزاعي يجُرُّ قُصْبَه في النار؛ لأنه أول من غيَّرَ دين إبراهيم[٢]، ورأى امرأةً تُعَذَّبُ في هرة حبسَتْها حتى ماتت، في حديث كسوف الشمس، قال ﷺ: «**فَعُرِضَتْ عَلَيَّ الْجَنَّةُ حَتَّى لَوْ تَنَاوَلْتُ مِنْهَا قِطْفًا أَخَذْتُهُ ـ أَوْ قَالَ: تَنَاوَلْتُ مِنْهَا قِطْفًا ـ فَقَصُرَتْ يَدِي عَنْهُ، وَعُرِضَتْ عَلَيَّ النَّارُ، فَرَأَيْتُ فِيهَا امْرَأَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ تُعَذَّبُ فِي هِرَّةٍ لَهَا، رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا، وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ، وَرَأَيْتُ أَبَا ثُمَامَةَ عَمْرَو بْنَ مَالِكٍ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ**»[٣].

= برقم (١٠٥٢)، مسلم في صحيحه، في كتاب الكسوف، باب ما عُرض على النبي ﷺ (٢/ ٦٢٦) برقم (٩٠٧).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في أبواب الكسوف، باب صلاة الكسوف جماعة، وصلى ابن عباس لهم في صُفَّة زمزم، وجمع علي بن عبد الله بن عباس وصلى ابن عمر (٢/ ٣٧) برقم (١٠٥٢)، من حديث ابن عباس، ومسلم في صحيحه، في كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل عمر رضي الله عنه (٤/ ١٨٦٢) برقم (٢٣٩٤) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب تفسير القرآن باب «ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة» برقم (٤٦٢٣) ومسلم في صحيحه، في كتاب الكسوف، باب ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار (٢/ ٦٢٣) برقم (٩٠٤) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب تفسير القرآن باب «ما جعل الله من بحيرة =

وفي حديث الميِّت الذي في «الصحيحين» أنه يُفتَح له باب إلى الجنة فيشاهِدُ منزِلَه، ويُفتَح له باب إلى النار فيشاهِدُه، وأنه يأتيه من رَوحِها وهو في قبره(١).

والأحاديث الكثيرة في الشهداء أن أرواحهم تكون في حواصل طير تسرحُ في الجنة حيث شاءت(٢).

وأخبر أن نَسَمةَ المؤمن طائِرٌ يَعلُقُ في شجر الجنة(٣).

ثم هل يُستدَلُّ بقصة آدم وأنَّه أُسكِنَ الجنة، على وجودها أم لا تكون دليلًا؟!

لقد أباح له الله ﷻ أن يأكل من الجنة إلا شجرةً واحدة فقط، وكان على عورته وعورة زوجته نورٌ لا يصل النظر إليهما، فوسوس له الشيطان، فلما أكل من الشجرة التي نُهي عنها بدت لهما سوءاتهما، وهذا شؤم المعصية؛ ولهذا قال الله ﷻ: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢] فأُخرجا منها. فهل يكون هذا دليلًا أم لا؟!

لم يجعله كثير من أهل السُّنَّة دليلًا؛ للخلاف في الجنة التي أُسكِنَ فيها آدم: هل هي في السماء أم في الأرض؟ وقد ذكر ذلك ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ

= ولا سائبة» برقم (٤٦٢٣) ومسلم في صحيحه، في كتاب الكسوف، باب ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار (٢/ ٦٢٢) برقم (٩٠٤)، واللفظ له، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(١) أخرجه أبو داود في سننه، في كتاب السنة، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر (٤/ ٢٣٩) برقم (٤٧٥٣) من حديث البراء بن عازب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الإمارة، باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة، وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون (٣/ ١٥٠٢) برقم (١٨٨٧) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه النسائي في سننه، في كتاب الجنائز، باب أرواح المؤمنين (٤/ ١٠٨) برقم (٢٠٧٣)، وابن ماجه في سننه، في كتاب الزهد، باب ذكر القبر والبلى (٢/ ١٤٢٨) برقم (٤٢٧١) من حديث كعب بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

في كتابه «حادي الأرواح»[(١)]، وذكر أدلة الفريقين، ولما جاء إلى أدلة الذين يقولون: إنها ليست في السماء وإنما هي في الأرض، قال: هؤلاء أدلتهم كثيرة. وذكر جملة منها. ولكن المتبادر عند عموم المسلمين أن الجنة التي أُسكِنَها آدم هي جنة الخُلد، أما اللوازم التي قيل: إنها تنفي ذلك فلا تلزم؛ لأن قدرة الله ﷻ فوق الشيء الذي يتصوره الناس، ومنها اللوازم التي تجعلها ليست جنة الخُلد.

فلما أبى إبليس أن يسجد أخرجه الله ﷻ منها، قال ﷻ: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ﴾ [الأعراف: ١٣] فكيف عاد إليها ووسوس لآدم؟ هذا من الأمور التي تعلَّل بها الذين يقولون: إنها ليست في السماء.

إن أدلة إثبات وجودها كثيرة، ولا يجوز أن نلتفت إلى أقوال أهل البِدَع الذين يقولون: إنها ستوجَد، أو إنها تفنى؛ لأمور زعموها من عند أنفسهم، وزعموا أنها أدلة، وإنما هي أدلتهم من أفكارهم وعقولهم، فكيف يلتفت الإنسان إليها ويترك النصوص الواردة في كتاب الله ﷻ، وعن رسوله ﷺ؟!

وقوله: «ويَشهَدُ أهلُ السُّنَّة أنَّ الجنَّة والنَّار مخلوقتان».

أهل السُّنَّة يعتقدون ما دل عليه الدليل من الكتاب والسنة؛ بأن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن، وأن من مات من أهل الإيمان يأتيه من نعيمها ورَوحها وطِيبِها، كما أن من مات من أهل النار يأتيه من لهَبِها وريحها ونَتنِها، وقد ثبت هذا بأدلة مستفيضة من الكتاب والسنة وإجماع سلف الأُمَّة، تقدَّم ذِكرُ شيء منها؛ فقد أخبَرَنا الله ﷻ أن الجنة فيها حور ونعيم، كما أن الرسول ﷺ اطَّلع في الجنة، واطَّلع في النار،

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (ص: ٢٢ ـ ٢٥).

يقول ﷺ: «**اطَّلَعْتُ في النار ورأيت امرأةً في النار في هرة حبسَتْها، لا هي تركتها تأكل من خَشاش الأرض، ولا أطعمتها، رأيتها تخمشُها في النار، ورأيت عَمْرَو بن لُحَيٍّ الخزاعي يجرُّ قُصْبَه في النار؛ لأنَّه أول من سَيَّب السَّوائِبَ، وحمى الحامِيَ، وغيَّرَ دين إبراهيم**»[1]، ومعنى هذا أن مَن يموت من الكفار يكون في النار الآن، وإن كان في قبره!

وكذلك الذي يموت من أهل الجنة يكون في نعيم.

أما الجنة فلا يزال فيها بعض المساكن حتى ينشئ الله ﷻ خلقًا فيُسكِنُهم فَضْل الجنة، وأما النار «**لَا تَزَالُ يُلْقَى فيها وهي تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ، حتى يَضَعَ رَبُّ العِزَّةِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِيهَا قَدَمَهُ، فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَتَقُولُ: قَطْ قَطْ وَعِزَّتِكَ!**»[2]. أي: تتضايق على أهلها وتمتلئ حتى لا يكون فيها مكان. وكل هذا يدل على أنها موجودة.

وقد جاء في حديث الإسراء أن إبراهيم عليه السلام حمَّل رسولنا رسالة لنا وقال: «**أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ، عَذْبَةُ المَاءِ، وَأَنَّهَا قِيعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا: سُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ**»[3].

والجنة كبيرة جدًّا؛ عَرْضُها كعَرْضِ السماء والأرض. قال سبحانه وتعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤] (٩/ ١١٧) برقم (٧٣٨٤)، (٤٨٤٨)، (٧٤٤٩)، (٦٦٦١)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٤/ ٢١٨٨) برقم (٢٨٤٨) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، في كتاب الدعوات، باب (٥/ ٥١٠) برقم (٣٤٦٢) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وقال: هذا حديث حسن غريب.

ولا ينافي أن الله ينشئ فيها نعيمًا لمن عمل أعمالًا صالحة، ولكن زيادة العمل تدل على سَعة المساكن وعِظَمِها، وكذلك ما جاء عن الصحابة في هذا: أن من صلى في اليوم اثنتي عشرة ركعة، بُني له قصر في الجنة[١].

وأما من خالف في ذلك كالمعتزلة الذين يزعمون أن الجنة والنار غير مخلوقتين الآن؛ لأن خَلْقَهما الآن عبثٌ! زعموا معتمدين في ذلك على الآراء الكلامية والأقوال الفلسفية، والقياس الفاسد على المخلوقين، وقد تقدم بيان فساد هذا القول قريبًا.

من هذه النصوص وغيرها يتضح أن قولهم لا قيمة له، ومع ذلك يذكرون هذا ويوردونه في العقائد؛ لأن طائفة من المعتزلة وغيرهم يقولون: إنها تفنى، ويقول بعضهم: إن الذي يفنى هو حركات أهل الجنة، أما هي وهُم فلا يَفْنَون، ويُصبِحون كالحَجَر!

هل هذا نعيم؟! كالحِجارة؛ لا يتحركون، ولا يأكلون، ولا يشربون! إنَّ شرَّ البَلِيَّةِ ما يُضحِكُ!

قوله: «وأنَّهما باقيتان، لا يَفْنَيانِ أبدًا».

أصل هذه المسألة عند الجهمية، وهم من أسوأ الفِرَق، وقد أخرجهم كثير ممن كتبوا في المقالات، من الاثنين والسبعين، وقالوا: إنهم ليسوا من هذه الأُمَّة؛ ولهذا حَكَم كثير من أهل السُّنَّة بكفرهم، وقد ذكر اللَّالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل السنن الراتبة قبل الفرائض وبعدهن، وبيان عددهن (١/ ٥٠٢) برقم (٧٢٨) من حديث أم حبيبة رضي الله عنها.

والجماعة»[١] عن خمسمائة عالم من علماء أهل السُّنَّة تكفيرَهم!

ويقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن هذا النقل نقله الطبراني قبل اللَّالكائي عن هذا العدد أو أكثر في كتابه «السنة».

وهذه من المسائل التي جاءت فيها آيات كثيرة جدًّا تتعلق بالخلود في الجنة؛ منها: قوله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ﴾ [النساء: ٥٧]. أما كلمة «أبدًا» بالنسبة للنار، فقد جاءت في ثلاث آيات؛ في آخر سورة النساء، وفي سورة الأحزاب، وفي سورة الجن.

والقول بفناء النار قد يُستدَلُّ عليه بأمور فيها اشتباه في الواقع، وربما تكون من المتشابه، كقوله جَلَّ جَلَالُهُ لأهل النار: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]، وقوله جَلَّ جَلَالُهُ في سورة النبأ: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ [النبأ: ٢٣].

وقال جَلَّ جَلَالُهُ في سورة الأنعام: ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨]، وما أشبه ذلك من الأمور التي يستَدِلُّون بها، وقالوا: هذا الاستثناء يدل على عدم استمرار البقاء، وأن النار تفنى، وأن أهلها يَفْنَون!

وهذه مفاهيمُ مُخالَفةٍ، ومفهومُ المخالَفةِ من أضعف الأدلة؛ فكيف تُرَدُّ به النصوص الواضحة الجلية؟!

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٢/ ٣٤٤)، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قَالُوا كُلُّهُمْ: الْقُرْآنُ كَلَامُ اللهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وَمَنْ قَالَ: مَخْلُوقٌ، فَهُوَ كَافِرٌ. فَهَؤُلَاءِ خَمْسُمِائَةٍ وَخَمْسُونَ نَفْسًا أَوْ أَكْثَرُ مِنَ التَّابِعِينَ وَأَتْبَاعِ التَّابِعِينَ وَالْأَئِمَّةِ الْمَرْضِيِّينَ سِوَى الصَّحَابَةِ الْخَيِّرِينَ، عَلَى اخْتِلَافِ الْأَعْصَارِ وَمُضِيِّ السِّنِينَ وَالْأَعْوَامِ، وَفِيهِمْ نَحْوٌ مِنْ مِائَةِ إِمَامٍ مِمَّنْ أَخَذَ النَّاسُ بِقَوْلِهِمْ وَتَدَيَّنُوا بِمَذَاهِبِهِمْ» اهـ.

فتبَيَّن بهذا بطلان هذا الاستدلال بمثل هذه النصوص؛ لأن غاية ما يدل عليه الاستثناء أن كل شيء بمشيئة الله ﷻ، فإذا شاء أن يغير غيَّر، ولكنه أخبرنا بأن هذا لا يتغير، وأنه يدوم ما دامت السموات والأرض.

وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ الخلافَ في كتبه «الصواعق»، و«شفاء العليل»، و«حادي الأرواح»، وأطنب في ذكر الأدلة حتى يخيَّل إلى الإنسان الذي يقرأ ذلك أنه يقول بفناء النار!

وقد اشتهر عند الناس أن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ يقول بذلك! والواقع أن شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ له تصريحات كثيرة في كتبه يقول: بأبدية الجنة والنار، وإن كان ذَكَر الخلاف في هذا، ولكن لا يلزم أنه يتبنى هذا الخلاف.

ومما يدل على أنه لا يتبنى الخلاف ما ذكره ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال في كتابه «الوابل الصيب»: الدُّورُ ثلاثٌ: دار الخُبث الخالص؛ فإن الخُبث يُجمَع بعضُه إلى بعض فيُرْكَمُ جميعًا، ثم يكون في جهنم، وهذه الدار لا تفنى أبدًا. ودار الطيِّبين الخُلَّص؛ فهؤلاء دارهم الجنة، وهي لا تفنى أبدًا. وهناك دار ثالثة لمن جمع بين الخُبث والطِّيب؛ فإنهم يُلقَون في النار حتى يزول الخبث ويُطَهَّرون، ثم يخرجون منها»[1]، وهذه هي التي قيل: إنها تفنى.

فهذا التفصيل الذي ذكره وإن كان مختصرًا، يدل على أنه لا يقول بفناء النار، وإنما يقول بجزء مُعَيَّن.

وقال البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره: «الاستثناء في أهل الشقاء يرجع إلى قوم من الموحِّدين يُدخِلهم الله النار بذنوب اقترفوها، ثم يخرِجُهم منها، فيكون ذلك استثناءً من غير الجنس؛ لأن الذين أُخرِجوا من النار سعداء،

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب (ص: ٢٠).

ثم استثناهم الله من جملة الأشقياء، وأما الاستثناء في أهل السعادة فيرجع إلى مدة لُبثِهم في النار قبل دخول الجنة. وقيل: «إلا ما شاء ربك» من الفريقين من تعميرهم في الدنيا واحتباسهم في البرزخ ما بين الموت والبعث قبل مصيرهم إلى الجنة أو النار، يعني: هم خالدون في الجنة أو النار إلى هذا المقدار. وقيل: معنى «إلا ما شاء ربك» أي: سِوى ما شاء ربك، معناه: خالدين فيها ما دامت السموات والأرض سوى ما شاء الله من الزيادة على قدر مدة بقاء السموات والأرض، وذلك هو الخلود فيها»[1].

وللعلماء في ذلك أجوبة كثيرة عن الاستثناء الذي في سورتي هود والأنعام.

وقوله: «وأنَّ أهل الجنَّة لا يخرجون منهَا أبدًا».

إن كثرة السنين وكثرة الزمن لا تؤثِّرُ في أبدانهم في الجنة؛ لأنهم يُصبِحون شبابًا؛ فلا يَفْنَون، ولا يَهرَمون، ولا يخافون، ولا يألمون، وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون.

وهذا من فضل الله ﷻ، وعلى العبد أن يسعى جُهْدَه؛ لعل الله يرزقه الجنة؛ لأن الأمر ليس سهلًا، فما بينه وبينها إلا الموت، وإذا مات خُتِم على عمله.

وأهل النار كذلك لا يَفْنَون، وهم خالدون فيها؛ قال ﷻ: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠]، وقال ﷻ: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢]، وقال ﷻ: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا﴾ [النساء: ٥٦].

---

(١) تفسير البغوي (٢/ ٤٦٦).

وكلمة ﴿كُلَّمَا﴾ تأتي في لغة العرب للشيء الذي لا نهاية له؛ كلما ذهب شيء جاء بعده شيء، إلى ما لا نهاية.

وقوله: «وكذلِكَ أهلُ النَّار الذين هم أهلُها خُلِقُوا لها».

هذا يُخرِج الذين يدخلون النار من المسلمين؛ فإنهم لا يَبقَون فيها، بل يُخرَجون منها، وإن تفاوت مُكْثُهم حسب تفاوت إجرامهم ومعاصيهم؛ لأنهم يبقَون في النار حتى يُطَهَّروا ويأخذوا جزاءهم، ثم يخرجون منها.

وقوله: «ويُنَادِي المُنادِي يومَئذٍ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، خُلُودٌ ولا مَوْتَ، ويَا أَهْلَ النَّارِ، خُلُودٌ ولا مَوْتَ».

يؤمر بالموت فيُذبَح على سور بين الجنة والنار، فينادي المنادي: «**يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ، خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ**، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ [مريم: ٣٩]، وَهَؤُلَاءِ فِي غَفْلَةٍ؛ أَهْلُ الدُّنْيَا ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩]»(١)

وقوله: «على ما ورد به الخَبرُ الصَّحيحُ عن رسولِ اللهِ».

وقد جاء أنه يؤتى بالموت في صورة كبش. وهل هو معنى أم ذات مُعَيَّنة؟ هذا يدلنا على أن المعاني مخلوقة، وأن الله ﷻ خلق الموت والحياة؛ فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: وَهَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، فَيُذْبَحُ ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ، فَلَا مَوْتَ، ثُمَّ قَرَأَ:** ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ [مريم: ٣٩]، وَهَؤُلَاءِ فِي

---

(١) سبق تخريجه.

غَفْلَةٍ؛ أَهْلُ الدُّنْيَا ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩]»[1]، **فيزداد أهل الجنة غِبطةً وسرورًا ونعيمًا، ويزداد أهل النار غمًّا وحُزنًا وعذابًا!».**

يُجمَع العذاب كله في النار؛ عذاب الحسَرات، وعذاب الأنفُس، وعذاب مشاهَدة مَن أضلَّه مِن شيطانِ الجِنِّ وشيطان الإنس قرينًا له، وأيُّ عذاب أشدُّ من كونه قرينًا لمن كان عدوًّا له؟!

يقول بعض العلماء في تفسير قوله: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ﴾ [النمل: ٢١] في قصة الهدهد: يسجنه مع غير نظيرِه!



---

(١) رواه البخاري في صحيحه باب: وأنذرهم يوم الحسرة (٦/ ٩٣) حديث رقم (٤٧٣٠)، واللفظ له، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب النار يدخلها الجبارون حديث رقم (٢٨٤٩).

[قال رَحِمَهُ اللَّهُ]: «ومِنْ مذهب أهل الحديثِ: أنَّ الإيمَانَ قول وعمل ومعرفة، يزيدُ بِالطاعَةِ، وينقُصُ بالمعصيَةِ.

قال محمد بن علي بن الحسن بن شقيقٍ: سألتُ أبا عبد الله أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ عن الإيمَانِ في معنى الزِّيادةِ والنُّقصَانِ؟ فقال: حدَّثنا الحسن بن موسى الأشيبُ، قال: حدَّثنا حمَّاد بن سلمة، قال: حدَّثنا أبو جعفر الخَطْمِي، عن أبيه، عن جدِّهِ، عن عمير بن حبيب، قال: الإيمانُ يَزيدُ ويَنقُصُ، فقيل: وما زيَادتُهُ وما نُقصَانُه؟ قال: إذا ذَكَرنَا اللَّهَ فحَمِدْنَاه وسبَّحناهُ، فتلك زيادَتُه، وإذا غَفَلنَا وضيَّعنا ونسِينَا، فذلكَ نُقصَانُهُ[1].

أخبرنا أبو الحسن بن أبي إسحاق المُزكي، قال: حدَّثنا أبي، قال: حدَّثنا أبو عمرو الحِيري، قال: حدَّثنا محمد بن يحيى الذُّهلي، ومحمد بن إدريس المكِّي، وأحمد بن شداد التِّرمِذِي، قالوا: حدَّثنا الحُميدي، قال: حدثنا يحيى بن سليم، قال: سألتُ عشرةً من الفقهاء عن الإيمانِ، فقالوا: قول وعمل.

سألت هشام بن حسَّان فقال: قول وعمل.

وسألتُ ابن جرير فقال: قول وعمل.

وسألتُ سفيان الثوري فقال: قول وعمل.

وسألتُ المثنى بن الصباح فقال: قول وعمل.

وسألتُ محمد بن مسلم الطائفي فقال: قول وعمل.

وسألتُ فضيل بن عياض فقال: قول وعمل.

---

(١) السنة لعبد الله بن أحمد (١/ ٣١٥).

وسألتُ نافع بن عمرو الجُمحي، فقال: قول وعمل.

وسألتُ سفيان بن عيينة فقال: قول وعمل[(١)].

وأخبرنا أبو عمرو الحِيري، قال: حدَّثنا محمد بن يحيى، ومحمد بن إدريس، وسمعتُ الحميدي يقول: سمعتُ سفيان بن عيينة يقول: الإيمانُ قول وعمل، يزيدُ وينقصُ، فقال له أخوه إبراهيم بن عيينة: يا أبا محمد، تقولُ: يَنقصُ؟ فقال: اسكت يا صبي! بل يَنقصُ، حتى لا يَبقَى منهُ شيء[(٢)].

وقال الوليد بن مسلم: سمعتُ الأوزاعي، ومالكًا، وسعيد بن عبد العزيز يُنكِرُون على من يقولُ: إقرارٌ بلا عمل، ويقولون: لا إيمانَ إلا بعمل[(٣)].

قلت: فمن كانت طَاعَاتُه وحسناتُه أكثرَ، فإنَّه أكملُ إيمَانًا ممَّن كان قليلَ الطَّاعة، كثيرَ المعصِيةِ والغفلَةِ والإضَاعَةِ؛ فإيمَانه نَاقص».

وسمعتُ الحاكم أبا عبد الله الحافظ يقولُ: سمعتُ أبا بكر محمد بن أحمد بن بالويه الجلَّاب يقول: سمعتُ أبا بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة يقول: سمعتُ أحمد بن سعيد الرِّباطي يقولُ: قال لي عبد الله بن طاهر: يا أحمد، إنَّكم تُبغِضُون هؤلاء القوم جهلًا، وأنَا أُبْغِضُهم عن معرفة؛ إنَّ أوَّل أمْرِهم أنَّهم لا يَرونَ لِلسُّلطانِ طاعةً.

والثاني: أنَّه ليس للإيمان عندهم قَدْرٌ، واللهِ لا أستجيزُ أنْ أقول: إيمانِي كإيمَانِ يحيى بن يحيى، ولا كإيمَانِ أحمد بن حنبل، وهم يقولون: إيمَانُنَا كإيمَانِ جبريلَ وميكَائِيل[(٤)]!

---

(١) الشريعة للآجري (٢/ ٦٤٠).
(٢) الشريعة للآجري (٢/ ٦٠٧).
(٣) صريح السنة للطبري (ص: ٢٥).
(٤) الاعتقاد الخالص من الشك والانتقاد (ص: ٢٣٤).

وسمعتُ الحاكم يقول: سمعتُ أبا جعفر محمد بن صالح بن هانئ يقول: سمعتُ أبا بكر محمد بن شعيب يقول: سمعتُ إسحاق بن إبراهيم الحَنظلِي يقول: قَدِمَ ابنُ المبارك الرَّيَّ، فقام إليه رجلٌ من العُبَّاد ـ الظن به أنَّه يذهبُ مَذْهبَ الخوارجِ ـ فقال له: يا أبا عبد الرحمن، ما تقول فيمن يَزنِي، ويَسرقُ، ويَشربُ الخمرَ؟ قال: لا أُخْرِجُه من الإيمَان، فقال: يا أبا عبد الرَّحمن، على كِبَرِ السِّنِ صِرْتَ مُرجئًا؟ فقال: لا تَقبَلُنِي المُرجِئة؛ المرجئة تقول: حسنَاتنا مقبُولةٌ، وسيئَاتنا مغفُورةٌ، ولو علمتُ أنِّي قُبِلَت منِّي حسنةٌ لشَهِدتُ أنِّي في الجنَّة[١]!

ثم ذكر عن ابن شوذب، عن محمد بن جُحادة، عن سلمة بن كهيل، عن هذيلِ بن شرحبيل، قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لو وُزِنَ إيمانُ أبي بكر بإيمان أهل الأرض لَرَجَح[٢].

سمعتُ أبا بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن زكريا الشيباني يقول: سمعتُ يحيى بن منصور القاضي يقول: سمعتُ محمد بن إسحاق بن خزيمة يقول: سمعت الحسين بن حرب أخا أحمد بن حرب الزَّاهد يقول: أشهدُ أنَّ دِينَ أحمد بن حرب الذي يَدِينُ الله به: أنَّ الإيمَانَ قول وعمل يزيدُ وينقُص».

الشَّرح

هذه مسألة من المسائل الكبار التي صار فيها خلاف، ولا يزال الخلاف فيها إلى اليوم، وفيها غموض وإشكال عند كثير من الناس، مع وضوحها وجلائها بالأدلة الواضحة من القرآن وأحاديث الرسول ﷺ، وهي من أصل دين الإسلام، كيف يكون فيها خلاف واشتباه؟! يجب ألَّا يكون فيها اشتباه؛ لأننا نقول: إن الإيمان جاء عن النبي ﷺ وأصحابه

(١) الاعتقاد الخالص من الشك والانتقاد (ص: ٢٣٢).

(٢) فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل (١/ ٤١٨).

أكثر من مجيء الأمور التي تواترت بالألفاظ، وقد بيَّنه الرسول ﷺ ووضَّحه لأمته غاية البيان؛ فعليه تترتَّب السعادة، وعلى تركه يترتب الشقاء، فكيف يكون فيه خلاف أو إشكال أو التباس؟! إن الأمر فيه واضح، وقد دل عليه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ وذلك أن **الإيمان مكوَّن من أمور ثلاثة** هي: القول، والعمل، والاعتقاد.

أما القول فيقول الله ﷻ: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ [البقرة: ١٣٦].

ويقول الرسول ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»[1].

وقد اتفق العلماء على أن الإنسان لا يدخل في الإسلام حتى يشهد أن لا إله إلا الله، وإذا صلى وصام وجاء بعبادة أهل الأرض دون أن يقول: أشهد أنْ لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فهو كافر في النار.

فلا بد أن يشهد أنْ لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، **وهذا هو القول**.

أما العمل فقد أمَرَنا رسولُنا ﷺ بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، والحج، والجهاد، وغير ذلك من الأوامر التي جاء بها؛ فلا يصح أن نقول: «آمنا» ثم نترك العمل؛ لأن تَرْكَ العمل تركٌ للإيمان.

وقد أخبر الله ﷻ في عدة آيات بأن العمل إيمان، ويدخل في ذلك عمل القلب وعمل الجوارح.

أما القلب فيقول ﷻ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ﴾ [التغابن: ١١].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْۚ﴾ [التوبة: ٥] (١/ ١٤) برقم (٢٥)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله (١/ ٥٣) برقم (٢٢) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

يقول المفسرون في تفسير قوله ﷻ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾: أي: يؤمن بأن المصيبة من عند الله؛ فيرضى وينقاد لذلك.

أما عمل الجوارح فقد كان المسلمون يُصَلُّون ستة عشر شهرًا إلى بيت المقدس بعدما جاء النبي ﷺ إلى المدينة، ثم صُرِف إلى القبلة، فسأل الصحابة: كيف صلاتُنا إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]، أي: صلاتَكم إلى القبلةِ.

ويقول الله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ تَظَـٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـٰرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٤ ـ ٨٥].

يَقصِدُ بالإيمان المفاداةَ، وبالكفرِ الإخراجَ.

والمُفاداة عمل، والإخراج عمل؛ فسمَّى العمل إيمانًا وسمَّاه كفرًا.

وإذا تتَبَّعْنا هذا في كتاب الله وجدناه في آيات كثيرة، فكيف يقال: إن العمل ليس من الإيمان؟!

أما الأحاديث فهي كثيرة جدًّا في هذا، من ذلك قوله ﷺ: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ ـ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ ـ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ**»(١).

أما العلم ـ أو العقيدة إن شئت ـ فلا يمكن أن يأتي عاقل بفعل من الأفعال إلا وقد سبقَتْه نيَّته وإرادته؛ إذ لا يمكن أن ينفَكَّ العمل من النية.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان (١/ ١١) برقم (٩)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان (١/ ٦٣) برقم (٣٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

يقول بعضهم: إن الإيمان قول وعمل فقط.

ويقول بعضهم: إنه قول: آمَنَّا. وهذا من أعجب الأشياء!

ويقول بعضهم: إن الإيمان في القلب وفي اللسان؛ فإذا قلتَ في قلبك وبلسانك، فلا يلزمك العمل!

والعجيب أنهم يساوون بين الذين يعملون والذين لا يعملون في الجزاء، وهذا جهل فظيع!

ولكن المشكلة الآن أن كثيرًا من الناس يقولون: إن العمل ليس من الإيمان، وإنما هو من مقتضى الإيمان، أو من شرط الإيمان!

نقول: إن شروط الشيء قبله؛ فشروط الصلاة ـ مثلًا ـ تكون قبلها؛ مثل: الوضوء، والنية، واستقبال القبلة، والسُّترة. فهل يكون شرط الإيمان بعده؟!

والمصيبة أن هناك رسائلَ تُكتَب في الجامعات يقولون فيها: إن الأعمال مِن شَرْطِ الإيمان أو أنه من مقتضى الإيمان!

وأهل السُّنَّة يقولون: إن العمل ركن وليس شرطًا، كما أن القول ركن، وكذلك العلم ركن؛ فهي الأركان التي يتكون منها الإيمان، وإذا فُقد واحد منها فُقد الإيمان.

وهذا أمر واضح لمن تتبَّع الأدلة.

وقوله: «يَزيدُ ويَنقُص».

يقصد بهذا أن العمل إيمان، مع أن نفس التصديق الذي يقوله أهل الخلاف في هذا لا يكون متساويًا أبدًا؛ فتصديقُ إنسانٍ لا يعتريه شكٌّ ولا تردُّدٌ ولا ريبٌ، لا يتساوى مع تصديق إنسان لو شُكِّكَ لشَكَّ.

وقد صَرَّحت آيات كثيرة بزيادة الإيمان؛ مثل: قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، وقوله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧]، كلما عملوا وكلما صَدَّقوا بشيء، زاد إيمانهم.

أما النقص فقد جاء عن الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ أنه توقف فيه.

والذي يَزيد يَنقُص بلا شك!

وقد استدل البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب الإيمان بقول الله ﷻ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣] على نقصان الإيمان[(١)]. ووجه ذلك: أنه قبل أن يكون تامًّا كان ناقصًا.

وقد جاءت أحاديث كثيرة في ذلك؛ منها قوله ﷺ: «**لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ**»[(٢)].

وقوله للنساء: «**مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ!**». قُلْنَ: وَمَا نُقْصَانُ دِينِنَا وَعَقْلِنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**أَلَيسَ شَهَادَةُ المَرْأَةِ مِثْلَ نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ؟**» قُلْنَ: بَلَى. قَالَ: «**فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ عَقْلِهَا. أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ وَلَمْ تَصُمْ؟**» قُلْنَ: بَلَى. قَالَ: «**فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ دِينِهَا**»[(٣)].

---

(١) صحيح البخاري (١/ ١٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الحدود، باب لا يشرب الخمر (٨/ ١٥٧) برقم (٦٧٧٢)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس بالمعصية على إرادة نفي كماله (١/ ٧٦) برقم (٥٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم (١/ ٦٨) برقم (٣٠٤)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات، وبيان إطلاق لفظ الكفر على غير الكفر بالله، ككفر النعمة والحقوق (١/ ٨٧) برقم (٨٠) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وليس معنى ذلك أنها تأثم، ولكن من يعمل لا يكون كمن لا يعمل.

أي: أن من كَثُر عملُه كان أكثر إيمانًا من غيره، ولا لوم عليها في هذا ولا إثم في ذلك؛ لأن هذا أمرٌ جعله الله فيها خِلقةً، ومع ذلك قد تكون المرأة أفضل من الرجل؛ لأن الفضل بالتُّقى، فمن كان لله أتقى وله أطوَعَ، فهو أفضل عند الله ﷻ، كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

إن الخلاف في هذه المسألة حاصل بين أهل البدع، أما أهل السُّنَّة فهم متفقون على أن الإيمان يتكون من الأمور الثلاثة المذكورة، وأنه يزيد بالعمل وبالتصديق، ويَنقُص بترك العمل وباقتراف المعاصي؛ ولهذا صرح العلماء بأنه يزيد ويَنقُص، وقالوا: إن إيمان أبي بكر رضي الله عنه يَرجَح بإيمان الأمة كلها. وقد جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ رُؤْيَا**»؟ فَقَالَ رَجُلٌ: أَنَا رَأَيْتُ كَأَنَّ مِيزَانًا نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ فَوُزِنْتَ أَنْتَ وَأَبُو بَكْرٍ، فَرَجَحْتَ أَنْتَ بِأَبِي بَكْرٍ، وَوُزِنَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، فَرَجَحَ أَبُو بَكْرٍ، وَوُزِنَ عُمَرُ وَعُثْمَانُ، فَرَجَحَ عُمَرُ، ثُمَّ رُفِعَ المِيزَانُ. فَرَأَيْنَا الكَرَاهِيَةَ فِي وَجْهِ رَسُولِ اللهِ ﷺ[(١)].

والمقصود بذلك: الإيمانُ.

قوله: «عن عمير بن حبيب، قال: «الإيمانُ يَزيدُ ويَنقصُ، فقيل: وما زيَادتُه وما نُقصَانُه؟ قال: إذا ذَكرنَا اللهَ فحَمِدْنَاه وسبَّحناهُ، فتلك زيادَتُه، وإذا غَفلنَا وضيَّعنا ونسِينَا، فذلكَ نُقصَانُهُ»[(٢)].

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، في كتاب السنة، باب في الخلفاء (٤/ ٢٠٨) برقم (٤٦٣٤)، والترمذي في سننه، في كتاب الرؤيا، باب ما جاء في رؤيا النبي ﷺ الميزان والدلو (٤/ ٥٤٠) برقم (٢٢٨٧) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.
قال الترمذي: هذا حديث حسن.

(٢) السنة لأبي بكر بن الخلال (٤/ ٤٧)، الشريعة للآجري (٢/ ٥٨٣).

وكذلك إذا صلينا، وتصدقنا، وحججنا، وغير ذلك؛ فالعمل يزيد في الإيمان، وترك العمل والمعصية نقصٌ في الإيمان. قال ﷺ: «**لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ**»[١].

ولا يدل هذا على فقدانه الإيمان ولكن نقول: ليس مؤمنًا الإيمانَ الذي يمنعه من اقتراف المعصية، ولو كان عنده الإيمان الكامل لَمَا أقدم عليها؛ لأن الإيمان الكامل الصادق يمنع صاحبه من اقتراف المعاصي، فإذا كان الإيمان ناقصًا فلن يستطيع أن يمنعه، ولكنه لا يرتفع عنه، ولا يكون زناه أو سرقته أو شربه الخمر خروجًا من الدين الإسلامي، فهذا لا يقوله إلا الضُّلَّال من الخوارج ومن سلك مسلكهم كالمعتزلة، أما أهل السُّنَّة فهم برآء من هذا القول، ويرون صاحبه مبتدعًا ضالًّا في ذلك.

وقوله: «سألتُ عشرةً من الفقهاء عن الإيمانِ فقالوا: قول وعمل».

كل أهل السُّنَّة على هذا القول، لكن الأمور التي تُعَيَّن لا بد من تعيين قائلها؛ فيقال: قال فلان، وقال فلان.

والإيمان له ثمرات، وله مقتضيات للزيادة ومقتضيات للنقص؛ فثمرة الإيمان أن يحظى الإنسان بالسعادة في الدنيا والآخرة؛ أما في الدنيا فصاحب الإيمان مطمئنٌّ راضٍ بالله ﷻ، ساكنةٌ نَفْسُه، يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له ﷻ، ويعلم أنه إذا عمل شيئًا من الخير فإنه يُجزى به أفضل الجزاء، وأنه إذا عمل شرًّا استغفر وتاب وأناب إلى ربه ﷻ؛ لأنه يراقب ربه ويعلم أنه يطَّلِع عليه، ويعلم ما في ضميره، وأنه يعبد الله ﷻ خوفًا منه.

والإيمان ـ كما ذكرنا من قبل ـ يتفاوت؛ فقد يصل إلى درجة الإحسان، وقد لا يصل. ولما سُئل الرسول ﷺ عن الإسلام قال:

---

(١) سبق تخريجه.

«**الإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، ﷺ وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**». ثم سُئل عَنِ الإِيمَانِ، فَقَالَ: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**». ثم سُئل عَنِ الإِحْسَانِ فَقَالَ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»(١).

ومعنى هذا: أن المسلم والمؤمن يتفاوتان؛ فمرةً يكون على ظاهر الإسلام، ومرةً يزداد فيحصل عنده اليقين، ومحبة الخير، والرغبة فيه، والارتباط به، والرضا بذلك.

ولهذا تجد المؤمن مطمئنًّا، وتجده في نعيم، وتجد غير المؤمن في شقاء وخوف من كل شيء، حتى لو حِيزَت له الدنيا كلها، فلا يطمئن أبدًا! قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣ ـ ١٤] أي: في نعيم؛ في الدنيا، وفي القبر، وفي الآخرة، أما الفُجَّار فيكونون في جحيمِ الخوفِ والهَلَعِ من آثار المعاصي.

قال الحسن: «إنهم وإن طقطقت بهم البغال، وهملَجَت بهم البراذينُ؛ فإنَّ ذُلَّ المعاصي لا يفارِقُ رقابَهم؛ أبى الله إلا أن يُذِلَّ من عصاه!»(٢).

وبعض الناس يُعرِّفون الإيمانَ بأنه هو التصديق.

نقول: التصديق داخل في الإيمان، ولكن مجرد التصديق لا يكفي أن يكون إيمانًا.

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر وعلامة الساعة (١/٣٦) برقم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) الصارم المسلول على شاتم الرسول (ص٣٠)، والحِكَم الجديرة بالإذاعة من قول النبي ﷺ: بُعِثتُ بالسيف بين يدي الساعة (ص٣١).

❁ [قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «ويعتقدُ أهلُ السُّنَّة أنَّ المُؤمنَ وإنْ أذْنَبَ ذُنُوبًا كثيرةً؛ صَغائِرَ أو كبائر، فإنَّه لا يُكَفَّر بها، وإنْ خَرجَ عن الدُّنيا غيرَ تائبٍ منها، ومات على التَّوحيد والإخلاص، فإنَّ أمْرَهُ إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ إنْ شاء عفا عنهُ وأدخلهُ الجنَّة يومَ القيامَةِ سالمًا غانمًا، غيرَ مبتلًى بالنار، ولا مُعاقَبٍ على ما ارتكَبَه من الذنوب واكتسبه، ثمَّ استصحَبَه إلى يومِ القيامَة من الآثَامِ والأوْزَارِ، وإنْ شاءَ عاقبه وعذَّبهُ مدةً بعذابِ النَّار، وإذا عذَّبه لم يُخلِّدْه فيها، بل أعتقَهُ وأخرجَه منها إلى نَعيمِ دارِ القَرارِ.

وكان شيخنا الإمام أبو الطيب سهل بن محمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «المُؤمنُ المُذْنِبُ وإنْ عذِّبَ بالنَّار، فإنَّه لا يُلقى فيها إلقاءَ الكفَّارِ، ولا يَبقى فيها بقَاءَ الكفَّار، ولا يَشقى فيها شقاءَ الكفَّار».

ومعنى ذلك أنَّ الكَافِرَ يُسحَبُ على وجهِه إلى النَّار، ويُلقى فيها منكوسًا في السَّلاسل والأغْلالِ والأنكَالِ الثِّقالِ.

والمُؤمِنُ المُذنِبُ إذا ابتُلي بِالنَّار فإنَّه يدخلُ النَّار كما يدخلُ المُجرِمُ في الدُّنيَا السِّجنَ على الرِّجلِ من غير إلقاءٍ وتَنكِيسٍ.

ومعنى قوله: «لا يُلقى في النَّار إلقاءَ الكفَّار: أنَّ الكافرَ يُحرَق بدنُه كلُّه؛ كلما نَضِجَ جِلْدُه بُدِّل جِلدًا غيرَه؛ ليَذُوق العذابَ، كما بيَّنه الله في كتابِه؛ في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾ [النساء: ٥٦].

وأما المُؤمنونَ فلا تَلْفَحُ وجُوهَهم النَّارُ، ولا تحرق أعضاءَ السُّجود منهم؛ إذ حرَّم الله على النَّار أعضاء سجوده.

ومعنى قوله: «لا يَبقى في النَّار بقاءَ الكفَّار: أنَّ الكافِرَ يُخلَّد فيها، ولا يخرجُ منها أبدًا، ولا يُخلِّد اللهُ من مُذنِبي المُؤمِنين في النَّار أحدًا.

ومعنى قوله: «ولا يَشقى بالنَّار شَقاء الكفَّار: أنَّ الكفار يَيأسُونَ فيها من رحمةِ الله، ولا يَرجُونَ راحةً بحالٍ.

وأمَّا المؤمنون فلا ينقطِعُ طمعهم من رحمةِ الله في كلِّ حالٍ، وعاقبةُ المُؤْمِنِينَ كلهم الجنَّة؛ لأنَّهم خُلِقوا لها، وخُلِقَت لهم؛ فضلًا من الله ومِنَّة.

الشَّرح

عقيدة أهل السُّنَّة أن المسلم الذي دخل في الإسلام مهما عمل من الذنوب ـ ما لم تكن الذنوب شِركًا، أو منافية للإيمان الذي اعتقد أنه لا يكفر ـ إذا مات على الذنوب مصرًّا عليها؛ فإنه إلى مشيئة الله ﷻ؛ إن شاء عفا عنه بلا عذاب، وإن شاء عذَّبه ثم بعد ذلك إذا أخذ جزاءه يُدخِله الجنة، ولا يبقى في النار خالدًا.

يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

فجَعَل كلَّ ما دون الشرك معلَّقًا بمشيئته ﷻ، فدخل في هذا جميعُ الذنوب ما عدا الشرك.

أما إذا كان قد تاب من ذنوبه، وقَبِلَ اللهُ توبته؛ فإنه لا يناله عذاب؛ لأن العذاب يكون على الذنوب. وإذا دخل في النار فهو ـ فيما يظهر ـ لا يكون مع الكفار في النار، وإنما يكون في أعلاها.

وكل من كان جُرمُه أعظم من الكفار ستكون منزلته أسفل؛ لأن النار دركات بعضها تحت بعض، وكلما نزل من النار فهو أشد عذابًا، والمنافق في الدرك الأسفل منها.

قوله: «فإنَّه يدخلُ النَّار كما يدخلُ المُجرِمُ في الدُّنيَا السِّجنَ على الرِّجلِ..» ما ذكره من أنه لا يدخل دخول الكافرين، فقد أخبر الله ﷻ

عن المجرمين أنه يؤخذ بالنواصي والأقدام ثم يُرمَون فيها، أي: يُمسَك برِجْليه وبرأسه، ثم يرمى فيها رميًا!

أما المسلم الذي اقترف الذنوب التي أوجبت له النار، فإنه يدخلها دخول من يمشي على رجليه؛ لأن الله فاوت بين هؤلاء وهؤلاء، كما أن عذابه لا يكون كعذاب ذلك.

وكل ذلك إلى الله ﷻ، هو الذي يحكم بين عباده.



[قال رَحِمَهُ اللَّهُ]: «واختلفَ أهلُ الحديثِ في تركِ المسلمِ صلاةَ الفَرضِ مُتعمِّدًا؛ فكَفَّره بذلك أحمد بن حنبل، وجماعة من علماءِ السَّلف رحمهم الله، وأخرجوه بِه من الإسلام؛ للخبر الصحيح المرويِّ عن النَّبِي ﷺ أنَّه قال: «بَيْنَ العَبْدِ والشِّركِ تَركُ الصَّلاة، فمَن تَركَ الصَّلاةَ فقد كَفَرَ»(١).

وذَهبَ الشَّافِعي وأصحَابه، وجمَاعَة من علمَاء السَّلف ـ رحمة الله عليهم أجمَعِينَ ـ إلى أنَّه لا يَكفُر ما دامَ مُعتقِدًا لوجُوبِها، وإنَّما يستَوجب القَتل، كمَا يستوجِبُه المُرتَدُّ عن الإسلام.

وتأوَّلوا الخبرَ: «مَنْ تَركَ الصَّلاة جَاحِدًا» كما أخبرَ سبحَانه عن يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنَّه قال: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧]، ولم يكُ تلبَّس بِكُفْرٍ فَارَقَه؛ ولكنْ تَركه جَاحدًا لَهُ.

الشَّرح

حكم تارك الصلاة على مذهب كثير من المحدِّثين وغيرهم: أنه يكون كافرًا؛ لأن الأدلة خاصة في ذلك، كما في قوله ﷺ: «**الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ**»(٢).

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٣٨/ ٢٠) برقم (٢٢٩٣٧)، وأبو داود في سننه، في كتاب السنة، باب في رد الإرجاء (٤/ ٢١٩) برقم (٤٦٧٨)، والترمذي في سننه، في كتاب الإيمان، باب ما جاء في ترك الصلاة (٥/ ١٣) برقم (٢٦٢٠)، والنسائي في سننه، في كتاب الصلاة، باب الحكم في تارك الصلاة (١/ ٢٣٢) برقم (٤٦٤)، وابن ماجه في سننه، في كتاب إقامة الصلاة، والسنة فيها، باب ما جاء فيمن ترك الصلاة (١/ ٣٤٢) برقم (١٠٧٨) من حديث بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة (١/ ٨٨) برقم (٨٢)، ولفظه: «**إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة**» من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) سبق تخريجه.

ويقول ﷺ: «مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ فَقَدْ كَفَرَ»(١).

وإذا جاء الكُفرُ معرَّفًا فيُقصد به الكفر الذي يخرجه من الدين الإسلامي، وأما إذا قال: (كُفْر)، كما قال في حديث: «**اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الميِّتِ**»(٢) فهذا كُفرٌ دون كُفرٍ، ولا يكون كافرًا.

والمسألة فيها خلاف بين العلماء، ولكن هذا فيمن تركها متعمدًا أو تهاونًا وكسلًا مع إقراره بوجوبها، أما الذي يجحد وجوبها فهذا لا يختص بالصلاة فقط؛ فكل من جحد وجوب شيء ثبت عن رسول الله ﷺ، فإنه يكون كافرًا.

فإذا كانت المسألة فيها خلاف، فالواجب التوقف فيها.

وإذا مات مَن هذه صفته، فإنه يصلَّى عليه، ويُدفَن في مقابر المسلمين، وأمرُه إلى الله ﷻ.



---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، في كتاب الإيمان، باب ما جاء في ترك الصلاة (٥/ ١٣) برقم (٢٦٢١)، والنسائي في سننه، في كتاب الصلاة، باب الحكم في تارك الصلاة (١/ ٢٣١) برقم (٤٦٣)، وابن ماجه في سننه، في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء فيمن ترك الصلاة (١/ ٣٤٢) برقم (١٠٧٩) من حديث بريدة رضي الله عنه. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب والنياحة على الميت (١/ ٨٢) برقم (٦٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[قال رحمه الله]: «ومِنْ قولِ أهل السنَّة والجماعة في أكساب العِبَادِ: إنَّها مخلُوقة للهِ تعالى، لا يَمترُونَ فيهِ، ولا يَعُدُّون مِن أهلِ الهُدى ودِينِ الحقِّ من يُنكِرُ هذا القولَ وينفِيه.

ويَشهَدُونَ أنَّ اللهَ تعالى يَهْدِي من يشاء لِدِينِه، ويُضلُّ من يَشاءُ عنه، لا حُجَّة لِمن أضلَّه الله عليه، ولا عُذرَ له لَدَيه؛ قال الله ﷻ: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، وقال ﷻ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ [السجدة: ١٣] الآية، وقال: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] الآية.

فسُبحَانه وتعالى خَلقَ الخَلقَ بِلَا حَاجَةٍ إليهم، فَجَعَلهُم فَرِيقَينِ؛ فَريقًا لِلنَّعِيم فَضلًا، وفريقًا لِلجَحِيم عَدلًا، وَجَعَلَ منهم غَويًّا ورشِيدًا، وشَقِيًّا وسَعِيدًا، وقريبًا من رَحمتِه وبَعِيدًا؛ ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

قال ﷻ: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩ ـ ٣٠].

وقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الأعراف: ٣٧]. قال ابن عبَّاس: «هو ما سبق لهم من السعادة والشقاوة»[١].

أخبرنَا أبو محمد الحسين بن أحمد المخلدي الشيباني رحمه الله، أخبرَنَا أبو العبَّاس محمد بن إسحاق السرَّاج، قال: حدَّثنا يوسف بن موسى، قال: أنبأنا جرير، عن الأعمش، عن زيد بن وهب، عن عبد الله بن مسعود، قال: حدَّثنا رسول الله ﷺ وهو الصَّادق المَصدُوق:

(١) تفسير الطبري (١٥/ ١٥).

«إِنَّ خَلْقَ أَحَدِكُم يُجْمَعُ في بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقةً مثلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثلَ ذلك، ثُمَّ يَبْعَثُ اللّهُ إليهِ المَلَكَ بِأربَعِ كَلِمَاتٍ: رِزْقِهِ، وعَمَلِهِ، وأجَلِهِ، وشَقِيٌّ أو سَعِيدٌ، فوالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إنَّ أحَدَكُم لَيعمَلُ بِعَملِ أهل الجَنةِ حتى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وبَيْنَهَا إلا ذِراع، ثُمَّ يُدرِكُهُ مَا سَبَقَ لهُ في الكِتَابِ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أهل النَّار فَيَدخُلُها، وإنَّ أحَدَكُمْ لَيعْمَلُ بِعَملِ أهل النَّار حتى ما يَكُونُ بَينَهُ وَبينهَا إلَّا ذِراع، ثُمَّ يُدرِكُهُ مَا سَبَقَ لَهُ في الكِتَابِ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أهل الجنَّة فَيَدخُلُها»[1].

وأخبرنا أبو محمد المخلدي، قال: أنبأنا أبو العبَّاس السرَّاج، قال: حدَّثنا إسحاق بن إبراهيم الحنظلي ـ هو ابن راهويه ـ قال: أنبأنا عبد الصمد بن عبد الوارث، قال: حدَّثنا حماد بن سلمة، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها، أنَّ رسول الله قال: **«إنَّ الرجل ليعملُ عملَ أهل الجنَّة وإنه لمكتوبٌ في الكتاب أنه من أهل النَّار! فإذا كان عند موتِهِ تحوَّل فعَمِل بعمل أهل النَّار فمات فدخل النَّار، وإنَّ الرجل ليعمل بعمل أهل النار وإنه لمكتوبٌ في الكتاب أنَّه من أهل الجنَّة! فإذا كان قبل موتِه عَمِل بِعَمَل أهل الجنَّة فمات فدخل الجنَّة»**[2].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته (٤/ ١٣٣) برقم (٣٣٣٢)، ومسلم في صحيحه، في كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه، وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته (٤/ ٢٠٣٦) برقم (٢٦٤٣).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤١/ ٢٧٩) برقم (٢٤٧٦٢).

قال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٧/ ٢١٢): رواه أحمد، وأبو يعلى بأسانيد، وبعض أسانيدهما رجاله رجال الصحيح.

الشَّرح

إن أفعال العباد مخلوقة لله ﷻ، وهذا على خلاف قول القَدَرية من المعتزلة، الذين يقولون: إن الإنسان هو الذي يخلق فعله، وإنه هو الذي يؤمن باختياره، ويَكفُرُ باختياره!

وإن الله ﷻ لا يخلق فعل الإنسان! وهم يرون أن الله إذا قدَّر على العباد المعاصيَ ثم عذَّبهم عليها، يكون ذلك ظلمًا، وهذا لا يجوز.

وكل ما في الأمر أنهم لم يستطيعوا أن يجمعوا بين قدَر الله وبين شرعه؛ لأنهم يستدلون بعقولهم، فإذا دلتهم عقولهم على شيء قالوا به، وإذا لم يستطيعوا ذلك نفوه عن الله ﷻ!

وهم أيضًا يقيسون أفعال رب العالمين على أفعالهم، فهم يقولون: إن الناس بمنزلة من له أولاد فأعطاهم السلاح؛ فمنهم من قاتَلَ الكفار، ومنهم من قاتل المسلمين، بإرادتهم وقوَّتهم وفعلهم. وهذا قول منكر، بل هو مخالف لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ وذلك أن الله ﷻ هو الخالق لكل شيء، وقولهم هذا شِرك في الربوبية؛ لأنهم جعلوا مع الله خالِقِين.

وقد قال عنهم شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنهم لا ينفكُّون عن الشرك.

والجواب عن قولهم هذا أن **نقول**: إن الله خالقهم، ولا أحد ينكر هذا، والفعل الذي يفعلونه يكون بقدرتهم وإرادتهم، فمن كان عنده قدرة وإرادة فلا بد من فِعْل المراد، والقدرة والإرادة مخلوقة لله ﷻ، وليست لهم، وإذا كانت القدرة والإرادة مخلوقة لله ﷻ، فهذا هو معنى خلق الأفعال، أما كونهم لا اختيار لهم فقد قيل: هذا هو الإيمان، وهذا هو الكفر؛ فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر.

وذلك لأن الله ﷻ بيَّن الحق من الباطل، وجعل الأمر إليهم؛ حتى يكون الإنسان مسؤولًا عن فعله، وهو الذي يجازى عليه ويُعَذَّب.

فإذا فعل ذلك باختياره وقدرته التي خلقها الله ﷻ، صح أن يكون الفعل مضافًا إليه، وإن كان أصله مخلوقًا لله ﷻ.

ومعلوم أن الإيمان والكفر يقعان من الإنسان؛ فهُما مثل الأكل، والشرب، والمشي، والجلوس، وغير ذلك. وتقدير الله ﷻ هو علمه بالأشياء وكتابته لها، ثم إنها تقع على وَفْق علمه وكتابته، ولا إشكال ولا تعارُضَ في هذا، وإنما التعارض عند هؤلاء؛ لأنهم جعلوا تقدير الله وكتابته معارِضة لما يزعمون أنها بالأمر والنهي!

ويقولون: إن هذا قد يكون تكليفًا بما لا يُستطاع، فهم يقولون مثلًا: إن الله ﷻ أخبر عن أبي لهب أنه ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد: ٣] وكلَّفه بأن يؤمِن.

نقول: هذا كلام باطل، والله ﷻ أخبر عن عِلمِه أن هذا الرجل يستمر على الكفر، وأنه لا يرضى الإيمان، فيبقى على الكفر مريدًا له، كارهًا للإيمان مبغِضًا له، فيموت على ذلك. وليس معنى ذلك أنه ألزمه بهذا؛ فكتابة الله وتقديره لا تُلزِم العبد بهذا الشيء، وإنما الذي يَلزَمُه هو فعله وعمله الذي يعمله باختياره.

إنهم يستدلون بأن الشرك وقع بمشيئة الله، فيقولون: إذا كان وقع بمشيئة الله، فهو راضٍ به؛ قال الله ﷻ: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

وهذا الكلام باطل، وهو رد للحق الذي يمكنهم قَبوله، ويمكنهم أن يعملوا به، ولكنهم لا يريدون.

وكثير من الناس قد يلتبس عليه هذا الأمر، ولكنه ـ بحمد الله ـ واضح لمن تبصَّر ونظر في ذلك.

وقد يقول بعض الناس كلامًا مجمَلًا، كقولهم: العبد مُسَيَّر أم مخير؟

نقول: هذا الكلام لا يجوز؛ لأنه كلام مجمل، فالعبد ليس مسيرًا ولا مخيرًا، وإنما هو عَبدُ الله ﷻ تعبَّده لطاعته، وأمره بالأمر الذي يستطيعه، ولم يكلِّفْه إلا ما يستطيعه، بل أقلَّ من الاستطاعة، فهو تجري عليه أحكام الله ﷻ وأقداره بلا شك، ولكنه لم يُرغَم على شيء أُمِر به، وإنما بُيِّنَ له طريق الهدى من طريق الضلال، وقيل له: هذا الخير، بإمكانك أن تفعله. وحُضَّ على ذلك، وأُمِر به، ووُعِد عليه الجزاء والفضل، وتُوُعِّدَ على فعل الكفر والمعاصي؛ فإن اختار المعصية وأعرض عن طريق الهدى، فمعنى ذلك أنه فعل ذلك باختياره؛ ولهذا استحق العذاب، فليس للخلق على الله حُجَّة.

قوله: «عن عبد الله بن مسعود، قال: حدَّثنا رسول الله ﷺ وهو الصَّادق المَصدُوق: «إِنَّ خَلْقَ أَحَدِكُم يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً...» يقول العلماء عن هذا الحديث: إنه أصل في دين الإسلام؛ لأن فيه: «إن أحَدكُم لَيعمَلُ بِعَمَلِ أهل الجَنةِ حتى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وبَيْنَهَا إلا ذِراع، ثُمَّ يُدرِكُهُ مَا سَبَقَ لهُ في الكِتَابِ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أهل النَّار فَيَدخُلُها»[1]، فهو لا يدخل النار إلا بعمل يعمله، وكذلك الجنة يدخلها بسبب العمل الذي يعمله.

أما القَدَر فهو علم الله فيه أنه سيعمل هذا الشيء بإرادته وقدرته واختياره، فكتب الله ﷻ ذلك.

فإذا قال مثلًا: قد كُتِبَ عليَّ كذا. **نقول:** وما يدريك؟ ولكنك تريد هذا الشيء، وتريد أن تجعل اللوم على الكتابة وعلى القَدَر، وهذا تعليل باطل، كتعليل الشيطان لما قال: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ [الأعراف: ١٦]، وهو الذي اختار الغواية بنفسه!

---

(١) سبق تخريجه.

فهذه المسألة لا يزال فيها إشكال عند كثير من الناس، ومثل ذلك الحديث الذي بعده: «**إنَّ الرجل ليعملُ عمَلَ أهل الجنَّة وإنه لمكتوبٌ في الكتاب أنه من أهل النَّار!...**».



ﷺ [قال رَحِمَهُ اللهُ]: «ويَشهدُ أهلُ السُّنَّة ويَعتقِدُونَ أنَّ الخيرَ والشَّرَّ، والنَّفعَ والضُّر، والحلو والمر؛ بِقضَاءِ الله تعالى وقَدَرِهِ، لا مَرَدَّ لهُمَا، ولا مَحِيصَ ولا مَحِيدَ عنهُما، ولا يُصيبُ المَرءَ إلا مَا كتبهُ لهُ ربُّه، ولو جَهَدَ الخَلقُ أنْ يَنفعُوا المرءَ بما لم يكتُبْهُ اللّهُ لهُ، لم يقدِرُوا عليه، ولو جَهَدُوا أن يضرُّوه بما لم يقضِه الله، لم يقدِروا، على ما وَردَ بهِ خبرُ عبد الله بن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عن النَّبِي ﷺ(١).

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧] الآية.

ومِنْ مَذْهَبِ أهل السُّنَّة وطرِيقَتهم، مع قولهم بأنَّ الخيرَ والشر من الله وبقَضَائه: أنَّه لا يُضافُ إلى الله تعالى ما يُتوهَّم منه نقصٌ على الانفراد، فلا يُقال: يا خَالِقَ القِرَدةِ والخَنَازِير، والخنافِس والجُعْلانِ، وإنْ كانَ لا مَخلوقَ إلا والرَّبُّ خَالِقُه، وفي ذلكَ وردَ قولُ رسول الله ﷺ في دُعاءِ الاستِفتَاحِ: «تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، وَالخَيْرُ في يَدَيْكَ، والشَّرُّ ليسَ إليْكَ»(٢).

ومعناهُ ـ واللّهُ أعلمُ ـ: والشر ليس ممَّا يُضافُ إليكَ إفرادًا

---

(١) إشارة إلى ما أخرجه الترمذي في سننه، في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، باب (٤/٦٦٧) برقم (٢٥١٦) من حديث عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال له: «يَا غُلَامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ؛ احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ».

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه (١/ ٥٣٤) برقم (٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وقَصْدًا، حتى يُقالَ لكَ في المُنادَاةِ: يا خَالِقَ الشَّر، ويا مُقدِّر الشر، وإنْ كانَ هو الخَالِقَ والمقدِّرَ لهمَا جميعًا؛ ولذلكَ أضافَ الخَضِرُ عليه السلام إرادَةَ العَيبِ إلى نَفْسِه، فقال فيما أخبرَ الله تعالى عنهُ في قوله: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]، ولمَّا ذكَرَ الخَيرَ والبِرَّ والرَّحمةَ، أضافَ إرادتَها إلى اللهِ عز وجل، فقال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢].

ولذَلِكَ قال مُخبرًا عن إبراهيم عليه السلام أنَّه قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]، فَأَضَافَ المَرضَ إلى نَفْسِه، والشِّفاءَ إلى ربِّه، وإنْ كانَ الجَمِيعُ مِنهُ جل جلاله.

الشَّرح

من الأدب مع الله جل وعلا أنه لا يضاف إليه الشر، ولا يضاف إليه ما يكون فيه تنقص أو ما أشبه ذلك، ومن ذلك المخلوقاتُ التي قد يكون فيها تنقص أو ازدراء، مع أنه إذا قيل: إن الله خالق كل شيء، دخل فيه كل شيء، ومن ذلك الشر.

أما الخير فهو يضاف إلى الله جل وعلا؛ ولهذا قال مؤمن الجن لما جاؤوا مؤمنين: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]، فلما جاء الخير أضافوه الى الله ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾، أما الشر فقد حذفوا مفعوله، وهكذا يأتي في القرآن على **أوجه**:

إما أن يحذف مفعوله: كما في هذه الآية ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾.

أو يضاف إلى المخلوق: فيقال ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ٢]، والشر يضاف إلى المخلوق؛ لأن الشر لا يصدر من الله جل وعلا؛ **فكُلُّ فِعلِ اللهِ** خير، وكلُّ ما صدر من الله خير.

ولكن الشر يكون من المخلوق، ويكون الجزاء عدلًا من الله؛ فهو من الله خير وعدل يُحمَد عليه.

وقد قال الله ﷻ عندما ذكر القضاء الفصل بين خلقه عمومًا: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، إلى أن قال: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]، فجاء بلفظة «**وَقِيلَ**» التي تعم كل المخلوقات؛ فمعنى ذلك أنه حُمِد على جزائه وعلى تعذيبه الكفَّار، وهو يُحمَد على ذلك؛ لأن كل فعله خير.

أو يكون داخلًا في عموم الأشياء؛ يقول ﷻ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ﴾ [الزمر: ٦٢].

أما إضافته إلى رب العالمين، فهذا من سوء الأدب، وإن كان هو الخالق لكل شيء ﷻ، ولا يخلو خَلْقُه من حكمة، حتى الأمور التي قد يَصعُب على بعض الناس معرفتها؛ مثل: الحيات والعقارب وما أشبه ذلك؛ لأنها مُضِرَّة، فلماذا خُلِقت؟ قيل: إنها نموذج للعذاب الذي وعد الله ﷻ به الكافرين؛ حتى يكون الشيء مشاهَدًا، فيكون في ذلك زجر وموعظة لمن يتَّعظ.



[قال رَحِمَهُ اللَّهُ]: «وكذلك مِنْ مذهَبِ أهل السنَّة والجَمَاعةِ أنَّ اللَّه عَزَّوَجَلَّ مريدٌ لِجَمِيعِ أعمالِ العِبَادِ؛ خَيرِها وشَرِّها، ولم يُؤمِنْ أحدٌ إلا بِمَشِيئَتِهِ، ولمْ يَكْفُرْ أحدٌ إلا بِمَشِيئَتِهِ، ولو شاءَ لجعلَ الناس أُمةً واحدةً، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]، ولو شاءَ أنْ لا يُعصَى مَا خَلَقَ إبليس، فَكُفرُ الكَافِرِينَ، وإيمانُ المؤمنينَ، وإلحاد المُلحِدين، وتوحيد الموحِّدين، وطاعة المُطِيعين، ومعصية العاصين: كلها بِقَضائِه تَعَالَى وقَدَرِه، وإرَادَتِه ومَشِيئَتِه، أرَادَ كل ذلكَ وشاءَه وقَضَاهُ، ويَرضَى الإيمَانَ والطَّاعةَ، ويَسخَط الكُفرَ والمعصِيةَ، ولا يَرضَاها؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

الشَّرح

إن مشيئةَ الله جَلَّ وَعَلَا عامة لكل شيء، وإذا شاء شيئًا وُجِد؛ فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩].

ولكِنَّ الله جَلَّ وَعَلَا أراد للخلق أن تتبيَّن حكمتُه، فلولا أنه يوجَد كفارٌ ويوجَد شيطان وغيره، ما وُجِد الجهاد في سبيل الله، ولما وُجِدت المعاداة للكافرين، وهذا يتوقف على ذلك.

إن الخلق كله مِلْك الله جَلَّ وَعَلَا يتصرف فيهم كيف يشاء، ولكن يجب أن نعلم أن كل ما يفعله الله له حكمة بالغة، سواء عرفنا الحكمة أو لم نعرف، وكثيرًا ما يشير جَلَّ وَعَلَا إلى ما فيه حكمة لخلقه؛ فالمشيئة لا يختلف مرادها، ولكن قد تأتي بلفظ القدرة، أو قد يجمع بينهما؛ قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وتنقسم الإرادة إلى قسمين:

القسم الأول: إرادة دينية خاصة بأهل الإسلام؛ لأنها تتعلق بالأحكام.

القسم الثاني: إرادة كونية قَدَرية، هي المشيئة نفسها.

فالإرادة الدينية لا يلزم أن يوجَد مرادها الذي يتعلق بها؛ لأنه ﷻ أمر العباد كلهم بالطاعة واتباع الرسل، ولكِنَّ أكثرهم أبى ولم يُطِعْ؛ فالذين أطاعوا اتفقت معهم الإرادة الكونية والإرادة الدينية؛ لأنه يريد ذلك دِينًا، وأراده ممن دخل فيه كَونًا، فاتفقت الإرادتان في الطائع.

أما العاصي فوُجِدت الإرادة الكونية، وتخلَّفت الإرادة الدينية؛ يقول الله ﷻ لما أخبر بشرعية الصوم: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ويقول ﷻ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، فهذا يتعلق بالحكم ويتعلق بأمره الديني الشرعي؛ فمن فعله فقد اتفقت في حقه الإرادتان، أما الذي يأباه ولا يفعله، فتنفرد في حقه الإرادة الكونية، وهي المشيئة.

إن الله هو الخالق لكل شيء، وهو المدبِّر لكل شيء، وما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن؛ قال الله ﷻ: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧] أي: لا يرضاه دينًا ولا أمرًا.

ولا يلزم أنه إذا قَدَّر عليهم الكفر أن يكون راضيًا به، وهذا الأمر يوجد حتى في الإنسان المخلوق الضعيف؛ فإنه قد يفعل شيئًا وهو يكرهه ولا يريده، ولكن يفعله لما يترتب عليه من المصالح، فيُقدِم على عملية جراحية وهو كاره لها؛ لأن الشفاء يترتب عليها.

وقد جعل الله ﷻ الأمر الذي يأمر به العبادَ سهلًا ميسورًا، ولكن

قد يَصعُب على كثير من الناس، فلا يرضاه ولا يريده؛ لما في نفسه من الأمور التي تمنعه من ذلك.

والآن الناسُ يشاهدون كيف يكون الحق واضحًا وجليًّا، ثم تجد من عنده عقل وفكر ونظر واستدلال يجانبه ويكرهه مع وضوحه! لأن الله ﷻ لم يَهْدِه. قد يقول قائل: لماذا؟

فنقول: إن الهداية فَضْلُه، فهو لم يظلم أحدًا؛ فقد أعطى العبد القدرة والاختيار، وبَيَّن له أنَّ فِعلَ الطاعة يترتب عليه الخير، وفعل المعصية يترتب عليه الشر، وقال: الأمر إليك؛ إن شئت فآمِن؛ فلك الجزاء، وإن شئت فاكفُرْ؛ فعليك العذاب. فهو إلى ما يختار.

أما الهداية فهي فضل الله ﷻ؛ من تفضل عليه هدى قلبه.

وتنقسم الهداية إلى قسمين:

القسم الأول: هداية بمعنى الدلالة والإرشاد، كما قال الله ﷻ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

القسم الثاني: هداية بمعنى: خَلْق الهدى في القلب، وهذه إلى الله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

نقول: إن الله ﷻ يهدي من يشاء؛ فضلًا منه وكرمًا وإحسانًا، ويمنع الهداية ـ التي هي فضله ـ عمن يشاء، فإذا مُنِعَت فلا بد أنه يَضِلُّ بفكره، ونظره، وفعله.



﴿ [قال رَحِمَهُ اللَّهُ]: «ويَعتقِدُ ويَشهَدُ أصحَابُ الحَدِيثِ أنَّ عَواقِبَ العِبَادِ مُبهَمَةٌ؛ لا يَدْرِي أحدٌ بمَا يُختَمُ لَه، لا يَحكُمُونَ لِوَاحدٍ بِعَيْنِهِ أنَّه من أهل الجنَّة، ولا يَحكُمُونَ على أحدٍ بِعَيْنِهِ أنَّه من أهل النَّار؛ لأنَّ ذلك مُغيَّبٌ عنهم؛ لا يَعرِفُونَ على ما يَموتُ عليه الإنسَان، أعلى الإسلام أم على الكُفر؛ ولِذلكَ يَقولونَ: إنَّا مُؤمِنُونَ إنْ شاءَ الله، أي: من المؤمنين الذين يُختَم لهم بِخير إن شَاءَ الله.

ويَشهَدُونَ لمِن مَاتَ على الإسلام أنَّ عَاقِبَتَه الجنَّة؛ فإنَّ الذينَ سَبَقَ القَضَاء عليهم من الله أنَّهم يُعذَّبون بالنَّار مُدةً لذُنُوبِهم التي اكتَسَبُوها، ولم يَتُوبُوا منهَا، فإنَّهم يُرَدُّون أخِيرًا إلى الجنَّة، ولا يَبقَى أحدٌ في النَّار من المسلمين؛ فَضْلًا من اللهِ ومِنَّةً.

ومن مَاتَ ـ والعِيَاذُ بِالله ـ على الكُفْرِ فَمَردُّه إلى النَّار، لا يَنجُو منهَا، ولا يَكون لمُقَامِهِ فِيهَا مُنْتَهى».

الشَّرح

إن عواقب العباد بعد هذه الحياة إلى الله، لا يعلم أحد ذلك، ولكن الله جل وعلا جعل علامات يكون بها الرجاء؛ فمن مات على الإسلام فلا نشك أن عاقبته إلى الجنة، ولكن نخاف أن يصاب بشيء من العذاب في القبر، أو بعد البعث، أو في الموقف، أو في النار. ولكن من الأمور المعلومة بالشرع أن الله جل وعلا جعل عقابًا يكون جزاءً للسيئات التي يفعلها في الدنيا وغيرها؛ قال جل وعلا: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠]، فالمصائب التي تصيب الإنسان إما أن يُكفَّر عنه، أو يؤجَر عليها.

والأمور التي تكفِّر الذنوب أو تزيد في الدرجات متعددة وكثيرة؛

فمنها المصائب، والاستغفار، والتوبة، والحسنات، وغير ذلك. فإذا أذنب الإنسان ذنبًا فقد يُكَفَّر هذا الذنب بشيء من هذه الأمور، فإن لم تفِ هذه بتكفير ذنوبه، فقد يُعَذَّب في القبر ويُكَفَّر عنه بعذابه في القبر، ثم بعد ذلك يُرفَع عنه العذاب ويكون ناجيًا في محشَرِه وفي مستقبله.

إن العواقب التي تستقبل الإنسان إنما هي إلى الله، ولكن ربنا ﷻ أخبرنا على لسان رسوله ﷺ بأن المؤمن - وإن أصيب بمصائب وفعل السيئات - عاقبتُه خيرٌ.

قوله: «لا يَحكُمُونَ لِوَاحدٍ بِعَيْنِهِ أَنَّه من أهل الجنَّة، ولا يَحكُمُونَ على أحدٍ بِعَيْنِهِ أَنَّه من أهل النَّار» لا يجوز أن نشهد لأحد يصلي ويستقبل القبلة ويكون مع المسلمين، بأنه في النار ولا في الجنة.

ولكن نقول: نرجو لأهل الخير أن يمُنَّ عليهم الله ﷻ ويُسَلِّمَهم من كل عذاب، ونخاف على أهل المعاصي أن يعاقَبوا.

وعقاب الله ﷻ إذا وقع على من هو مُسلِم، فإن عاقبته العفو والنجاة، ويكون في الجنة، كما ذكرنا من قبل.

أما الشهادة لإنسان بعينه فلا يُشهَد إلا لمن شهد له الله أو رسوله ﷺ؛ فلهذا جاء التعيين: فلان في الجنة، وفلان في الجنة. وقد شهد الرسول ﷺ لجماعة من الصحابة؛ مثل: المبشَّرين بالجنة العشرة؛ الخلفاء الراشدين، والزبير، وطلحة، وعبد الرحمن بن عوف، وأبي عبيدة بن الجراح، وسعد، وسعيد[1].

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، في كتاب السنة، باب في الخلفاء (٤/ ٢١٢) برقم (٤٦٥٠)، والترمذي في سننه، في كتاب المناقب، باب مناقب عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف الزهري رضي الله عنه (٥/ ٦٤٨) برقم (٣٧٤٨)، وابن ماجه في سننه، في كتاب الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ (١/ ٤٨) برقم (١٣٣).

وكذلك غيرهم؛ مثل: عبد الله بن سلَام[(١)]، والحسن والحسين[(٢)]، وثابت بن قيس بن شَمَّاس[(٣)].

بل قال: «**لَيَدْخُلَنَّ الجَنَّةَ مَنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ إِلَّا صَاحِبَ الجَمَلِ الأَحْمَرِ**»[(٤)]، وقال: «**لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ مِمَّنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ**»[(٥)] وكان الذين بايعوا رسول الله ﷺ ألفًا وأربعَمائة.

وكذلك أهل بدر[(٦)].

يقول ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الصحابة كلهم في الجنة بشهادة الله ﷻ،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب مناقب الأنصار، باب مناقب عبد الله بن سلام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ (٥/ ٣٧) برقم (٣٨١٢)، ومسلم في صحيحه، في كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل عبد الله بن سلام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ (٤/ ١٩٣٠) برقم (٢٤٨٣) من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، في كتاب المناقب، باب مناقب أبي محمد الحسن بن علي بن أبي طالب والحسين بن علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا (٥/ ٦٥٦) برقم (٣٧٦٨) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب تفسير القرآن، باب ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢] الآية (٦/ ١٣٧) برقم (٤٨٤٦)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب مخافة المؤمن أن يحبط عمله (١/ ١١٠) برقم (١١٩) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، في كتاب المناقب، باب فيمن سب أصحاب النبي ﷺ (٦/ ١٧٩) برقم (٣٨٦٣) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال الترمذي: هذا حديث غريب.

(٥) أخرجه الترمذي في سننه، في كتاب المناقب، باب في فضل من بايع تحت الشجرة (٥/ ٦٩٥) برقم (٣٨٦٠) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٦) إشارة إلى ما أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل أهل بدر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وقصة حاطب بن أبي بلتعة (٤/ ١٩٤٢) برقم (٢٤٩٥) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن غلام حاطب بن أبي بلتعة جاء إلى النبي يشكوه، قال: يا رسول الله، والله ليدخلن حاطب النار. فقال النبي ﷺ: «**كَذَبْتَ، لَا يَدْخُلُهَا؛ فَإِنَّهُ شَهِدَ بَدْرًا وَالْحُدَيْبِيَةَ**».

وشهادةُ الله ﷻ: أنه رضي عنهم، وهذا في آيات متعددة»[١].

أما الشهادة بالنار فهذه تكون لمن مات كافرًا؛ لأن الله أخبرنا بأنه حرَّم الجنة على الكافرين، أما الاحتمالات التي تقع، فيكون الأمر فيها إلى الله ﷻ.



(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٤/٩٦ ـ ١٠٤).

ﷺ [قال رَحِمَهُ اللَّهُ]: «فأمَّا الذِينَ شَهِدَ لهم رسولُ الله ﷺ من أصحَابه بأعيَانهِم بأنَّهم من أهل الجنَّة، فإنَّ أصْحَابَ الحَديثِ يَشهَدُون لهم بِذَلكَ؛ تَصديقًا منهم لِلرسُولِ ﷺ فيما ذَكَره وَوَعدَهُ لهم؛ فإنَّه ﷺ لم يَشهَد لهم بِها إلَّا بعدَ أنْ عَرَفَ ذلكَ، واللَّهُ تعالى أطْلَعَ رسُولَه ﷺ على ما شاءَ من غَيْبِهِ، وبيانُ ذلكَ في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٧].

وقد بَشَّر ﷺ عشرةً من أصْحَابه بالجنَّة، وهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزُّبير، وعبد الرَّحمن بن عوف، وسعد، وسعيد، وأبو عُبيدة بن الجرَّاح[1].

وكذلك قال لثابت بن قَيسِ بن شَمَّاسٍ: «إنَّهُ من أهل الجنَّة». قال أنس بن مالك: فلقد كانَ يَمْشِي بين أظهُرِنَا، ونحن نقولُ: إنَّه من أهل الجنَّة[2]!

الشَّرح

ثابت بن قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، هو خطيب رسول الله ﷺ، وكان جَهْوَرِيَّ الصوت، فلما نزل قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢] «جَلَسَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ فِي بَيْتِهِ، وَقَالَ: أَنَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَاحْتَبَسَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فَسَأَلَ النَّبِيُّ ﷺ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ، فَقَالَ: **«يَا أَبَا عَمْرٍو، مَا شَأْنُ ثَابِتٍ؟ اشْتَكَى؟»** قَالَ سَعْدٌ: إِنَّهُ لَجَارِي، وَمَا

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

عَلِمْتُ لَهُ بِشَكْوَى، قَالَ: فَأَتَاهُ سَعْدٌ، فَذَكَرَ لَهُ قَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ ثَابِتٌ: أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ، وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي مِنْ أَرْفَعِكُمْ صَوْتًا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَأَنَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَذَكَرَ ذَلِكَ سَعْدٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**بَلْ هُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ**»(١)، قَالَ أَنَسٌ: «وَكُنَّا نَرَاهُ يَمْشِي بَيْنَ أَظْهُرِنَا، وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْيَمَامَةِ كَانَ فِينَا بَعْضُ الِانْكِشَافِ، فَجَاءَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ، وَقَدْ تَحَنَّطَ وَلَبِسَ كَفَنَهُ، فَقَالَ: بِئْسَمَا تُعَوِّدُونَ أَقْرَانَكُمْ! فَقَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ»(٢)

ومثل ذلك عبد الله بن سلام رضي الله عنه، وغيرهم ممن أخبر عنهم الرسول ﷺ بأعيانهم أنهم في الجنة.



(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان باب مخافة المؤمن أن يحبط عمله (١/ ١١١) برقم (١١٩).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (١٩/ ٣٩١) ط الرسالة.

۞ [قال رَحِمَهُ اللهُ]: «ويَشهَدُونَ ويَعْتَقِدُونَ أنَّ أفضَل أصْحَابِ رسُولِ اللهِ ﷺ: أبو بكر، ثُمَّ عمر، ثُمَّ عثمان، ثُمَّ علي، وأنَّهم الخُلفَاء الرَّاشدون، الذين ذَكَرَ النَّبِي ﷺ خِلَافتهم بِقَولهِ فيمَا رواهُ سعيد بن جمهان، عن سَفِينَة «الخِلَافَةُ بَعْدِي ثَلَاثُونَ سَنَةً»[١]، ثُمَّ قال: «أمْسِكْ خلافةَ أبي بكر سَنَتَيْن، وعُمر عَشْرًا، وعُثْمَان ثنتي عَشْرَة، وعَلِيٍّ سِتًّا»، وبَعدَ انْقِضَاءِ أيَّامهم عَادَ الأمْرُ إلى المُلْكِ العَضُوضِ، على مَا أخبَرَ عَنْهُ الرَّسُولُ».

الشَّرح

أما الشهادة لهؤلاء بالفضل، ففضل الخلفاء على ترتيبهم في الخلافة، وإن كان وقع في أول الأمر خلاف بين أهل الإيمان بين علي وعثمان رضي الله عنهما: أيهما أفضل، ولكن استقر الأمر فيما بعدُ على أن عثمان رضي الله عنه أفضل؛ قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: «كُلُّ مَنْ قَدَّمَ عَلِيًّا عَلَى عُثْمَانَ فَقَدْ أَزْرَى بِالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ»[٢]؛ لأنهم اتفقوا على مبايعته على هذا؛ وذلك لفضله.

أما المفاضلة؛ فهي ليست من مسائل التضليل والبِدَع، ولو قال إنسان مثلًا: عليٌّ رضي الله عنه أفضل من عثمان رضي الله عنه.

نقول: قد قال بهذا من قال به من أهل السُّنَّة، ولكن هذا خلاف الصواب، وليس هذا ضلالًا، ولكن من قدَّمه في الخلافة فهو ضال؛ لأن هذا خلاف ما أجمع عليه الصحابةُ وعامَّةُ المسلمين.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، في كتاب السنة، باب في الخلفاء (٤/ ٢١١) برقم (٤٦٤٦)، والترمذي في سننه، في كتاب الفتن، باب ما جاء في الخلافة (٤/ ٥٠٣) برقم (٢٢٢٦)، وقال: هذا حديث حسن.

(٢) السنة لأبي بكر بن الخلال (٢/ ٣٩١) برقم (٥٥٨).

إن هؤلاء الأربعة هم خلفاء الرسول ﷺ، ويضاف إليهم الحسن بن علي رضي الله عنه؛ لأن مدته التي كانت ستة أشهر كمَّلت الثلاثين سنة، وبعد ذلك صار مُلكًا، وأفضل الملوك معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، ثم بعد ذلك اشتد الأمر وصار كما يقول: «**وبَعدَ انْقِضَاءِ أيَّامهم عَادَ الأمْرُ إلى المُلْكِ العَضُوضِ، على مَا أخبرَ عَنْهُ الرَّسُولُ**» مُلكًا عضوضًا، وكلما جاء زمن فهو أشر مما قبله، كما في حديث الزبير بن عدي، قال: أَتَيْنَا أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ، فَشَكَوْنَا إِلَيْهِ مَا نَلْقَى مِنَ الحَجَّاجِ، فَقَالَ: «**اصْبِرُوا؛ فَإِنَّهُ لَا يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إِلَّا الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ، حَتَّى تَلْقَوْا رَبَّكُمْ**». سَمِعْتُهُ مِنْ نَبِيِّكُمْ ﷺ[1].

والشر لا يكون للزَّمَن، وإنما يكون للناس الذين هم في الزَّمَن.



(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الفتن، باب: لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه (٩/ ٤٩) برقم (٧٠٦٨).

﴿ [قال رَحِمَهُ اللَّهُ]: «ويُثْبِتُ أصحَابُ الحَدِيثِ خِلافَةَ أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَعْدَ وفَاة رسولِ الله ﷺ، بِاختِيَارِ الصَّحابةِ واتِّفاقهم عليه، وقولهم قاطبةً: «رَضِيَهُ رسولُ الله ﷺ لِدِينِنَا؛ فَرَضِينَاهُ لِدُنيَانَا»[١].

يعني: أنَّه استخلفه في إقامة الصَّلَوات المفروضات بالنَّاس أيام مرضه، وهي الدِّين؛ فرضيناه خليفةً للرسول ﷺ علينا في أمور دُنيانا.

وقولهم: قدَّمك رسول الله ﷺ، فمن ذا الذي يُؤخِّرُك، وأرادُوا أنَّه ﷺ قدَّمك في الصلاة بنا أيَّامَ مرضه، فصَلَّينَا وراءك بِأمْرِه، فمن ذا الذي يُؤخِّرُك بعدَ تَقدِيمِه إيَّاك؟

وكانَ رسولُ الله ﷺ يتكلَّم في شأنِ أبي بكر في حال حياته بما يبَيِّن للصحَابة أنَّه أحقُّ النَّاس بالخِلافة بعده؛ فلذلك اتفقُوا عليه واجتمَعوا؛ فانتفَعُوا بِمكَانه واللهِ، وارتفعُوا به وعزُّوا وعَلَوا وارتَقَوا، حتَّى قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: واللهِ الذي لا إله إلا هو، لولا أنَّ أبا بكر استُخلِف لَمَا عُبِدَ اللّهُ، ولمَّا قيل له: مَهْ يا أبا هريرة! أقام بِحُجَّةٍ صحَّةَ قولِه؛ فصدَّقوه فيهِ وأقرُّوا به[٢].

ثُمَّ خِلافَة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضَاه، بِاستِخْلَافِ أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إياه، واتفاقِ الصَّحابة عليه بعده، وإنجَاز الله سبحانه ـ بِمَكَانه في إعلَاءِ الإسلام، وإعظامِ شأنِه ـ وَعْدَه.

ثُمَّ خِلَافة عُثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بإجمَاعِ أهل الشُّورى، وإجمَاع الأصحَاب كافةً، ورضَاهم به، حتَّى جُعل الأمْرُ إليه.

ثُمَّ خِلافَة علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِبيعَة الصَّحابة إيَّاه، عَرَفَه ورآه كل منهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم

---

(١) الاعتقاد الخالص من الشك والانتقاد (ص: ٢٧١).
(٢) الاعتقاد الخالص من الشك والانتقاد (ص: ٢٧٣).

أحقَّ الخَلْقِ وأوْلاهم في ذلكَ الوَقتِ بالخِلافَة، ولم يَسْتَجِيزُوا عِصيانَه وخِلافَه.

فَكَانَ هؤُلاء الأربعَةُ الخُلَفاءَ الرَّاشِدين، الذين نَصرَ اللهُ بهم الدِّين، وقَهرَ وقَسرَ بِمَكَانهم المُلحِدِين، وقوّى بمكانهم الإسلام، ورفَع في أيَّامهم لِلحقِّ الأعلام، ونوَّر بضِيَائهم ونُورِهم وبَهائِهم الظَّلام، وحقَّق بِخِلافَتهم وعْدَه السَّابقَ في قولِه ﷻ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥] الآية.

وفي قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، إلى قوله: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾، فمن أحبهُم وتَولاهُم، ودعَا لهم، ورعَى حقَّهم، وَعَرَفَ فضْلَهم؛ فَازَ في الفَائِزين، ومن أبْغَضَهم وسبَّهم، ونَسَبَهم إلى ما تَنسُبُهم الرَّوافضُ والخَوارِجُ - لَعَنَهُم اللهُ -؛ فقد هَلَكَ في الهَالِكين.

قال رسول الله ﷺ: «**لا تَسُبُّوا أَصحَابِي؛ فَمَنْ سَبَّهُمْ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ**»[1].

وقال: «**مَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ، وَمَنْ آذاهُمْ فَقَدْ آذانِي، وَمَنْ سَبَّهُمْ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ**»[2]

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب أصحاب النبي ﷺ (٥/٨) برقم (٣٦٧٣)، ومسلم في صحيحه، في كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب تحريم سب الصحابة ﭫ (٤/١٩٦٧) برقم (٢٥٤١) من حديث أبي سعيد الخدري ﭬ.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، في كتاب المناقب، باب فيمن سب أصحاب النبي ﷺ (٥/٦٩٦) برقم (٣٨٦٢) من حديث عبد الله بن مغفل ﭬ.

الشرح

في هذا بيان فضلِ الصحابة، وفضلُ الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ ظاهر في كتاب الله جَلَّ وَعَلَا، وفي سنة رسوله ﷺ، وأفضلهم على الإطلاق أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد اخُتِلف في خلافته: هل هي بالنص، أو بالإشارة، أو بالاختيار؟

من أهل السُّنَّة من قال هذا، ومنهم من قال هذا، ولكلٍّ دليل استدل به.

وقد أراد الرسول ﷺ أن يكتب كتابًا له حتى لا يتمنى متمنٍّ ولا يقول قائل، ثم عدل عن ذلك، ورأى أن اختيارهم إياه بأنفسهم أبلغ من الكتابة، فترك هذا؛ ولهذا قدَّمه للصلاة في مرضه.

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: لَمَّا ثَقُلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، جَاءَ بِلَالٌ يُؤْذِنُهُ بِالصَّلَاةِ. فَقَالَ: «**مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ**». قَالَتْ: فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ أَسِيفٌ، وَإِنَّهُ مَتَى يَقُمْ مَقَامَكَ لَا يُسْمِعِ النَّاسَ، فَلَوْ أَمَرْتَ عُمَرَ، فَقَالَ: «**مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ**»، قَالَتْ: فَقُلْتُ لِحَفْصَةَ قُولِي لَهُ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ أَسِيفٌ، وَإِنَّهُ مَتَى يَقُمْ مَقَامَكَ لَا يُسْمِعِ النَّاسَ، فَلَوْ أَمَرْتَ عُمَرَ، فَقَالَتْ لَهُ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّكُنَّ لَأَنْتُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ!**» مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ، قَالَتْ: فَأَمَرُوا أَبَا بَكْرٍ يُصَلِّي بِالنَّاسِ، قَالَتْ: فَلَمَّا دَخَلَ فِي الصَّلَاةِ وَجَدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ نَفْسِهِ خِفَّةً، فَقَامَ يُهَادَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ، وَرِجْلَاهُ تَخُطَّانِ فِي الْأَرْضِ، قَالَتْ: فَلَمَّا دَخَلَ الْمَسْجِدَ سَمِعَ أَبُو بَكْرٍ حِسَّهُ، ذَهَبَ يَتَأَخَّرُ، فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ: قُمْ مَكَانَكَ، فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى جَلَسَ عَنْ يَسَارِ أَبِي بَكْرٍ. قَالَتْ: فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي بِالنَّاسِ جَالِسًا، وَأَبُو بَكْرٍ

قَائِمًا، يَقْتَدِي أَبُو بَكْرٍ بِصَلَاةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَيَقْتَدِي النَّاسُ بِصَلَاةِ أَبِي بَكْرٍ»(١).

فبَقِيَ يصلِّي طوال مرضه صلوات ربي وسلامه عليه.

أما قول أهل الباطل: إنه عيَّنه في جيش أسامة هو وعمر، وأنه خرج من ذلك وعصى؛ فمن الكَذِب والزُّورِ والبُهْتِ، وهم أصحاب البُهْتِ والكَذِبِ!

إن من أهل السُّنَّة من يقول: إنه بالنص لمثل هذا، ومثل تلك الرؤيا التي رأى؛ حيث قال ﷺ: «**بَيْنَمَا أَنَا عَلَى بِئْرٍ أَنْزِعُ مِنْهَا، جَاءَنِي أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ الدَّلْوَ فَنَزَعَ ذَنُوبًا أَوْ ذَنُوبَيْنِ، وَفِي نَزْعِهِ ضَعْفٌ، وَاللهُ يَغْفِرُ لَهُ، ثُمَّ أَخَذَهَا ابْنُ الخَطَّابِ مِنْ يَدِ أَبِي بَكْرٍ، فَاسْتَحَالَتْ فِي يَدِهِ غَرْبًا** ـ الغَرْبُ: هو الدلو الكبير الذي تحمله الناقة أو الثور ـ **فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا مِنَ النَّاسِ يَفْرِي فَرِيَّهُ، فَنَزَعَ حَتَّى ضَرَبَ النَّاسُ بِعَطَنٍ**»(٢).

والضعف الذي أشار إليه: الارتداد الذي حصل من الناس، فصار زمن أبي بكر رضي الله عنه قتالًا للمرتدين، وإرجاعًا لهم إلى الإسلام، ولما تولى عمر رضي الله عنه الخلافة، استتبَّ الأمر فصارت الفتوحات التي حصلت في وقته، وحصل الغنائم والخير الكثير. فهذا الذي أشار إليه.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الأذان، باب: أهل العلم والفضل أحق بالإمامة (١/ ١٣٧) برقم (٦٨٢)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الصلاة، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر من مرض وسفر، وغيرهما من يصلي بالناس، وأن من صلى خلف إمام جالس لعجزه عن القيام لزمه القيام إذا قدر عليه، ونسخ القعود خلف القاعد في حق من قدر على القيام (١/ ٣١٣) برقم (٣١٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٤/ ٢٠٥) برقم (٣٦٣٣)، ومسلم في صحيحه، في كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل عمر رضي الله عنه (٤/ ١٨٦٢) برقم (٢٣٩٣) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

وهناك أحاديث كثيرة من هذا القبيل؛ منها ما جاء في حديث جبير بن مطعِم رضي الله عنه، قال: أَتَتِ امْرَأَةٌ النَّبِيَّ ﷺ فَأَمَرَهَا أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْهِ، قَالَتْ: أَرَأَيْتَ إِنْ جِئْتُ وَلَمْ أَجِدْكَ؟ كَأَنَّهَا تَقُولُ: الْمَوْتَ، قَالَ ﷺ «**إِنْ لَمْ تَجِدِينِي فَأْتِي أَبَا بَكْرٍ**»[1].

فخلافة أبي بكر كانت بالإشارة التي قد تكون قريبة من الصراحة، أما عمر رضي الله عنه فكانت خلافته بتخليف أبي بكر له، وإجماع الصحابة على ذلك.

أما خلافة عثمان رضي الله عنه فاستمرُّوا أيامًا يتشاورون فيما بينهم.

قال ابن كثير رحمه الله: «ثُمَّ نَهَضَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رضي الله عنه يَسْتَشِيرُ النَّاسَ فِيهِمَا، وَيَجْتَمِعُ بِرُؤُوسِ النَّاسِ وَأَجْنَادِهِمْ؛ جَمِيعًا وَأَشْتَاتًا، مَثْنَى وَفُرَادَى وَمُجْتَمِعِينَ، سِرًّا وَجَهْرًا، حَتَّى خَلَصَ إِلَى النِّسَاءِ الْمُخَدَّرَاتِ فِي حِجَابِهِنَّ، وَحَتَّى سَأَلَ الْوِلْدَانَ فِي الْمَكَاتِبِ، وَحَتَّى سَأَلَ مَنْ يَرِدُ مِنَ الرُّكْبَانِ وَالْأَعْرَابِ إِلَى الْمَدِينَةِ، فِي مُدَّةِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ بِلَيَالِيهَا»[2].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «بَقِيَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رضي الله عنه يُشَاوِرُ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَأَخْبَرَ أَنَّ النَّاسَ لَا يَعْدِلُونَ بِعُثْمَانَ، وَأَنَّهُ شَاوَرَ حَتَّى الْعَذَارَى فِي خُدُورِهِنَّ»[3].

فبايعوه على هذا؛ ولهذا يقال: إن هذا إجماع.

أما علي رضي الله عنه فكانت بيعته وقت خلاف وفتنة، وبايعه من بايعه من الصحابة، أما الذين لم يبايعوه فلم يتمكنوا من ذلك، ثم أجمعوا على أنه هو الخليفة؛ لأنه أهل لذلك.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: «**لو كنت متخذًا خليلًا**» (٥/٥) برقم (٣٦٥٩)، ومسلم في صحيحه، في كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه (٤/١٨٥٦) برقم (٢٣٨٦).

(٢) البداية والنهاية (٧/ ١٦٤).

(٣) منهاج السنة النبوية (٦/ ٣٥٠).

وقد كانت الخلافة بهذا الترتيب على ما قدَّره الله ﷻ ورَضِيَه، فهو ﷻ رَضِيَ بهذا، ورضي المسلمون به، ومن يطعَنْ في شيء من ذلك، فهو ـ كما يقول الإمام أحمد ـ أضلُّ من الحمار، بل الحمار خير منه، والكلاب أفضل منه؛ لأنه يردُّ الحق!

وفَضْلُهم وحبهم هذا دين يجب أن يُدانَ الله به، ويُتقَرَّب إلى الله به؛ لأنهم هم الواسطة بيننا وبين نبينا، وهم الذين نقلوا لنا ديننا عن نبينا ﷺ، فمن يطعن فيهم يطعن في الإسلام بل يطعن في رسول الله ﷺ؛ ولهذا يقول أبو زُرعة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا رَأَيْت الرجل ينتقص أحدًا من أَصْحَاب رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم، فَاعْلَم أَنه زنديق»[1].

وقوله: «فمن أحبهُم وتَولاهُم، ودعَا لهم، ورعَى حقَّهم، وَعَرَفَ فضْلَهم؛ فَازَ في الفَائِزين».

يؤجَر على ذلك. وهذا أمرٌ أمَرَنا به رسول الله ﷺ؛ فمن أحبهم فبحبه، ومن أبغضهم فهو مبغِض له وكاره له. هؤلاء لا يَجرُؤون على القول بأنهم يُبغِضون رسول الله، ولكنهم في الواقع يبغضونه ويعادونه، ويعادون دينه، ويعادون أولياءه. فإن قالوا: إنهم يحبون أهل البيت، فهذا تَستُّر؛ إذ جعلوا أهل البيت جدارًا يرمون الإسلام من ورائه!



(١) الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي (ص: ٤٩)، تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٨/ ٣٢).

﴿ [قال رَحِمَهُ اللَّهُ]: «ويَرى أصحَابُ الحديثِ الجمعةَ والعِيدَيْنِ وغَيْرَهمَا مِنَ الصَّلَوَات خَلْفَ كُلِّ إمامٍ مُسْلِمٍ؛ بَرًّا كَانَ أو فَاجِرًا.

ويَرَونَ جِهَادَ الكَفَرةِ مَعهم، وإنْ كَانُوا جَوَرَةَ فَجَرة.

ويَرَوْنَ الدُّعاءَ لهُم بِالإصْلَاحِ والتَّوفِيقِ والصَّلاحِ، وبَسْطِ العدل في الرَّعيَّة.

ولا يَرَونَ الخُرُوجَ عليهم بِالسَّيفِ، وإنْ رأَوْا مِنهُم العُدُولَ عن العَدْلِ إلى الجَوْرِ والحَيْفِ.

ويَرَوْنَ قِتَالَ الفِئَة البَاغِيةِ؛ حتَّى تَرجِعَ إلى طَاعَةِ الإمَامِ العَدْلِ.

الشَّرح

وهذا أيضًا من الأمور العامة، ويرى أهل السُّنَّة وجوب العمل بها؛ فصلاة الجمعة والعيدين، والجهاد: يجب أن يكون خلف كل بَرٍّ وفاجر من المسلمين، والمراد بالفاجر: من كان ظالِمًا وعاصيًا، ولكنه مسلم، فلا يجوز الخروج عليه إذا كان إمامًا أو أميرًا، ولا يجوز مخالفته فيما هو ليس محرَّمًا؛ لأن الطاعة تكون بالمعروف.

كما قال الرسول ﷺ: «**لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ**»(١).

فإنما الطاعة بالمعروف، فإذا كانوا على خير وجب مساعدتهم ونصحهم ومعاونتهم، وإذا خرج خارج عليهم يجب قتالُه؛ لأن الله ﷻ أمر بهذا ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ﴾ [الحجرات: ٩]، وإذا لم تَفِئْ وجب قتالها.

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ٣٣٣) برقم (١٠٩٤)، عن علي رضي الله عنه، والطبراني في المعجم الكبير (١٨/ ١٧٠) برقم (٣٨١) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

﴿ [قال رَحِمَهُ اللهُ]: «ويَرَوْنَ الكَفَّ عمَّا شَجَر بَيْنَ أصحَابِ رسولِ الله ﷺ، وتَطهِيرَ الألسِنَة عن ذِكْرِ ما يَتَضَمَّن عيبًا لهم، ونقصًا فيهم.

ويَرَوْنَ الترحُّمَ على جَمِيعِهِم، والمُوَالاةَ لِكَافَّتِهم.

وكذلك يَرَونَ تعظيمَ قَدْرِ أزواجِه ـ رضِيَ اللّهُ عنهُنَّ ـ، والدُّعَاءَ لهُنَّ، ومَعرِفَةَ فضلِهِنَّ، والإقرارَ بِأنَّهن أمَّهَاتُ المُؤمِنينَ».

الشَّرح

إن الأمور التي وقعت بين الصحابة من القتال؛ كوقعتهم في الجَمَل وصِفِّين وغيرها، قد وقعت دون اختيارهم، وإنما هي أمور قدَّرها الله ﷻ؛ لأن الذي أوقعها أصحابُ الفتن، وصاروا يقتلون من كل جانب، فصار كل فريق يظن أنه الفريق الآخَر قد غدر به، فحصل القتل والاقتتال فيما بينهم.

وقد أثنى الله على الصحابة رضوان الله عليهم، وأخبر بأنهم خير أمة أُخرجت للناس، فلا فائدة في الخوض فيما وقع فيهم؛ نقول: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤]. وكل ما فعلوه رضوان الله عليهم كان بالاجتهاد، فهم مأجورون على فعلهم؛ إما أجران، أو أجر وعفو عن الخطأ.

وقوله: «وكذَلك يَرَونَ تعظيمَ قَدْرِ أزواجِه ـ رضِيَ اللهُ عنهُنَّ ـ، والدُّعَاءَ لهُنَّ، ومَعرِفَة فضلهنَّ، والإقرارَ بِأنَّهنَّ أمَّهَاتُ المُؤمِنينَ».

أمهات المؤمنين هن زوجات رسول الله ﷺ في الجنة، فيجب أن نحبهن ونتولاهن، كما أمر الله ﷻ بذلك. فبُغضُهن، وكُرْهُهن، وسبُّهُن: من الكفر بالله ﷻ، ومِن بُغضِ رسول الله ﷺ.

[قال رَحِمَهُ اللهُ]: «ويَعتَقِدُون ويَشهدُون أنَّ أحدًا لا تجبُ له الجنَّة وإنْ كانَ عمَلُه حَسَنًا أخلَصَ العبادات، وطاعتُه أزكى الطاعات، وطريقُه مُرتَضًى، إلَّا أن يتفضَّل الله عليه، فيُوجِبَها له بمنِّه وفضلِه؛ إذ عَمَلُ الخير الذي عَمِلَه لم يتيسَّر إلَّا بتَيسِيرِ اللهِ عزَّ اسمُه، فلو لم يُيسِّره له لم يتيسَّر لهُ، ولو لمْ يَهدِه لفِعْلِه، لمْ يَهْتَدِ لهُ أبدًا بجُهْدِه وجِدِّه.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٢١]، **وقال مخبرًا عن أهل الجنَّة:** ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، **في آيات سِواها».**

الشَّرح

العمل لا يكون ثمنًا للجنة، كما قال رسول الله ﷺ: «**لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ**» **قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟! قَالَ: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ مِنْهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ»**[١].

ولكن العمل سبب؛ فقوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٨] أي: بسبب ما كانوا يعملون.

والمؤلِّف رَحِمَهُ اللهُ يقول هذا ردًّا على المعتزلة الذين يقولون: إن الجنة ثمن للعمل، ويجب على الله أن يُدخِل العامِلَ الجنة ويجزيه! وهذا ضلال بيِّن؛ فالجنة لا تُقدَّر بقَدْرٍ، ولكن الله جلا وعلا يتفضل ويتكرم، فيجعل هذا العمل الذي عَمِلَه سببًا لدخول الجنة، ودخولُها بفضله وكرمه.

---

(١) سبق تخريجه.

۞ [قال رَحِمَهُ اللَّهُ]: «ويعتقدون ويشهدون أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أجَلَ لكلِّ مخلوقٍ أجَلًا، وأنَّ نفسًا لن تموتَ إلَّا بإذنِ اللهِ كتابًا مؤجَّلًا، وإذا انقضى أجَلُ المرء فليسَ إلَّا الموتُ، وليسَ لهُ منهُ فوت؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥].

ويشهدون أنَّ مَن مات أو قُتِلَ، فقد انقضى أجلُه المسمَّى له؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقال: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

الشَّرح

هذا أيضًا ردٌّ على بعض أهل البدع، فهم يقولون: إن المقتول قُتل دون أجَلِه، وبقي شيءٌ مِن رِزقِه، فالقاتل قطع أجلُه!

وهذا ضلال بيِّن؛ لأن الله قدَّر الأسباب وكتبها، فالأسباب تختلف، فلا يموت أحد إلا بأجَلِه، ولا يموت إلا وقد استكمل ما كُتِبَ له من الرزق والعمل.



[قال رَحِمَهُ اللَّهُ]: «ويعتقدون أنَّ الله سُبحانه خلق الشَّياطين يُوسوسُون للآدميين، ويَقْصِدُون استزلالهم، ويتَرصَّدُون لهم؛ قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وأنَّ الله تعالى يُسَلِّطُهمْ على من يَشاءُ، ويَعْصِمُ مِنْ كَيْدِهِمْ ومَكْرِهِم مَنْ يَشاءُ؛ قال اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا﴾ [الإسراء: ٦٤ ـ ٦٥]، وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ﴾ [النحل: ٩٩ ـ ١٠٠] الآية.

الشَّرح

قدَّر الله جَلَّ وَعَلَا الخير والشر، وخلق أسبابهما، ولكنه جَلَّ وَعَلَا أمر بالمستطاع، بل بأقَلَّ من المستطاع، وجعل للإنسان قدرة واختيارًا وعقلًا، ونصَبَ له آياتٍ تدُلُّه على الخير وتحَذِّرُه من الشر، فإذا فعل الشر وأطاع شياطين الجن والإنس، فإن هذا باختياره، ويستحق العقاب.

وفَضْلُ الله جَلَّ وَعَلَا في الهدايةِ والعصمةِ من الشر والضلالِ وأصحابه: يمنُّ به على من يشاء؛ ولهذا يجب على العبد أن يتجه إلى ربه جَلَّ وَعَلَا، يدعوه أن يهديه الصراط المستقيم.

ومن فضله أنه أمرنا بهذا في كل ركعة من ركعات الصلاة، وهو يستجيب إذا سُئل، وإذا أقر الإنسان بخطئه وتاب، فإن الله يتوب عليه.



﴿ [قال رَحِمَهُ اللهُ]: «ويَشْهَدُونَ أنَّ في الدُّنيا سِحْرًا وسَحَرةً، إلَّا أنَّهم لا يَضُرُّونَ أحدًا إلَّا بِإذْنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

ومَنْ سَحَرَ مِنهُمْ، واستَعْمَلَ السِّحرَ، واعتَقَدَ أنَّه يضُر أو ينفَعُ بِغَيرِ إذْنِ اللهِ تعالى؛ فَقَد كَفَرَ بِالله جل جلالُه.

وإذَا وَصَف مَا يكفُرُ بهِ، استُتِيبَ، فإنْ تَابَ وإلَّا ضُرِبتْ عنُقُهُ، وإذا وصَفَ ما لَيسَ بِكُفرٍ، أو تكلَّم بما لا يُفهَمْ، نُهِيَ عنهُ، فإنْ عَادَ عُزِّرَ.

وإن قال: السِّحرُ لَيسَ بِحَرَامٍ، وأنَا أعتَقِدُ إبَاحَتَه؛ وجبَ قَتْلُه؛ لأنَّه استبَاحَ مَا أجمَع المُسلِمُونَ على تَحْرِيمِهِ».

الشَّرْح

السحر عِلمٌ يُتعَلَّم، ولكنه لا يكون إلا بواسطة الشياطين؛ ولهذا لا ينفكُّ الذي ينظر إليه عن الشِّركِ، على القول الصحيح؛ فتجد أن عمل السَّحَرة لا يؤثر حتى يأتوا الأعمال الكُفرية؛ مثل: البول على المصحف، أو تمزيقه، أو الذبح للشيطان، أو السجود له، أو ما أشبه ذلك.

والسحر محرم، وله حقيقة، وهو يُمرِض الإنسان، ويصرفه عن الشيء، ويفرِّق بين المتحابَّين.

وكل ذلك بإذن الله جَلَّ وَعَلَا، ولكن له سبب، والله جَلَّ وَعَلَا خلق أسبابًا للخير وأسبابًا للشَّرِّ.

وحُكم الساحر أن يُضرب بالسيف حتى يموت، كما جاء النص على ذلك في حديث جندب بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «حَدُّ

السَّاحِرِ ضَرْبَةٌ بِالسَّيْفِ»(١)؛ لأنه إن كان مسلمًا فقد ارتدَّ بذلك، وإن كان غير مسلم فَلِكَفِّ فساده عن الناس؛ لأنه يُفسِد، ويفرِّق بين الزوج وزوجه، وغير ذلك.

ويستوي في الحُكم عند الله ﷻ من يعمل السحر؛ سواء سحر بنفسه، أو ذهب للساحر وأمره أن يَسحَر له وأَجَرَهُ على السِّحر.

وهذا كله رد على الذين ينكرون السحر، وأن له أثر، ويقولون: هو تخييل!



(١) أخرجه الترمذي في سننه، في كتاب الحدود، باب ما جاء في حد الساحر: (٤/ ٦٠) برقم (١٤٦٠)، وقال: هذا حديث لا نعرفه مرفوعًا إلا من هذا الوجه، وإسماعيل بن مسلم المكي يُضَعَّف في الحديث من قِبَل حِفْظِه، وإسماعيل بن مسلم العبدي البصري قال وكيع: هو ثقة. ويروي عن الحسن أيضًا، والصحيح عن جندب موقوفًا، والعمل على هذا عند بعض أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ، وغيرهم، وهو قول مالك بن أنس. وقال الشافعي: إنما يُقتَل الساحر إذا كان يعمل في سحره ما يَبلُغ به الكُفرَ، فإذا عمل عملًا دون الكفر فلم نرَ عليه قتلًا.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ويُحَرِّمُ أصحَابُ الحَدِيثِ المُسكِرَ من الأشْرِبَةِ، المُتَّخَذَ مِنَ العِنَبِ، أو الزَّبيبِ، أو التَّمرِ، أو العَسَلِ، أو الذُّرَةِ، أو غير ذَلِكَ ممَّا يُسْكِرُ؛ يُحرِّمُونَ قَلِيلَهُ وكَثِيرهُ، ويُنَجِّسونَهُ، ويُوجِبُونَ بهِ الحَدَّ.

ويَرَونَ المُسارَعةَ إلى أدَاءِ الصَّلواتِ المَكتُوبَات، وإقَامَتَهَا في أوَائِلِ الأوقَاتِ أفضَلَ مِنْ تَأخِيرهَا إلى آخِرِ الأوقَات؛ إحْرازًا للأُجُورِ الجَمِيلة بها والمثُوبَاتِ.

ويُوجِبُونَ قِراءَة فَاتِحَة الكِتَابِ خَلْفَ الإمَامِ.

ويَأمُرُونَ بإتمَامِ الرُّكُوعِ والسُّجودِ حتمًا واجبًا، ويَعُدُّونَ إتْمَامَ الرُّكُوعِ والسُّجودِ بِالطُّمَأنِينَةِ فيهِمَا، والارتِفَاعَ مِنَ الرُّكُوعِ والانتِصَابَ منهُ، والطُّمَأنِينَةَ فيهِ، وكذلكَ الارتِفَاعُ مِنَ السُّجودِ، والجُلُوسُ بين السَّجدَتَينِ مُطمَئِنِّينَ فيهِ: مِنْ أركَانِ الصَّلاةِ التي لا تَصِحُّ إلا بِهَا.

ويَتَواصَون بِقِيَامِ اللَّيلِ للصلَاةِ بَعْدَ المنَام، وبِصلَةِ الأرحَامِ على اختلاف الحَالات، وإفْشَاء السَّلام، وإطْعَام الطَّعام، والرَّحمة على الفُقَراءِ والمَسَاكين والأيْتَام، والاهتِمَام بأمُورِ المُسلِمِينَ، والتَّعَفُّف في المأكَل والمَشْرَب، والمَلبَس، والمَنْكَح، والمصرف، والسَّعي في الخَيْرَاتِ، والأمْر بالمَعْرُوف، والنَّهي عن المُنْكَر، والبِدَار إلى فِعلِ الخَيْراتِ أجْمَعَ، واتِّقاء شرِّ عَاقِبة الطمع.

ويَتَواصَون بِالحق والصبر، ويَتَحَابُّونَ في الدِّينِ ويَتَبَاغضُونَ فيهِ، ويَتَّقُونَ الجِدَالَ في الدِّينِ والخُصُومَاتِ فيهِ، ويُجَانِبُونَ أهل البِدَعِ والضَّلالات، ويُعَادُونَ أصحَابَ الأهواءِ والجَهَالاتِ.

ويَقْتَدُونَ بالنَّبِي ﷺ وبأصَحَابه الذين هم كالنجوم بأيِّهِم اقتدَوا

اهتدَوا، كما كان رسول الله ﷺ يقوله فيهم(١).

ويَقْتَدُونَ بِالسَّلفِ الصَّالِحِينَ مِنْ أئِمَّةِ الدِّينِ وعُلمَاءِ المُسْلِمِينَ، ويَتَمَسَّكُونَ بِمَا كانوا بهِ مُتمسِّكِينَ مِنَ الدِّينِ المتِينِ والحَقِّ المُبِينِ.

ويُبغِضُونَ أهل البِدَع، الذين أحْدَثوا في الدِّين مَا لَيسَ منه، ولا يُحِبُّونَهمْ، ولا يَصْحَبونَهم، ولا يَسمَعُونَ كَلامَهمْ، ولا يُجَالِسُونَهم، ولا يُجَادِلُونَهم في الدِّينِ، ولا يُنَاظِرُونَهم.

ويَرَوْنَ صَونَ آذَانِهم عن سَمَاع أبَاطِيلِهم التِي إذَا مَرَّت بِالآذَانِ، وَقَرَّتْ في القُلوبِ؛ ضرَّت وجرَّت إليهَا من الوسَاوِسِ والخَطرَاتِ الفَاسِدَةِ ما جرَّت، وفيهِ أنْزَلَ الله ﷻ قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦٨].

الشَّرح

هناك أمور ينبغي ألَّا تُكتَب في العقائد، ولكن لَمَّا حصل فيها الخلل ذكرها هنا؛ إذ هي من الأحكام التي تكون في كتب الفقه.

أما التحريم فليس خاصًّا بالمسكِر فقط؛ إذ يجب الابتعاد عن كل ما حرمه الله ورسوله.

والتحريم من خصائص الله؛ فهو الذي يحرِّم، وهو الذي يُحِلُّ، أما الإنسان فلا إرادة له في ذلك؛ لأن هذا شرعُ الله ﷻ.

---

(١) أخرجه ابن بطة في الإبانة (٢/ ٥٦٤) برقم (٧٠٢)، من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

وأخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٢٥) برقم (١٧٦٠)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما. قال ابن عبد البر: هذا إسناد لا تقوم به حجة؛ لأن الحارث بن غصين مجهول.

والحديث ضعفه ابن المُلَقِّن بعد أن ذكر طرقه في البدر المنير (٩/ ٥٨٧).

وقد أخبر الرسول ﷺ بهذا إخبارات عامة، فيدخل في التحريم كل مُسكِر.

والمُسكِر: هو الذي يُبطِل العقل، سواء كان من العنب، أو التمر، أو الشعير، أو العسل، أو غير ذلك.

وقد صار باب المُسكِرات واسعًا، وهي كثيرة جدًّا، وكلها داخلة في نهي رسول الله ﷺ، حتى جاء في ذلك أن: «**مَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ، فَقَلِيلُهُ حَرَامٌ**»[1].

وقد ابتكر أهل الضلال أشياء أكثر ضررًا؛ مثل: المخَدِّرات.

وقوله: «وَيَرَونَ المُسارَعَة إلى أَدَاءِ الصَّلواتِ المَكتُوبَات».

هذا أمر يهم المسلمين، وهو من الأمور المعروفة التي أمر الله ﷻ بها.

وقد اختُلف في قراءة الفاتحة خلف الإمام؛ فكان يجب ألَّا يَنُصَّ على مثل هذا؛ لأن المسألة فيها خلاف، حتى قال بعض العلماء: من قرأ الفاتحة خلف الإمام بطَلَت صلاته!

والمسألة فيها إشكالات من هذه الناحية؛ وذلك أن الله ﷻ يقول: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]. وقد أجمع الصحابة على أن هذه الآية خاصة بالصلاة، فلا تجتمع القراءة مع استماع وإنصات.

والصحيح: أنه يجب على المأموم أن يستمع إلى الإمام إذا كان الإمام يقرأ، وإذا لم يتمكن من قراءة الفاتحة لا يلزمه ذلك، وإنما يقرؤها في سَكَتات الإمام.

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١١/ ١١٩) برقم (٦٥٥٨)، وابن ماجه في «سننه» (٢/ ١١٢٤) برقم (٣٣٩٢) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وأبو داود (٣/ ٣٢٧) برقم (٣٦٨١)، والترمذي (٣/ ٣٥٦) برقم (١٨٦٥). من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

أما إذا كانت الصلاة سرية فهو يقرأ.

وهي تجب على المنفرد والإمام، وقد أمر الرسول ﷺ بذلك في قوله: «**إِنَّمَا جُعِلَ الْإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ، فَإِذَا كَبَّرَ فَكَبِّرُوا، وَإِذَا قَرَأَ فَأَنْصِتُوا**»[(١)]. فكيف يجتمع إنصات مع قراءة؟!

قوله: «وَيَعُدُّونَ إِتْمَامَ الرُّكُوعِ والسُّجودِ بِالطُّمَأْنِينَةِ فيهِمَا..» إتمام الركوع والسجود هذا أيضًا أمر مجمَع عليه، وهو بأمر رسول الله ﷺ، وكذلك الطُّمأنينة في جميع أركان الصلاة وأعمالها.

قوله: «وَيَتَواصَون بِقِيَامِ اللَّيلِ للصلَاةِ بَعْدَ المَنَام...» التواصي بقيام الليل، فقيام الليل ليس واجبًا، مثله في ذلك مثل النوافل، وقد أوجبه الله ﷻ على رسوله ﷺ ولم يوجبه على الأمة، ولكن رسول الله ﷺ رغَّب فيه؛ لِما فيه من الخير والفضل؛ ولهذا ينبغي للإنسان أن لا يخلو من التطوع ومن الاتصال بربه؛ فالصلاة صلة بين العبد وبين ربه، سواء صلاة الليل والنهار، ولكن صلاة الليل لها خصوصية.

قوله: «والأَمْر بالمَعْرُوف، والنَّهي عن المُنْكَر» هذا عام للمسلمين، وقد أمر به الله ﷻ.

وقوله: «وَيَتَحَابُّونَ في الدِّينِ وَيَتَبَاغضُونَ فيهِ، وَيَتَّقُونَ الجِدَالَ في الدِّينِ والخُصُومَاتِ فيهِ».

يجب أن يبتعد العبد عن الخصومات، والجدل، والبِدَع، وغيرها.

والمقصود بالخصومات هنا: الخصومات في الدين التي لا تجدي

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، في كتاب الصلاة، باب الإمام يصلي من قعود (١/ ١٦٥) برقم (٦٠٤)، والنسائي في سننه، في كتاب الافتتاح، باب تأويل قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤] (٢/ ١٤١) برقم (٩٢١)، وابن ماجه في سننه، في كتاب إقامة الصلاة، والسنة فيها، باب إذا قرأ الإمام فأنصتوا (١/ ٢٧٦) برقم (٨٤٦) من حديث أبي هريرة ؓ.

ولا تنفع، ولا تورِث إلا العداوةَ والبغضاء وإيغال النفوس، ويجب الاقتداء في هذا برسول الله ﷺ؛ لأن الله ﷻ أمرنا أن نقتدي به.

وبغض أهل البدع دين يُدان الله ﷻ به، وهو ﷻ يجزي عليه، وكذلك التحذير من استماع كلامهم أو الجلوس معهم؛ لأنهم أعدى من الجَرَب. وقد كان السلف يحرصون على هذا.

وقد قال الله ﷻ فيمن يتكلم بالكفر والسب وغيره: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ٦٨]؛ فيجب أن يَبتعِدَ عنهم حتى لا يكون مثلهم، وقال ﷻ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]، فيجب على المسلم أن يبتعد عن أهل البدع وأهل الضلالات.



[قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: «وعَلامَاتُ البِدَع على أهْلِهَا ظَاهِرَةٌ بَادِيَةٌ، وأظهَرُ آيَاتِهِم وعلامَاتِهِم: شِدَّةُ مُعَادَاتِهِم لحَمَلةِ أخبَار النَّبِي ﷺ، واحتِقَارُهم لهمْ واستخفَافهم بِهم، وتَسْمِيَتهم إيَّاهم حَشويَّة، وجَهلَة، وظاهِرِيَّة، ومُشَبِّهة؛ اعتِقَادًا منهُم في أخبَارِ رسول الله ﷺ أنَّها بِمَعزِلٍ عن العِلْمِ، وأنَّ العِلْمَ ما يُلْقِيهِ الشَّيطانُ إليهِم مِنْ نَتَائِج عقُولِهم الفَاسِدَة، ووسَاوِسِ صُدُورِهِمُ المُظْلِمَة، وهَواجِسِ قُلُوبِهم الخَالِيَة عن الخَيْرِ، وكلمَاتهم وحجَجهم العَاطلة، بل شُبَهِهم الداحضة البَاطلة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٣]، ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: ١٨].

سمعتُ الحاكم أبا عبد الله الحافظ يقولُ: سمعتُ أبا علي الحسين بن علي الحافظ يقولُ: سمعتُ جعفر بن أحمد بن سنانٍ الواسطي يقولُ: سمعتُ أحمد بن سنانٍ القطَّان يقولُ: «ليس في الدُّنيَا مُبتدِعٌ إلا وهو يُبغِضُ أهل الحديث، فإذا ابتدَع الرَّجل نُزِعت حلاوةُ الحديث مِنْ قَلْبِهِ»[١].

وسمعتُ الحاكِمَ يقولُ: سمعتُ أبا الحسين محمد بن أحمد الحنظلي ببغداد يقولُ: سمعتُ محمد بن إسماعيل التِّرمِذِي يقولُ: كُنتُ أنَا وأحمد بن الحسن التِّرمذي عند إمام الدِّين أبي عبد الله أحمد بن حنبل، فقال له أحمد بن الحسن: يا أبا عبد الله، ذَكرُوا لابن أبي قتيلَة بمكة أصحَابَ الحديث، فقال: أصحابُ الحديث قوم سُوء! فقام أحمد بن حنبل وهو يَنْفُضُ ثَوبَه ويقولُ: زِنديق! زِنديق! زِنديق! حتَّى دخلَ البَيتَ[٢].

---

(١) معرفة علوم الحديث للحاكم (ص: ٤).

(٢) ذم الكلام وأهله (٢/ ٧٤).

وسمعتُ الحَاكم أبا عبد الله يقولُ: سمِعتُ أبا نصر أحمد بن سهل الفَقِيه ببخارى يقولُ: سمعتُ أبا نصر بن سلام الفَقِيه يقولُ: «ليس شيءٌ أثقلَ على أهل الإلحَاد ولا أبغضَ إليهم، مِنْ سَمَاع الحديث وَرِوَايتِهِ بإسنَادِهِ»(١).

وسمِعتُ الحاكِم يقولُ: سَمِعتُ الشَّيخ أبا بكر أحمد بن إسحاق بن أيوب الفَقِيه وهو يُنَاظِر رَجُلًا، فقال الشَّيخ أبو بكر: حدَّثنا فُلان، فقال لهُ الرَّجل: دَعْنَا مِنْ حدَّثَنا، إلى متى حدَّثنا؟ فقال الشَّيخ له: قُمْ يا كَافِر، فلا يحلُّ لك أنْ تَدخُلَ دَارِي بَعْدَ هذا أبدًا! ثُمَّ التَفَتَ إلينا وقال: ما قُلتُ لأحدٍ قط: لا تَدْخل دَارِي إلَّا هذا(٢).

وسمعتُ الأستاذ أبَا منصور محمد بن عبد الله حَمْشَاد العَالِمَ الزَّاهد يقول: سمعتُ أبا القاسم جعفر بن أحمد المُقْرِئ الرَّازي يقول: قُرِئ على عبد الرحمن بن أبي حاتم الرَّازي وأنَا أسمعُ: سمعتُ أبِي يقول ـ عَنَى به الإمَامَ في بَلدِهِ أباه أبا حاتم محمد بن إدريس الحنظلي الرَّازِيَّ ـ يقولُ: «علامَةُ أهل البِدَع الوقِيعَةُ في أهل الأثَر، وعلامَةُ الزَّنَادقة: تَسْمِيَتُهمْ أهل الأثرِ حَشوِيَّة، يُرِيدُونَ بِذَلِكَ إبطَالَ الآثار، وعَلامَةُ القَدَرِيَّة: تَسْمِيَتُهمْ أهل السُّنَّةِ مُجَبِّرة، وعَلامَةُ الجَهْمِيَّة: تَسْمِيتُهمْ أهل السُّنَّة مُشبِّهَة، وعلَامَة الرَّافِضَة: تَسْمِيَتُهمْ أهل الأثَرِ نَابِتَة ونَاصِبة».

قُلتُ: وكُلُّ ذلك عَصَبِيَّة، ولا يَلْحَقُ أهلَ السُّنَّةِ إلَّا اسمٌ واحِد، وهو أصحَاب الحَدِيثِ(٣).

---

(١) معرفة علوم الحديث للحاكم (ص: ٤).

(٢) ذم الكلام وأهله (٢/ ٧١).

(٣) الاعتقاد الخالص من الشك والانتقاد (ص: ٣٢٧).

قُلتُ أنَا: رَأيْتُ أهلَ البِدَع في هذه الأسمَاءِ التي لقَّبُوا بها أهل السُّنَّة، ولا يلحقهم شيء منها؛ فضلًا من الله ومنَّة، سَلكُوا معهم مَسلَكَ المُشرِكِينَ معَ رسولِ الله ﷺ؛ فإنَّهم اقْتَسَموا القولَ فيهِ: فسمَّاهُ بَعْضُهم سَاحِرًا، وبَعْضُهم كَاهِنًا، وبَعْضُهم شَاعِرًا، وبعضُهم مَجنُونًا، وبعضُهم مَفتُونًا، وبعضُهم مُفترِيًا مُختَلِقًا كَذَّابًا، وكانَ النَّبي ﷺ مِنْ تلك المَعَائِب بَعِيدًا بَرِيئًا، ولمْ يكُن إلا رسولًا مُصْطَفًى نبيًّا؛ قال اللَّهُ ﷻ: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٨].

وكذلك المُبْتَدِعَةُ ـ خَذَلهُم الله ـ اقْتَسَمُوا القولَ في حَمَلَةِ أخبَارِه، ونَقَلَةِ آثَارِهِ، وَرُوَاةِ أحَادِيثِهِ المُقتَدِينَ به المُهتَدِينَ بِسُنَّتِهِ المَعروفِين بأصحَاب الحَدِيث؛ فَسَمَّاهمْ بعضُهم حَشويَّةً، وبعضُهم مُشبِّهة، وبعضُهم نَابِتَة، وبعضهم نَاصِبَة، وبعضهم جَبْرِيَّة.

وأصحَابُ الحَدِيثِ عِصَامَةٌ من هذهِ المَعَائب بَرِيئَة، نَقِيَّة زَكِيَّة تَقِيَّة، وليْسُوا إلَّا أهلَ السُّنَّةِ المضيئة، والسِّيرَةِ المَرضِيَّة، والسُّبل السَّوِيَّة، والحُجَجِ البَالِغَة القَوِيَّة، قد وفَّقَهم الله ﷻ لاتِّبَاعِ كِتَابهِ، وَوَحْيهِ وخِطَابِهِ، واتِّبَاع أقرب أوليائه، والاقتِدَاءِ بِرسُوله ﷺ في أخبَارِه التي أمَرَ فيها أُمَّتَه بالمَعرُوفِ من القولِ والعملِ، وزَجَرهُمْ فيها عن المُنْكَرِ منهما، وأعَانَهم على التَّمسُّكِ بِسِيرَتِه، والاهتِدَاء بِمُلَازَمَة سُنَّتِهِ، وجعَلَهم من أتباع أقرب أوليائه وأكرَمِهم وأعزِّهم عليه، وشَرَحَ صُدُورَهم لِمحبَّتِهِ، ومحبَّةِ أئِمةِ شَرِيعَتِه، وعُلَمَاء أُمَّتِهِ.

ومَنْ أحَبَّ قومًا فَهو مَعهم يومَ القِيَامِة بِحُكْمِ قَوْلِ رسُولِ اللّهِ ﷺ: «**المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**»(١)، فهو معهم.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الأدب، باب علامة حب الله ﷻ (٨/ ٣٩) برقم (٦١٦٨)، ومسلم في صحيحه، في كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع =

الشَّرح

قوله: «وعَلَامَاتُ البِدَعِ... شِدَّةُ مُعَادَاتِهِم لحَمَلَةِ أخبَار النَّبِي ﷺ، واحتِقَارُهم لهمْ واستخفَافهم بِهِم، وتَسْمِيَتهم إيَّاهم حَشويَّة، وجَهَلَة، وظاهِرِيَّة، ومُشَبِّهة...»

قولهم هذا ليس لأهل الحديث فقط؛ لأن اصطلاح أهل الحديث قد يكون عامًّا، وقد يكون خاصًّا؛ فقد يُقصَد بأهل الحديث من يؤمنون به ويتَّبِعونه ويعملون به، ولو لم يكونوا حَفَظة، وقد يُقصَد به من يحفظونه ويكتبونه ويبحثون عنه.

إن أهل السُّنَّة يدخل فيهم أهل الحديث، وأهل الفقه، وعوامُّ المسلمين الذين يتَّبعونهم على هذا؛ فكلهم على هذه الطريقة التي أمرهم الله ﷻ بها، وكان عليها رسول الله ﷺ، حسَب الإمكان، وكلهم يعادون أهل البدع، وأهلُ البدع يعادونهم.

والمقصود بالبدع: البِدَعُ الكبيرة؛ مثل: الجهمية، والقَدَرية، والخوارج، والمُرجِئة، والرافضة وغيرهم؛ فهؤلاء عداؤهم شديد معروف، ولو تمكنوا لعَمِلوا أعمالًا فظيعة، وهاهم المعتزلة لما حكموا قتلوا العلماء وأرغموا الناس على القول بالباطل!

إن هؤلاء المبتدعة يعتقدون أن أهل الحديث، والعاملين به، والمتَّبِعين له: أعداء الله، وإن كانوا قد لا يعتقدون أنهم ضُلَّال؛ لأن الأمر عندهم واضح وجَلِي، ولكنهم يُبغِضون أعمالهم وما هم عليه.

والواقع أن أهل السُّنَّة هم أعلم الناس بحال رسول الله ﷺ وبما

= من أحب (٤/ ٢٠٣٤) برقم (٢٦٤٠) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

كان عليه؛ فهم أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ، فيجب موالاتهم وحبهم واتباعهم على الحق.

ولا يخلو أحد من خلاف أو من معصية؛ لأن العصمة لرسول الله ﷺ، ولكنهم إذا وقعوا في خلاف أو في معصية، يتوبون ويتناصحون فيما بينهم.

أما نَبْزُهم بالألقاب السيئة؛ مثل: «**حَشويَّة، وجَهَلَة، وظاهِرِيَّة، ومُشَبِّهة...**» الحشوية والنابتة وما أشبه ذلك، فهذا من المنكر الذي نهى الله عنه؛ قال ﷻ: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ [الحجرات: ١١].



۞ [قال رَحِمَهُ اللَّهُ]: «وإحْدَى عَلَامَاتِ أهلِ السُّنَّةِ: حُبُّهمْ لأئمَّةِ السُّنَّةِ وعُلمَائِها وأنصَارِهَا وأوليَائِهَا، وبُغْضُهُم لأئِمَّة البِدَع الذِينَ يَدْعُون إلى النَّار، ويدُلُّونَ أصحَابَهمْ على دَارِ البَوَارِ.

وقد زيَّن اللّهُ سُبَحانَه قُلُوبَ أهلِ السُّنَّة، ونوَّرهَا بِحُبِّ عُلَمَاءِ أهل السُّنَّةِ؛ فَضْلًا مِنهُ جل جلالُه ومِنَّةً.

أخبرنا الحاكم أبو عبد الله الحافظ ـ أسكَنَهُ اللّهُ وإيَّانَا الجنَّة ـ، قال: حدَّثنا محمد بن إبراهيم بن الفضل المُزكي، قال: حدَّثنا أحمد بن سَلمَة، قرأ علينا أبو رَجَاء قُتَيبة بن سعيد كتاب «الإيمَان» له، فكَانَ في آخِرِه: «فإذَا رأيْتَ الرَّجُلَ يُحبُّ سفيان الثَّوري، ومالك بن أنسٍ، والأوزاعيَّ، وشُعْبَة، وابن المُبارك، وأبا الأحْوَص، وشَرِيكًا، ووَكِيعًا، ويحيى بن سعيد، وعبد الرحمن بن مَهْدِي؛ فَاعْلَمْ أنَّه صَاحِبُ سُنَّة»[١].

قال أحمد بن سلمة رَحِمَهُ اللَّهُ: فألحَقْتُ بِخَطِّي تحته: ويحيى بن يحيى، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، فلمَّا انتهى إلى هذا الموضع نظرَ إلينا ـ أهلَ نيسابُور ـ، وقال: هؤلاء القَومُ يتعصَّبون ليحيى بن يحيى، فقلنا له: يا أبَا رَجَاء، ما يحيى بن يحيى؟!

قال: رجلٌ صالحٌ إمامُ المسلمين، وإسحاق بن إبراهيم إمامٌ، وأحمد بن حنبل أكبر ممَّن سَمَّيتُهُم كلهم.

وأنَا ألحَقْتُ بِهؤُلاء الذِينَ ذَكَرَهُم قُتيبة رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ مَنْ أحبَّهم فهو صاحِبُ سُنَّة مِن أئِمَّةِ أهل الحَدِيثِ الذِينَ بهِم يقْتَدونَ، وبِهَدْيهم

(١) شرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي (ص: ٧١).

يهتَدونَ، ومِنْ جُمْلَتِهِم ومُتَّبِعِيهِم وشِيعَتِهِم أنفُسهم يعدُّونَ، وفي اتبَاعِهم آثارَهُم يَجِدُّونَ ـ جَمَاعَةً آخَرِينَ:

مِنْهُم: محمد بن إدريسٍ الشَّافِعي المُطَّلِبِي، الإمامُ المُقَدَّمُ، والسَّيدُ المُعظَّم، العَظِيمُ المِنَّة على أهل الإسلام والسُّنَّة، المُوفَّقُ المُلقَّنُ المُلهَمُ المُسدَّدُ، الذِي عَمِلَ فِي دِينِ اللهِ وسُنَّة رسُولِه ﷺ مِنَ النَّصرِ لهُما والذَّبِّ عنهُما، مَا لَمْ يَعْمَلْهُ أحدٌ مِنْ عُلَمَاء عَصْرِهِ ومَنْ بَعْدَهُمْ.

ومِنْهُم الذِينَ كانُوا قَبْلَ الشَّافِعي رَحِمَهُ اللَّهُ: كَسَعِيدِ بن جُبَيْرٍ، والزُّهرِي، والشَّعْبِي، والتَّيْمِي.

ومَنْ بَعْدَهُم: كَاللَّيثِ بن سعدٍ، والأوزاعِي، والثَّوري، وسفيان بن عُيَينَةَ الهِلَالِي، وحمَّاد بن سَلمَة، وحمَّاد بن زيْدٍ، ويُونُس بن عُبيدٍ، وأيوب السَّختياني، وابن عون، ونُظَرَائِهم.

ومَنْ بَعْدَهُم: مثل يزيد بن هارون الواسطي، وعبد الرَّزاق بن همام الصنعانِي، وجَرِير بن عبد الحَمِيد الضبي.

ومَنْ بَعْدَهُم: مثل محمد بن يحيى الذُّهلي، ومحمد بن إسماعيل البخاري، ومُسلِم بن الحجَّاج القُشَيرِي، وأبِي داود السِّجِستَانِي، وأبي زُرْعَة الرَّازي، وأبِي حاتِم، وابنِه، ومحمد بن مسلم بن وَارَه، ومحمد بن أسلم الطُّوسِي، وعُثمَان بن سعيدٍ الدَّارِمي، ومحمد بن إسحاق بن خُزَيمَة النيسَابوري الذي كان يُدعى إمَامَ الأئمَّة، ولَعَمْرِي كانَ إمامَ الأئمَّةِ في عَصْرِهِ وَوَقْتِهِ، وأبِي يَعقوبَ إسحاق بن إسماعيل البُستِي، والحسن بن سفيان الفسوي، وجَدِّيَّ من قِبَلِ أبِي، سعد يحيى بن منصور الزَّاهد الهَرَوي، وأبي حاتم عَدِي بن حَمْدَوَيه الصَّابُوني، وَوَلَدَيه سَيْفَي السُّنَّة: أبي عبد الله الصَّابُونِي، وأبي عبد الرَّحمن الصَّابُوني، وغيرهم من أئِمَّة السُّنَّةِ المُتَمسكِين بها، نَاصِرِينَ لها، دَاعِين إليها، دَالِّينَ عليها».

الشَّرح

ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أسماء أهل السُّنَّة، ولا حصر لأسمائهم؛ فهم خلقٌ كثير جدًّا. وفي الجملة يجب موالاتُهم وحبُّهم والدعاءُ لهم، أما النص على فلان وفلان، فهذا فيه تكلُّف.

وصحابة رسول الله ﷺ أولى بأن يُنَصَّ عليهم، ويقال: فلان وفلان، ولكن المقصود أن المؤمنين إخوة كلهم.

وإذا كان للإنسان حظ زائد من الطاعة يجب أن يكون حبه أكثر؛ لأن الإنسان يُحَبُّ على حسب إيمانه وقُرْبِه من الله جَلَّ وَعَلَا، ويُكْرَه على حسب ما عنده من المعصية؛ هذا هو العدل.

وقوله: «هؤلاء القَومُ يتعصَّبون ليحيى بن يحيى».

الأقرب أنهم يُبغِضون يحيى بن يحيى. وهذا عكس ما ذكره من أنهم يتعَصَّبون له.



﴿ [قال رَحِمَهُ اللَّهُ]: «وهذهِ الجُمَلُ التي أثبتُّها في هذا الجُزءِ كانت مُعْتَقَدَ جَمِيعِهم، لمْ يخالف فيها بعضهم بعضًا، بل أجمَعُوا عليها كُلِّها، ولم يَثْبُتْ عن أحدٍ منهم ما يضادُّها.

واتفقُوا معَ ذلكَ على القَولِ بِقَهرِ أهل البِدَع، وإذْلَالِهِمْ وإخْزَائِهم، وإبْعَادِهِم وإقصَائِهم، والتَّباعد منهم ومِنْ مُصَاحَبَتِهم ومُعَاشَرتِهم، والتَّقرُّبِ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ بِمُجَانَبَتِهم ومُهَاجَرَتِهم.

قال الأستاذ الإمَامُ رَحِمَهُ اللَّهُ: وأنَا ـ بِفَضْلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ومنَّةٍ ـ مُتَّبعٌ لآثَارِهم، مُسْتَضِيءٌ بِأنْوَارِهم، نَاصِحٌ إخوَانِي وأصْحَابِي ألا يَزيغُوا عن مَنَارِهم، ولا يَتَّبِعُوا غير أقْوَالِهم، ولا يَشْتَغِلوا بِهذِه المُحْدَثَاتِ من البِدَعِ التي اشْتَهَرت فيمَا بين المسلمين، والمناكير من المسائل التي ظَهَرت وانْتشَرَت، ولو جَرَت واحِدَةٌ منها على لِسَانِ واحدٍ في عَصْرِ أُولئِكَ الأئمَّة؛ لَهَجرُوه، وبدَّعوهُ، ولَكذَّبُوهُ، وأصَابُوه بكل سُوءٍ ومكرُوهٍ.

ولا يَغُرَّنَّ إخوَانِي ـ حفِظَهم اللّهُ ـ كثرةُ أهلِ البِدَعِ، وَوُفُورُ عَدَدِهم؛ فإنَّ وفور أهل الباطل، وقِلَّة عدد أهل الحق: من أمَاراتِ اقتِراب السَّاعة؛ إذ الرَّسول المُصطَفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنَّ مِنْ عَلامَاتِ السَّاعَةِ واقْتِرَابِهَا: أنْ يَقِلَّ العِلْمُ، ويَكْثُرَ الجَهْلُ**»(١). والعِلْمُ هو السُّنَّة، والجَهْلُ هو البِدْعَةُ.

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنَّ الإيمَانَ لَيَأرِزَ إلَى المَدِينَةِ كَمَا تَأْرِزُ الحيَّةُ إلَى

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب العلم، باب رفع العلم وظهور الجهل (١/ ٢٧) برقم (٨١)، ومسلم في صحيحه، في كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان (٤/ ٢٠٥٦) برقم (٢٦٧١) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

جُحْرِهَا»(١)، وقال ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ وفي الأرض أحَد يَقُولُ: اللّهُ»(٢).

ومَنْ تَمَسَّك اليوم بِسُنَّة رسولِ اللّه ﷺ وعَمِلَ بِها، واستَقَامَ عليها، ودَعَا إليها؛ كَانَ أَجْرُهُ أوفَرَ وأكثَرَ من أجرِ من جَرَى على هذِهِ الجُمْلَةِ في أوائِلِ الإسلَام والمِلَّةِ؛ إذ الرَّسول المُصطفَى ﷺ قال: «لَهُ أَجْرُ خَمْسِينَ»، فَقِيلَ: خَمْسِينَ مِنْهُمْ؟ قَالَ: «بَلْ مِنْكُمْ»(٣).

وإنَّما قال ﷺ ذلكَ لمَن يَعْمَل بِسُنَّتِهِ عند فَسَادِ أُمَّتِهِ.

وجدْتُ في كتابِ الشَّيخ الإمَامِ جدِّي أبي عبد اللّه محمد بن عَدِي بن حمدويه الصَّابُونِي رَحِمَهُ اللَّهُ: أخبرنا أبو العبَّاس الحسن بن سفيان النَّسوِي، أنَّ العبَّاس بن صُبَيح حدَّثهم، قال: حدَّثنا عبد الجبَّار بن طاهر، قال: حدَّثني مَعْمَر بن راشد، سَمِعتُ ابن شهاب الزُّهري يقولُ: «تَعليمُ سُنَّة أفْضلُ من عِبادَةِ مائَتَي سَنَةٍ»(٤).

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد اللّه بن محمد بن زكريَّا الشَّيبانِي رَحِمَهُ اللَّهُ، قال: أخبرنا أبو العبَّاس محمد بن عبد الرَّحمن

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب العلم، باب الإيمان يَأرِزُ إلى المدينة (٣/ ٢١) برقم (١٨٧٦)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود كما غريبًا، وأنه يَأرِزُ بين المسجدين (١/ ١٣١) برقم (١٤٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود كما غريبًا، وأنه يَأرِزُ بين المسجدين (١/ ١٣١) برقم (١٤٨) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، في كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي (٤/ ١٢٣) برقم (٤٣٤١)، والترمذي في سننه، في كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة المائدة (٥/ ٢٥٧) برقم (٣٠٥٨)، وابن ماجه في سننه، في كتاب الفتن، باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ [المائدة: ١٠٥] (٢/ ١٣٣٠) برقم (٤٠١٤) من حديث أبي ثعلبة الخشني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٤) ذم الكلام وأهله (٥/ ٥٥).

الدَّغولِي، قال: سَمِعتُ محمد بن حاتم المُظفَرِي يقولُ: سمعتُ عمرو بن محمد يقولُ: كان أبو معاويةَ الضَّريرُ يُحدِّث هارون الرَّشيدَ، فحدَّثه بِحديث أبي هريرة: «احْتَجَّ آدَمُ وَمُوْسَى»(١)، فقال عيسى بن جَعْفَر: كيفَ هذا وبين آدمَ ومُوسَى ما بَينَهُمَا؟ قال: فَوَثَبَ به هارُونُ، وقال: يُحدِّثُكَ عن الرَّسول ﷺ وتُعَارِضُه بِكيفَ؟! قال: فمَا زَالَ يقول حتَّى سَكَنَ عنه(٢).

وهكَذا يَنْبَغِي لِلمَرْءِ أنْ يُعظِّمَ أخْبَارَ رسُولِ اللهِ ﷺ، ويُقَابِلَها بِالقَبُولِ والتَّسليم والتَّصدِيقِ، ويُنْكِرَ أشدَّ الإنكَارِ على مَنْ يَسلُك فيها غيرَ هذا الطَّرِيقِ الذِي سَلَكَهُ هَارُونُ الرَّشِيدُ رَحِمَهُ اللهُ مع مَنِ اعترضَ على الخَبَرِ الصَّحِيحِ الذِي سَمِعَه بِكيْفَ، على طَرِيقِ الإنْكَارِ والابتعاد عنه، ولمْ يَتلقَّه بِالقَبُول كمَا يَجِبُ أنْ يُتَلقَّى جَمِيعُ مَا يَرِدُ مِنَ الرَّسول ﷺ.

جَعَلَنَا اللّهُ سُبحَانَهُ من الذِين يَسْتَمِعُونَ القَولَ فَيَتَّبِعُونَ أحْسَنَهُ، ويتَمَسكُونَ في دُنْيَاهم مُدَّةَ محيَاهم بِالكِتَابِ والسُّنَّة، وجنَّبَنا الأهواءَ المُضِلَّة، والآرَاءَ المُضْمَحِلَّة، والأسْوَاءَ المُذِلَّة؛ فَضْلًا منْهُ ومِنَّة، آمِين.

آخِرُهُ، والحمدُ للهِ وحدهُ، وَصَلَّى اللّهُ على سيِّدنا محمد وعلى آلهِ وصَحبِهِ وسَلَّم.

الشَّرْح

يقول رَحِمَهُ اللهُ: إن التمسُّكَ بالسنة وحُبَّ أهلها: دين يثاب الإنسان عليه، وينبغي أن يكون المرء كذلك، وكذلك من أحب الخير لا بد أن يبغض الشر. ومن علامات أهل السُّنَّة أنهم يحبون من كان له أثر في الإسلام وكان له قَدَم في تعليم الناس أو إرشادهم، سواء كان من أهل العلم أو من غيرهم؛ فمن يعمل عملًا متعديًا إلى المسلمين أو إلى

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) تاريخ بغداد (٣/ ١٣٤).

الإسلام عامَّةً، فله مزية على غيره؛ سواء كان قائدًا، أو سلطانًا، أو عالِمًا، أو آمرًا بالمعروف، أو ناهيًا عن المنكر.

ثم يجب على المسلمين عمومًا أن يتعاونوا على البر والتقوى، ويتناصروا، ويحب بعضهم بعضًا، كما قال رسول الله ﷺ: «**لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ**»[١].

فهذا من الأمور التي يجب أن يُعتنى بها، وهي من أخلاق الإسلام التي حثَّ الله عليها، والتي نقتدي فيها برسول الله ﷺ.

كما يجب أيضًا تعظيم كتاب الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ؛ فتعظيم كتاب الله ﷻ من علامات الاهتداء، وعلامات تعظيم الله ﷻ.

ومن المؤسف أن تجد بعض الناس يبتذل المصحف؛ فيرميه على الأرض، وقد يمد رجله إليه، وما أشبه ذلك، وقد يكون هذا غفلة وسهوًا وقد يكون تساهلًا.

كما أن حديث رسول الله ﷺ فيه الهدى والنور؛ فيجب أن يقَدِّره الإنسان ويعظِّمَه تعظيمًا لرسول الله ﷺ.

وقد سُئل ابنُ مسعود رضي الله عنه: كيف يعرف الإنسانُ قَدْرَه؟ فقال: انظر قَدْر كتاب الله عندك؛ فإنَّ قَدْرَك عند الله ﷻ كذلك!

وقال رضي الله عنه: «إذا أَحَبَّ اللهُ تعالى عبدًا أَعْطَاهُ الإِيمانَ؛ فالإِيمَانُ عطِيّةُ اللهِ؛ يُعْطِيهِ مَنْ يشاءُ، ويُفَضِّلُ مَنْ يشاءُ على مَنْ يشاءُ»[٢].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، وأن محبة المؤمنين من الإيمان، وأن إفشاء السلام سبب لحصولها (١/ ٧٤) برقم (٥٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٩/ ٢٤٥).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «اطلُبْ قَلْبك فِي ثَلَاثَةِ مَوَاطِنَ: عِنْد سَماع الْقُرْآن، وَفِي مجَالِس الذِّكر، وفِي أوقات الخَلْوةِ؛ فَإِن لم تَجدهُ فِي هَذِه المواطن، فسَلِ الله أَن يَمُنَّ عليك بقلب؛ فإِنَّه لا قَلْبَ لك»[1].

نسأل الله ﷻ أن يجعلنا من المؤمنين المتَّبِعين للحق، الذين يناصرونه ويحبُّونه، ويكونون عند أمر رسول الله ﷺ؛ يحبونه، ويقولون به، ويعملون به، وينشرونه بين عباد الله ﷻ، ويُبغِضون ما كان مضادًّا له. والله أعلم.

وصلى الله وسلَّم وبارك على عبدِه ورسولِه نبيِّنا محمدٍ.



---

(١) كتاب الفوائد لابن القيم (١/ ١٤٩ ـ ١٥٠).

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

